


خاتمة الرويب

دور أئمة أهل البيت  
في

المسألة السياسية

دكتور الصادق الموسوي  
بغداد - لبنان

Bibliotheca Alexandrina  
0116435









عَاوِلُ اللُّؤْبِيْنَ

دَوْرُ أُمَّةٍ أَهْلِ الْبَيْتِ  
فِي

الْحَيَاةِ السَّيِّئَةِ

دَارُ التَّعَارُفِ لِلتَّحْقِيقَاتِ  
بِكَيْرُوتِ - لُبْنَانِ

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م



المكتب : شارع سوويا - بناية درويش - الطابق الثالث  
الإدارة والمعرض - حارة حريك - المنشية - شارع دكاش - بناية ابو علي طعام  
ص - ب ٨٦٠١ - ١١  
تلفون ٨٣٧٨٦٨ - ٨٣٦٦٩٦  
تلكس تعارف ٢٣٦٤٤ - LE

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المدخل لدراسة تاريخ ائمة أهل البيت (ع)

توطئة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآل بيته الأطهار  
وصحبه الأبرار وبعد:

- ١ -

لقد كان لكتاب الائمة الاثني عشر، دراسة تحليلية على اختصاره، المكتشف  
صدي استحسان لدى القراء الاعزاء، ربما لأنهم رأوا فيه منهجة بحث جديدة في  
تناول تأريخ أهل البيت (ع) حيث اعتمدنا في دراستنا لتأريخهم (ع) على المنهج  
المقترح للسيد الشهيد محمد باقر الصدر (رض) في بحثه القيم المنشور بمجلة  
الأضواء بعنوان « دور الائمة في الحياة الاسلامية ومحاضراته التي القاها على طلبته  
في النجف الأشرف، وذلك باعتماد المنهج (الترابطي) الشمولي الذي يدرس حياة  
كل إمام وتأريخه على أساس النظرة الكلية بدلاً من النظرة التجزئية، والنظر إلى



الأئمة ككل مترابط ودراسة هذا الكل وكشف ملامحه العامة وأهدافه المشتركة ، ومزاجه الأصيل وفهم الترابط بين خطواته ، وبالتالي الدور الذي مارسه الأئمة جميعاً في الحياة الإسلامية<sup>(١)</sup> .

وكان من المؤشرات على اقبال القراء للكتاب هو نفاذ الطبعة الأولى وتشجيع كثير من الأخوة القراء على طبعه وتطويره ونشره بشكل أكثر تفصيلاً من الطبعة الأولى ؛ ورأينا وفاء للقارئ العزيز أن نباشر بكتابة تاريخ أهل البيت ( ع ) على شكل سلسلة «تاريخ ائمتنا» تصدر تباعاً وتحمل عنوان رئيسي « دور أئمة أهل البيت في الحياة الإسلامية» نيمنا بالتسمية التي أطلقها الشهيد الصدر (ق - س) على مقالته، أمل من الله دراسة تحليلية .

- ٢ -

## كيف ندرس تاريخ أهل البيت ( ع ) ؟

لقد كتب أهل البيت ( ع ) التاريخ وصنعوه، أما الآن وفي هذه المرحلة من سقوط الحكم الإسلامي على أثر الغزو الثقافي والعسكري للاستكبار العالمي ، حاول المستكبرون عزل الإسلام واسقاطه عن جميع الحقول ، حيث أقيمت بدلاً عن الإسلام قواعد فكرية أخرى تصوغ حياة المسلمين على أساسها، وضمن إطار محاولاتهم الدؤوبة والمدروسة لتحطيم الكيان التاريخي والاجتماعي والسياسي للأمة الإسلامية دأب المستكبرون الغزاة على التأكيد على الجوانب الفردية ودفع وتشجيع النظرة التبعية في فهم الإسلام .

ولكن بعد أن صحت الأمة الإسلامية على صيحات روادها ومفكريها، اخذت تعي وجودها وتفكر في رسالتها الحقيقية المتمثلة في الإسلام ، بعد ان اكتشفت واقع القواعد الفكرية الجديدة ونوع التجارب الاجتماعية التي حملها عليها الاستعمار .

(١) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية / الأمين ج ٢ ، ص : ٩٤ ، يراجع مقال «دور الأئمة في الحياة الإسلامية للشهيد السيد الصدر» .



ومن الطبيعي أن ينعكس هذا الوعي على مفكري الإسلام ويؤكد احساسهم الذاتي خلال التجربة المريرة التي عاشوها في عصر ما بعد الاستعمار، حيث السقوط والتخلف الحضاري وآثار الغزو الثقافي للمستكبر، وقراءة التأريخ الإسلامي بذهنية متأثرة بالحقد الصليبي والاستشراقي، أو العقلية المادية (اليسارية) حيث التفسير المادي للتأريخ وتصنيف ائمة أهل البيت (ع) إلى يميني ويساري<sup>(١)</sup>، وهو أسلوب خطير يمارس في انتقائه اللاموضوعي، وفي تزييفه وتحويره، منهجاً مادياً خاطئاً، اشد في بعده عن روح العلم ومسؤولية البحث الجاد أكثر من المناهج الاستشراقية كراهية للإسلام وحقداً على تأريخه المشرق، وإلى غير ذلك من المناهج المتهافنة الذي يكذبه واقع التأريخ الصحيح وتأيابه عقيدتنا الإسلامية عن أهل البيت (ع).

لقد اصبح اعداء الإسلام هم الذين يكتبون تأريخنا، وهم يقرأونه لنا أيضاً ا حتى طبعوا عقول ناشئتنا باعتقاد سائد بأن التمسك بتأريخ ائمتنا (ع) يعني التخلف والرجعية والجمود وان الايمان به يعني التواكل والعقلة والانعزال.

هذا الوعي القذ هو الذي قاد السيد الشهيد الصدر (قده) إلى دراسة تأريخية جادة وإلى وضع مشروع قراءة ومنهج واعى في كتابه القيم (المدرسة القرآنية) ومن محاضراته عن سيرة الائمة الاثنا عشر (ع) وإعادة كتابة تأريخهم وتقديم هذه القراءة البكر أو التفسير الإسلامي الواعي إلى امتنا الإسلامية الناهضة.

وما أحوجنا نحن الآن إلى أمثال هذه الدراسات الواعية وذلك باغناء تصورنا بقراءة تأريخهم كجزء من العقيدة الإسلامية حتى تتمكن من امتلاك الرؤية الصحيحة، والحكم على واقعنا التاريخي من خلال منظور اسلامي صرف، وذلك ان الحكم على الشيء فرع عن تصوره، ولا يتحصل هذا التصور الا بقراءة متأنية وواعية للتأريخ الاسلامي، فعقيدتنا بأهل البيت (ع) وتأريخهم المشرق هو جزء من الاعتقاد الاسلامي بشكله العام.

ولكن رسوخ النظرة «التجزئية» والنظر إلى تاريخ ائمتنا (ع) حيث التأكيد

(١) راجع كتاب اليمين واليسار في الإسلام / أحمد عباس صالح، ص: ١٤٢.

على الجوانب الفردية والمناقية لهم ، وبإهمال الدراسة الترابطية - التوحيدية - لتأريخ حياتهم أصيب القارئ المسلم بخيبة أمل وهزيمة نفسية ، حطمت معنوياته ، وألغت شخصيته وأخذ يحس بتفاهة تأريخ عظمائه ويتفوق تأريخ اعدائه من الغربيين صليبين ويهود .

إن الدروس المستفادة من تأريخ أهل البيت ( ع ) والعبر التي نتعلمها من ممارستهم فيها عظيم الفائدة لحاضرنا ومستقبلنا ، وهذه هي فائدة دراسة التأريخ لكل أمة من الأمم لأن تأريخنا الماضي هو دعامة الحاضر وأمل المستقبل ، فلا ينبغي إهماله أو الغاؤه ، كما لا ينبغي استنساخه بدون إبراز دروسه وعبره النافعة ، فالأمة التي لا تملك أو تفهم تأريخها ، فهي كالشجرة التي لا جذور لها ، تموت غداً ، أن لم تكن قد ماتت اليوم .

- ٣ -

## المنهج والأسلوب

لقد درج المؤرخون لسيرة أمة أهل البيت ( ع ) على أن يستعرضوا حياتهم من خلال منهجين :

الأول : المنهج التحريفي : -

وقد تأثر هذا المنهج في تناول تأريخ أهل البيت ( ع ) بصيغة الانحراف والتشويه المتعمد وهذا ما درج عليه أغلب مؤلفي كتب التأريخ العام ، كأبن العربي ، وابن حزم الاندلسي ، وابن تيمية ، وغيرهم ، وهؤلاء كانوا غالباً على اتصال وثيق بالسلطان ، أو أنهم من المؤيدين لوضع سياسي يتعارض مع مضمون اطروحة أهل البيت ( ع ) لذا نرى ان ابن حزم يعتبر وقاتل الإمام علي مجتهداً متأولاً وقد ضربه بالسيف في الصلاة وبمحراب مسجد الكوفة<sup>(١)</sup> وأما وقتله عثمان (رض) فإنه لا مجال للاجتهاد في قتله ، بل هم فساق محاربون ساقكون دماً حراماً عمداً بلا تأويل على

(١) ابن حزم / المحلى ج ١٠ / ٤٨٤ .

سبيل الظلم والعدوان فهم فساق ملعونون»<sup>(١)</sup>.

وفي صواعق ابن حجر الهيثمي يقول وأن من اعتقاد أهل السنة والجماعة أن معاوية (رض) لم يكن في أيام علي خليفة ، وإنما كان من الملوك وغاية اجتهاده أنه كان له اجر واحد على اجتهاده»<sup>(٢)</sup>.

وفي نموذج آخر للمنهج الانحرافي نستمع لتصيحة ابن العربي للحسين (ع) إذ يقول «بأنه كان الأولي به ان يتبع حديث جده الذي قال (ص) ستكون هناك هنات، فمن أراد ان يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان، فكان أولي به ان يسعه بيته وبيابع، ولم يكن يزيد هو الذي قتله ولا واليه عبيد الله بن زياد، بل قتله من استدعاه ثم اسلمه من أوياش أهل الكوفة»<sup>(٣)</sup>.

لذا نرى ان هؤلاء اتبعوا منهجاً تحريفياً، في دراسة حياتهم (ع) فعدوا الائمة من أهل البيت (ع) في قائمة القادة السياسيين التقليديين الذين يحترفون العمل السياسي لتحقيق مطالب شخصية أو عائلية أو حزبية وأبعدوا عنهم الصفة الرسالية التي تطبع حياتهم ولذا فقد اعتاد هؤلاء المؤرخون ان يصنفوا العمليات الاجتماعية والسياسية والفكرية التي اضطلع الائمة (ع) بأعبائها حسب حالات الضعف أو القوة والصلابة أو المرونة، وعلو الهمة وضعفها في شخص أي إمام دون سواه ومن هنا فقد صار الإمام علي (ع) يفتقد إلى مزايا الزعامة السياسية من بعد نظر ويقظة وحنكة وحزم»<sup>(٤)</sup>، وجعلوا موقف الحسن (ع) من معاوية وأبرام الصلح بينهما من علامات الوهن والضعف وكانت تنقصه القوة المعنوية والقابلية القيادية»<sup>(٥)</sup>، وفي حين يعدّ الحسين (ع) في عرف هؤلاء ذا شخصية تتسم بالصلابة وعلو الهمة وقريباً من ذلك تفسر كافة المواقف الرسالية التي وقفها أئمة أهل البيت (ع)، فلا تعدوا أن تكون

(١) الفضل لابن حزم / ج ٤ / ١٦١.

(٢) الصواعق لابن حجر الهيثمي ص: ٢١٦.

(٣) العواصم من القواصم / لابي بكر بن العربي.

(٤) صانعوا التاريخ العربي / د. فلييب حتى / ص: ٦٣.

(٥) عقيدة الشيعة الإمامية / رونلدسن.

أساليهم عبر حياتهم العملية سلسلة من الانتصارات أو الاخفاقات السياسية التي تكتنف حياة أي سياسي آخر سواهم تبعاً لعوامل ذاتية وموضوعية .

الثاني : المنهج التجزيئي : -

لقد تناول المؤرخون والكتاب الشيعة تأريخ أهل البيت ( ع ) ، وعرضوا لحياتهم ونشاطهم ولكنهم سجلوها كما وردت في المرويات التاريخية ، في حالة تناثر مجزأ وتراكم عددي ، والنظر إليها نظرة تجزئية دون ان تكون عند أكثرهم القدرة والرؤية على النظر الشامل لتأريخهم العظيم ، والخلوص إلى العبر أو إعادة ترتيب النصوص التاريخية وفق منهج محدد ، بشكل يحقق العبرة والمثال للقارىء المسلم .

ونود ان نشير في معرض هذه الحقيقة أن المؤرخ ضمن إطار هذا المنهج التجزيئي ويقطع نظره عن سائر الاحداث التاريخية الأخرى ولا يستعين بها في فهم الحادثة أو القصة التاريخية المطروحة للبحث ، بل قد يستعين ببعض الحوادث والمرويات التاريخية ولكن الاستعانة في الاعم الاغلب تتم بقصد الكشف عن مدلول الحدث التاريخي الخاص الذي تحمله الرواية التاريخية المطروحة للبحث<sup>(١)</sup> ، فالهدف في كل خطوة من النظرة التجزئية للتأريخ ، التي يواجهها المؤرخ بكل الوسائل الممكنة هو هدف تجزيئي «استاتيكي» يفصل الحادثة المفردة عن الترابطية الشمولية للتأريخ ، وبذلك تضيق الكثير من الحقائق الموضوعية على القارىء عندما يطالع حياة ائمة أهل البيت ( ع ) بهذا الهدف المجزأ الناقص .

ولكن التفسير الشيعي - التجزيئي - حسب انه قدم المعلومات بدقة وأمانة علمية ، ليأتي الدارسون والمتخصصون بتأريخ أهل البيت (ع) للاستفادة منها وتخليط الأضواء عليها لتحصيل الفائدة لحاضر المسلمين ومستقبلهم .

والمنهج التجزيئي في دراسة حياة الائمة ( ع ) وإن كان ضرورياً لدراسة كل إمام بصورة مستقلة وكان يمتاز بسلامة القصد غالباً ، إلا انه يعرض حياة الائمة ( ع ) كما لو كانت متباينة ومتناقضة ، فالحسن يهادن ، والحسين يثور ، والسجاد يمارس

(١) راجع للاستفادة المدرسة القرآنية ، للسيد الشهيد محمد باقر الصدر .

الدعاء، بينما الإمام الباقر تتسم حياته بالحديث والفقه . . الخ .

ولئن كانت خطورة المنهج التحريفي السابق تنجلي في فصل الاثمة عن خطهم الرسالي الملتزم، فإن خطورة المنهج التجزيئي تتسم في عدم التصدي لاكتشاف العامل المشترك الذي يوحد بين اساليب الاثمة (ع) منبأ ومصبأ، ودراستهم كوحدة مترابطة الاجزاء يواصل كل جزء في تلك الوحدة دور الجزء الآخر ويكمله .

وقد يؤدي المنهج التجزيئي في بعض الحالات إلى ظهور تناقضات شكلية في حياتهم (ع) يكتنفه الكثير من الغموض الذي يصعب فهمه على كثير من القراء والدارسين، فيما كان بالامكان تفادي هذه التناقضات الشكلية بين الادوار التي مارسها الاثمة (ع) لو إننا خطونا خطوة ثانية باتجاه المنهج الترابطي التوحيدي، حيث يبدو الاختلاف والتناقض على مستوى المنهج الترابطي مجرد تعابير مختلفة عن حقيقة واحدة، وإنما اختلف التعبير عنها وفقاً لاختلاف الظروف والملابسات التي مر بها كل إمام وعاشتها القضية الإسلامية في عصره عن الظروف والملابسات التي مرت بها الرسالة في عهد إمام آخر<sup>(1)</sup> .

أما المنهج التجزيئي في البحث، فهو يعتمد على السرد التاريخي للوقائع دون أن يدرس ويحلل الظروف الموضوعية، فاستجابة المؤرخ فيها استجابة سلبية، مهملاً توظيف الوقائع التاريخية المتنوعة لسيرتهم (ع) والتصدي لاكتشاف الخصائص العامة والدور المشترك للاثمة، لأننا نعتقد بأن وجود دور مشترك مارسه الاثمة ليس مجرد افتراض نبحث عن مبرراته التاريخية، وإنما هو ما تفرضه العقيدة نفسها وفكرة الإمامة بالذات، لأن الإمامة واحدة في الجميع بمسؤولياتها وشروطها، إذ ليس هناك فارق بينهم في حساب الله عز وجل فإن كل واحد منهم إمام معصوم، فيجب أن تنعكس انعكاساً واحداً في سلوك الاثمة وأدوارهم مهما اختلفت ألوانها الظاهرية بسبب الظروف والملابسات .

(1) دور ائمة أهل البيت في الحياة الإسلامية، الشهيد السيد الصدر.

وقد اعتمد المنهج التجزيئي لدى مؤرخي حياتهم بالأساليب التالية : -

الأول : أسلوب السرد الروائي التاريخي :

وهو أسلوب تناول فيه المؤرخون الاحداث التاريخية وفقاً لتسلسل وقوعها زمنياً مع التركيز على إبراز جانب الاثارة العاطفية من تاريخهم، وإظهار الأئمة من أهل البيت (ع) وخصوصاً بعد مذبحة كربلاء، بأنهم اعتزلوا السياسة وانصرفوا إلى الإرشاد والعبادة والانقطاع عن الدنيا، وحاولوا معالجة المواقف السياسية التي اتخذها الأئمة (ع) باعتبارها مواقف استثنائية اقتضتها الظروف، وسرعان ما كان الأئمة (ع) يتراجعون إلى موقفهم الطبيعي وهو موقف من يهتم بإبراز الاحكام الشرعية والتوعية العلمية، وغاب عن اذهانهم بأن أئمة أهل البيت (ع) - كما هو في تاريخهم الصريح- يمثلون الامتداد الطبيعي لمسيرة الانبياء ومسيرة الرسول (ص) بالذات، وان التاريخ الثابت لأئمة أهل البيت (ع) ينفي عنهم هذه التهم ويثبت ان حياتهم كانت سلسلة من التضحيات في سبيل الصالح العام «ويكفي هنا ان نذكر إضافة إلى التاريخ الثابت أن الإمام زين العابدين علي بن الحسين (ع) الذي شهد بنفسه فاجعة كربلاء، وعاشها ساعة بعد ساعة بكل آلامها واحزانها، كان يدعو لأهل الثغور جنود النظام الأموي الذي ارتكب جريمة كربلاء والذي أسره مع عماته وأخواته وما ذلك الدعاء من الإمام زين العابدين إلا وعياً فذاً منه لدور جيوش الثغور في حفظ المجتمع الاسلامي من أعدائه، وان كان هذا الجيش يحمي أيضاً نظام الامويين»<sup>(١)</sup>.

الثاني : الأسلوب المناقبي التاريخي :

وهو أسلوب اعتنى بإبراز مناقبية أهل البيت (ع) وذلك من خلال صراعاتهم وجهادهم مع الأعداء، بذكر فضائل أهل البيت (ع) وما يتمتعون به من رفعة في ميزان الاخلاق ومظاهر البطولة النادرة والسمو الانساني، وذكر ردائل أعدائهم وما يتصفون به من انحطاط في سلم القيم ولا بأس أن يتحول التاريخ عندهم إلى زهو تاريخي مجرد، محولاً تاريخهم العظيم إلى مجرد طبل أجوف لا تسمع منه إلا رنين

(١) راجع كتاب ثورة الحسين في الوجدان الشيعي / محمد مهدي شمس الدين، ص: ٣٩.



المديح والاعجاب والتقديس دون التآسي بسلوكهم وإساليب عملهم، ويظل الإنسان في ظل هذا الأسلوب من البحث يعيش في غيبوبة تاريخية صوفية حالمة بعيدة عن الواقع، مما يؤدي إلى الضعف الساحق الذي يفقد الإنسان فيه الثقة بنفسه وبقدرته على الإبداع والتركيز، عندما يتحول إلى عيون مفتوحة ومبهورة بالماضي، مغلفة عن الحاضر<sup>(١)</sup>.

وقد حاول بعض المؤرخين من خلال هذا الأسلوب المناقبي إلى تصوير حياتهم (ع) بطريقة تضعهم في أعلى مستوى من القمة المثالية، بطريقة توحى لقارئ التاريخ باستحالة مجاراتهم أو محاكات تجاربهم القيمة، مستهدفين بأسلوبهم المنفوخ هذا تحويل الأمة إلى ذيل للتاريخ، «وتتنوع على ضوء هذا الأسلوب الذي يضحخ أحداث هذا التاريخ وشخصياته إلى ما يشبه «التدرن العضوي» وإلى اعتبار أن تاريخهم فوق مستوى الأمة»<sup>(٢)</sup>.

### الثالث: الأسلوب المعجزي أو التفسير الأسطوري :-

وهو أسلوب اعتنى بالتركيز وإبراز الكثير من ممارساتهم وصراعاتهم (ع) مع أعدائهم على شكل معاجز (أسطورية) كانوا يحققون فتح مغاليق صراعاتهم وأزماتهم السياسية من خلالها مع أعدائهم، ونحن بهذا الصدد لا نريد أن ننكر على أئمة أهل البيت (ع) كراماتهم، ولكن الذي نريد أن نؤكد القول عليه بأن المعجزات الكونية وما أجراه الله تعالى على أيدي أنبيائه<sup>(٣)</sup> كانت الوسيلة المثلى إلى اقناع الأقسام آنذاك، والأسلوب الذي أخذ الله به الكافرين من خسف، وإغراق وصواعق، والله يقول ﴿وما منعا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾ الإسراء / ٦٩ .

وعندما تحدى مشركو قريش النبي (ص) أن يأتي بالمعجزات الكونية كالأنبياء السابقين، أجابهم الله تعالى في كتابه بالحوار التالي :

(١) راجع الإسلام ومنطق القوة / محمد حسين فضل الله، ص: ٦٩ .

(٢) كما موسى، واستغلال ناقة صالح، حمار العزير، والبحر الذي انشق لموسى وطوفان نوح... الخ .



﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً، أو تسقط السماء كما زعمت علينا خسفاً، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾  
الاسراء / ٩٠-٩٢.

وإذا كان العهد النبوي قد جمع بين المعجزة الأساسية القرآن وبعض المعجزات الهامشية الكونية<sup>(١)</sup> فقد ذهبت هذه المعجزات مع التأريخ كما ذهبت معجزات الأنبياء السابقين، وبقي القرآن وحده معجزة غير مسبقة ولا ملحقوة، معجزة لها صفة الاستمرار ما بقيت الحياة، وبقاء القرآن معجزة تنهي مراحل المعجزات الكونية، ولا يبقى أمام المسلم إلا أن يعتمد - مع إيمانه الراسخ والتسديد الإلهي والمدد الغيبي - على جهده العلمي وتخطيطه لحاضره ومستقبله، فمع انتهاء عهد النبوات والمعجزات بقي أن يحسن الناس عملية التخطيط والاستفادة من الخطوط الرئيسية، مستفيدين من سنن التأريخ ومعجزات القانون الكوني التي ذكرها القرآن الكريم ليصوغوا بها حياتهم ويصنعوا بها تأريخهم.

فالمسلمون انتصروا في بدر حينما كانت الشروط الموضوعية للنصر بحسب منطلق سنن التأريخ تفرض أن يتصروا، وخسروا المعركة في أحد حينما كانت الشروط الموضوعية في معركة أحد تفرض عليهم أن يخسروا المعركة: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ آل عمران / ١٤٠.

﴿فالنصر ليس حقاً إليها، وإنما حق طبيعي، وذلك بقدر ما يمكن توفير الشروط الموضوعية لهذا النص بحسب منطلق سنن التأريخ التي وضعها الله سبحانه وتعالى كونياً لا تشريعياً﴾<sup>(٢)</sup>.

ولذلك نحن نشعر إن علينا أن نخطط لعمل الدعوة، وأن نطلق الفكرة، وبعد

(١) تكثير الطعام بين يدي رسول الله (ص) وشق القمر، واستدعاء الشجرة... الخ.

(٢) المدرسة القرآنية / السيد الشهيد الصدر.

ذلك هناك سنن الله في الأرض، التي تعطي الفكرة قوة تجعلها تتحول إلى الواقع، وقد لا تعطى هذه القوة لأن طبيعة سنن الله التي أرادت للحياة ان تنطلق من خلال قانون السببية في الكون قد لا تمنح تلك الفكرة القوة، ونحن نلاحظ ان الانبياء كانوا يقتلون والمجاهدون والأئمة (ع)، كانوا يقتلون، ولم يتغير الكون في هذا المجال لأن الله لم يوجد الحياة على أساس المعجزة، ولهذا فأتنا حين ندعو للإسلام لا ندعو له من خلال المعجزة، وإنما ندعو للإسلام كما يدعو الآخرون إلى غير الإسلام من خلال الوسائل التي نمتلكها الآن، ومن خلال الوسائل التي يمكن ان نحصل عليها الآن،<sup>(١)</sup>

وعلى ضوء هذه الحقيقة القرآنية، جاءت حياة أهل البيت (ع) تعبيراً حياً لانتقال التاريخ الانساني والإسلامي من عصور معجزات الانبياء إلى عصور جديدة، يحمل فيها الانسان مسؤولية عمله، ويخطط على هدى وبصيرة دون ان ينتظر مائدة من السماء، وانغلاق البحر أو تفجر الماء من الصخر، أو تحول العصا إلى ثعبان . . . الخ .

وقد اعطانا تاريخ أئمة أهل البيت (ع) النموذج التطبيقي الرائع للارتباط العضوي الحميم بين الاسباب والنتائج الملموسة لواقع عملهم العظيم .

فالنصر صناعة والهزيمة صناعة أيضاً، يقول الله في كتابه الكريم:

﴿وَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا بَلْ لَمْ نَكُنْ بِمُحَارَبَتِكُمْ أَهْلًا لِّمَنْعِكُمْ مِنْهَا أَفَكُنْتُمْ أَكْثَرًا نِفْسًا﴾  
قل هو من عند انفسكم أن الله على كل شيء قدير ﴿ آل عمران ١٦٥ .

فالمنهج التجريبي، مع الاعتراف بضرورته كخطوة أولى في اعتماده كمدخل لدراسة حياتهم (ع) لكنه يبقى ومنهجاً عاجزاً عن تحقيق هدف معاصر له أهمية بالغة في تحقيق التكامل والوعي السياسي لدى الانسان المسلم، حيث ان الباحث لا يستطيع وفقاً لهذا المنهج أن يفهم ويقدم تاريخ أهل البيت (ع) إلى الانسان الحداثي .

(١) مجلة الشراع / العلامة السيد محمد حسين فضل الله .

على ضوء المعطيات المعاصرة في المسألة الاجتماعية، لا يستطيع ان يكتشف عناصر الديمومة والاستمرار لتأريخ أهل البيت (ع) هذه العناصر التي تجعل من تأريخهم شيئاً ذا صلة بالحاضر الحي قادراً على اغناء الحاضر وتزويده بعناصر من الفكر والرؤية تجعل النضال في حقل المسألة الاجتماعية، يجمع إلى جانب الحدائق، الاصاله الضرورية للحفاظ على سلامة الشخصية الانسانية من التشويه والنوبان في غمرة المتغيرات المتسارعة لحضارة مادية غير انسانية، هي الحضارة المادية الحديثة<sup>(١)</sup>.

أن النقص الذي يعاني منه المنهج التجزيئي، يعالجه ويتلافاه، المنهج الترابطي (التوحيدي)، والذي نحاول ان نترسم خطاه في هذه الدراسة المتواضعة ولو على صعيد التقسيم المرحلي، واكتشاف العامل المشترك الذي يوحد بين اساليب عمل أئمة أهل البيت (ع) ودراساتهم كوحدة مترابطة الاجزاء يواصل كل جزء دور الجزء الآخر ويكمله.

والمنهج الترابطي هو المنهج المفضل والضروري لفهم الكثير والغامض من سيرة أهل البيت (ع) وابرار أهمية دورهم (ع) في الحياة الاسلامية، والتي من شأنها ان نلقي لنا الاضواء على دورهم العظيم في حياتنا الاسلامية المعاصرة.

الثالث: المنهج الترابطي (التوحيدي):

نمة بعد مهم من أبعاد تأريخ أهل البيت (ع) لم يتناوله المؤرخون في دراساتهم للأئمة (ع) واعني به البعد الترابطي الشمولي والفهم المرحلي لتأريخهم، وأن دراسة هذا البعد من أبعاد تأريخهم ضروري لتحقيق الأهداف التالية :-

أولاً: معرفة العامل المشترك الذي يوحد بين اساليب عمل الأئمة (ع)، ودراساتهم كوحدة مترابطة الاجزاء، يواصل كل جزء في تلك الوحدة دور الجزء الآخر ويكمله ومدى انسجام وتفاعل اسلوب كل إمام مع الآخر، تلك الاساليب التي تتواجد

(١) راجع ثورة الحسين ظروفها الاجتماعية/ محمد مهدي شمس الدين ص: ٥، ٩.

من خلال ظروف موضوعية يحتاجها العمل التنفيذي الاتي مشروطاً ببيئته  
والزمكانية» .

ثانياً: الاحاطة التامة بطبيعة الحادثة التاريخية، ودراستها بشمولية مترابطة مع  
بقية الأحداث الأخرى في حياة الأئمة الآخرين بوجود الهدف الواحد الذي سعى  
الجميع إلى تنجيزه ، من خلال أدوار عمل بالغة الدقة في التخطيط ، مستفيداً من  
الظروف التي سبقتها والتي واكبتها، والتي تلاحقت بعدها إضافة إلى ربط الماضي  
بالحاضر.

ثالثاً: دراسة الواقع الخارجي المعاصر، بحصيلة التجربة البشرية حيث يتزود  
بكل ما وصلت إلى يده من حصيلة هذه التجربة التاريخية الثرة ومن افكارها  
ومضامينها، ثم يعود لممارسات وتاريخ أهل البيت (ع) ليستفيد ويستلهم من  
تاريخهم (ع) فيقف منه موقف المحاور، موقف من يطرح الاسئلة التاريخية التي  
ظهرت على ضوء تلك الحصيلة البشرية، وعلى ضوء التجربة التاريخية التي استطاع  
قراءتها في المنهج التجزيئي ليتم تلقي الاجوبة من خلال عملية الحوار من ثابا  
مواقفهم وممارساتهم التاريخية التي تتواجد من خلال ظروف موضوعية يحتاجها  
العمل التغييرى .

رابعاً: إعتقاد النصوص التاريخية الصحيحة الواردة في المنهج التجزيئي  
للتعرف على خصائص عملهم والمراحل التاريخية التي مروا بها، سعياً إلى تحطيم  
فكرة التقديس المفرط الذي اتبعته النظرة الساذجة للتاريخ ، والتي تعتبر نقد الماضي  
تحطيماً لقدسية التاريخ .

إن تأريخ أهل البيت في الواقع هو ضرورة متحركة متفاعلة مع عقل الأمة  
وعاطفتها وليس تراثاً محتطاً تربطنا به علاقة نظرية، بل هي علاقة متبادلة «ديناميكية»  
تعكس تفاعل الأمة بتأريخ أهل البيت (ع) في حركة أخذ وعطاء مستمرة .

خامساً: عدم الانجرار وراء النظرة التجزيئية في دراسة التأريخ ودون ان تدفعه  
الدراسة المتناثرة للنصوص والآثار التاريخية ونزعة الاتجاه «التبعيضي» إلى الانجرار  
وراء الفكر المذهبي المسبق ومحاولة فرضه على تأريخهم، كطريقة لبقة لاعطاء

تأريخهم الصفة المعجزية والمقدسة أو منح اساليبهم الدعوتية التي مارسوها صفة الاستيعاب والشمول لكل ما كان ويكون من اساليب العمل والتخطيط الدعوتي وتلك طريقة منحرفة تسيء إلى تأريخ أهل البيت (ع) أكثر مما تحسن إليه .

سادساً: التخلص من التناقض الظاهري والشكلي الذي تعكسه الدراسة التجزيئية لتأريخهم (ع) باعتبارها تعابير مختلفة عن حقيقة واحدة ، فتباين اساليب العمل عند الأئمة (ع) لا تعني اموراً مزاجية أو مصلحية، تخضع لأهوائهم ومشتياتهم أو ميولهم العاطفية بل هي تعبير، عن الأخذ بشروط الحكمة فيما تمنحه لهم الفرص الموضوعية والاستعداد للقيام بهذا العمل أو ذاك ولهذا نرى ان الاسلوب المفضل لدعوة الأئمة (ع) في ابعادها «الزمكانية» والموضوعية، تكون معقولة ومجدية في وقت معين، ومفروغة من جدواها ومعناها في ظرف آخر، لأن هناك ظروفًا وملابسات تفرض اشكالاً مغايرة ومتنوعة في التنسيق والوعي العملي للتغيير .

ومن هنا تبرز أهمية الدراسة الترابطية التوحيدية لدور الأئمة في الحياة الإسلامية والتي من شأنها إبراز المكانة الحقيقية لدورهم العظيم، وهي دراسة اتبعت التقسيم المرحلي في اكتشاف أبعاد جديدة وأعمق بكر، ذات مضمون جديد، تنسجم مع التطلعات التي يحملها الانسان المسلم المعاصر إلى مجتمع تسوده دولة إسلامية كريمة .

وهذا كانت نتائج المنهج الترابطي نتائج مرتبطة دائماً بالصيرورة التاريخية وحركة التاريخ، لأنها تمثل المعالم والاتجاهات المعاصرة لحركة الانسان الداعية .

فوظيفة المنهج الترابطي دائماً وفي كل مرحلة ، وفي كل عصر، تحمّل بالضرورة تراث البشرية التاريخي الذي عاشته ويحمل أفكار عصره ويحمل المقولات التي تعلمها في تجربته العملية، ثم يضعها بين يدي تأريخ وممارسات الأئمة المعصومين (ع) ليحكم ويستتج من خلال هذه الحصيلة على اختيار أقرب الاساليب العملية إلى نفوس الناس واذهانهم فقد يصلح الوعظ والإرشاد في بيئة اجتماعية، بينما يثمر العمل السياسي على ضوء الإسلام في بيئة أخرى، وقد يؤدي العمل المسلح ثماره البانعة في مجتمع ووقت معين في حين لا يغني مثل هذا الاسلوب في مجتمع آخر .

وبهذه المنهجية الترابطية، نتعلم كيف يلتحم تاريخ أهل البيت (ع) بالواقع المعاش، يلتحم بالحياة، لأن صناعة التاريخ المعاصر تبدأ معاشته من خلال ممارسة الواقع المعاش، وتنتهي إلى تأريخهم المشرق (ع). وتاريخ الامتنا (ع) بالنظرة التوحيدية ليس تأريخاً منعزلاً عن الواقع المعاصر وغير منفصل عن تراث البشرية، بل هو تأريخ يبدأ بالبحث في الواقع ليتهي مستتراً بخطوات الحركة التغييرية التي مارسها خط الامامة، بالحدود التي تسمح بها ظروف الانسان في المرحلة الراهنة مستفيدين من تجارب الآخرين في العمل الاجتماعي، إسلاميين كانوا أم غير إسلاميين «ضمن اطر المبادئ الإسلامية طبعاً» لاغناء تجربتنا في العمل التغييرية بذلك.

وبهذا الفهم والقراءة يبقى لتأريخهم (ع) حيثذ قدرته على القيمة دائماً على حركتنا التاريخية، وقدرته على العطاء المستجد دائماً وقدرته على الابداع، فمن هنا كان المنهج الترابطي قادراً على إثراء وتطوير تجربتنا التاريخية المعاصرة، بعد المعاناة والتأمل الجيد على ضوء التجربة العملية المعاصرة، ويجعل هذا الثراء محمولاً إلى فهم دقيق لتاريخ الأئمة المعصومين من أهل البيت (ع)

### هل المنهج الترابطي يلغي المنهج التجزيئي؟

المنهج الترابطي لم يكن بديلاً يستغنى به عن المنهج التجزيئي، بل ان المنهج التجزيئي هو خطوة اولى ضرورية للانتقال بها إلى النظرة الترابطية (التوحيدية).

فالنظرة التجزيئية تمثل (الثابت) في فهم العرض التاريخي ونصوصه، في حين يمثل المنهج الترابطي الخطوة (المتغيرة) والشمولية كخطوة تالية لها، وتتفاعل المنهجين «الثابت والمتغير» والجدل بينهما، يكون قد ارسينا العلاقة الصحيحة والرؤية المثلى لعلاقة المؤرخ بالماضي للوصول إلى الحاضر، وجعل التاريخ ودراسته أداة فعالة «تغييرية» في يد الانسان الثوري.

فالمنهج الترابطي خطوة متقدمة، في سياق التحليل التاريخي - تلي المنهج التجزيئي الذي يكفي - عادة بإبراز الاحداث التاريخية التفصيلية، ليحاول بعدها المنهج الترابطي ان يستحصل أوجه الارتباط بين مدلولات الاحداث التاريخية



وتطورها عبر مراحل عمل تتميز باهداف موحدة تعززها ضرورات تطور حركة التاريخ ، بفعل عملهم وتخطيطهم ( ع ) واكتشاف دور مشترك مارسه الائمة ( ع ) جميعاً ضمن ابعاد البيئة (الزمكانية) باعتبارهم سلسلة متصلة الحلقات «كتاب الله الناطق» ولأنهم يحملون همّ رسالتهم الأمر الذي جعل من ممارساتهم وحدة متكاملة تهدف إلى بناء العقيدة وتكريس دورها في الحياة، وهذه المنهجية هي التي تجعل كل إمام يحتل موقعه المناسب من تلك الحلقات المتسلسلة .

فالمنهج التوحيدي يتقدم خطوة على المنهج التجزيئي بقصد الحصول على الدور الواحد والهدف المشترك، وهناك الكثير من الجوانب والدراسات التي يمكن ان يتناولها أو أن يكشف عنها المنهج الترابطي كدراسة محاولة الائمة ( ع ) في شد الأمة إلى الإسلام وممارستهم لتحقيق ظاهرة التفاعل بين الأمة والإسلام والتركيز على ظاهرة الاسلوب لتحقيق هذه الدراسة وبشكل متكامل لدى كل إمام من الائمة ( ع ) ، فعلى سبيل المثال موقف الإمام علي ( ع ) إزاء الحكم، الذي تمثل بموقف الصبر والمداراة ودعم التيار السياسي حتى اصبح بمثابة السلطة التشريعية للخلفاء طيلة خمس وعشرين سنة، وليس هذا من باب إقرار سياسة الأمر الواقع أو الميكافيلية السياسية، وإنما هو الاسلوب الأمثل الذي حقق به المصلحة الاسلامية العليا، والموقف الأفضل من طبيعة الواقع الفكري والنفسي الذي عاشته الأمة الإسلامية آنذاك طيلة هذه الحقبة من حياتها .

وكان هناك اسلوب آخر في موقف الإمام علي ( ع ) بعد مصرع الخليفة عثمان ابن عفان، لأن الواقع الفكري والنفسي للأمة ، قد استجذت فيه متغيرات بحيث اصبحت هذه الأمة قادرة على تشخيص الخطأ ومواجهة انحراف الحكام ؛ وقد أدركت وظيفتها الحقيقية ؛ ودورها الفاعل الذي أراد لها الإسلام أن تلعبه ، فتغيير الممارسات والاساليب العملية لدى الإمام ( ع ) إنما جاء تبعاً لطبيعة الظروف الجديد والتي آلت إليه حالة الأمة .

أما عندما وصلت الخلافة إلى الإمام الحسن ( ع ) وتصديه لمسؤولية الحكم، كانت الأمة آنذاك بفعل ظروف موضوعية سابقة لحكمه، وقد انهكتها الحروب الداخلية، حيث اصبحت الحرب لأول مرة في تاريخ المسلمين حرباً إسلامية -



اسلامية بين وجوه المسلمين انفسهم «طبعاً اليغاة منهم» فأصبحت الأمة بحالة من الشك العاصف مغتسباً الرؤية على المسلمين «غير الواعين» حيث اصبحوا لا يميزون الحق من الباطل فجاء الإمام الحسن (ع) بصلحه وقراره الصائب بأن يهادن مؤقتاً ، ويفسح المجال لمعاوية يستولي على العالم الإسلامي لكي يكشفه، ويكشف واقعه الجاهلي للجماهير المسلمة، ويمارس بعد ذلك اسلوباً لشد الأمة بالإسلام الحقيقي البعيد عن الغيب معرفاً بذلك اولئك المسلمين البسطاء والذين لم يكونوا يعرفون إلا ما يرون بأعينهم وحواسهم من هو معاوية؟ وما هو واقعه وواقع حكمه، ومن كان علي ابن أبي طالب؟ وماذا كانت اطروحاته؟ هذا الاسلوب الذي مارسه الإمام الحسن (ع) مع معاوية كان بمثابة خيبة أمل معاوية في تحقيق سياسته الماكرة، في دعوته الخادعة للمصالحة مع الحسن (ع) الذي أراد ان يتلبس وجسه من يريد حقن دماء المسلمين، بعد ان أدرك أن نتائج الحرب ستكون لصالحه، وهو يرى تصلب الحسن (ع) وإصراره على خوض المعركة، بهذا الاسلوب تمكن الحسن (ع) ان يخلص الأمة من حالة الشك، ولكنها لم تقو بعد على مجابهة الظالم، لأنها لم تمتلك قوة الإرادة الحقيقية التي امتلكها المسلمون من جيل الخليفة عثمان ، عندما واجهوا الانحراف بقوة السيف وبعدها يأتي دور الإمام الحسين (ع) الذي يشترك مع سابقه من أئمة أهل البيت (ع) في شد الأمة إلى الإسلام فأقدم على تحريك الضمير الثوري وممارسة تأنيب الضمير باستشهاده الفاجع ، من خلال احداث هزة عنيفة في الأمة، لحياء واقعها على مواجهة واقع الانحراف ، فما كان من امامنا الحسين (ع) إلا أن يمارس اسلوب العطاء الدموي في هذه المرحلة .

وعندما تصدى الإمام السجاد (ع) إلى تربية الأمة وشدّها بالإسلام فإنه استثمر شفاء الأمة من مرحلة الشك وإيقاظ ضميرها مرفداً الأمة بالمفاهيم الفكرية والعاطفية عن طريق الدعاء والتضرع إلى الله ، لترسيخ المفهوم الإسلامي في وجدان الأمة، أي أنه استثمر الحالة النفسية والفكرية لما كانت عليه الأمة بعد ثورة الحسين (ع) فاختار الاسلوب الأمثل لمواجهة مثل هذه الحالة .

وفي زمن الإمامين الباقر والصادق (ع) تحول الاسلوب إلى ثورة تنظيمية في رص صفوف الشيعة كطليعة للأمة الاسلامية وإلى مدرسة علمية متعددة الجوانب،

في ظرف حاولت فيه السياسة الغاشمة ابعاد الأمة عن اسلامها بالاساليب الفكرية السدخيلة واغراقها بمدارس فقهية منحرفة ومدسوسة، والمترجمة، والتصورات الخاطئة، حتى اصبحت في وضع تحتاج فيه إلى تيار علمي يعمل على شدها بعقيدتها ويضد كل المزاعم الفكرية والمقولات الوافدة، وبقي تيار الإمامة والقيادة الحقيقية الكفوءة يفود الأمة باتجاه تمسكها بالإسلام وفق الاساليب النافعة التي تحقق مثل هذا الهدف الكبير، وحتى عندما وصل الأمر إلى الإمام المهدي (عج) فإنه لم يترك الفرصة دون التأكيد على دور القيادة في حياة الأمة، فمهد لها بظاهرة السفراء الاربعة، ثم ربط الأمة بعد ذلك بتيار العلماء الواعين القادرين على تحقيق الأهداف الكبيرة والتي نذر الأئمة الأطهار (ع) حياتهم من أجلها.

وهنا لا بد من الإشارة إلى ان الفصل بين المنهجين المذكورين، ليس حدياً على مستوى الواقع العملي لعملية دراسة التاريخ، على ضوء حاجة المنهج الترابطي إلى نظرة تجزيئية للتاريخ لتحديد نظراته الشمولية في استيعاب المدلولات التجزيئية التي ينبغي التعامل معها ضمن إطار الموضوع الذي يريد درسه وبحثه.

### المنهج التجزيئي عامل إعاقة!

إن الاكتفاء بالطريقة التجزيئية في دراسة تاريخ أهل البيت (ع) تشكل عامل إعاقة باتجاه النمو، وتوسيع نطاق حركة الابداع والاجتهاد، لأن النظرة التجزيئية، تمثل موقفاً سلبياً، دون أي افتراض لدور مشترك، وعامل موحد لاساليب عملهم المترابطة الاجزاء، وباعتبارهم إمتداداً رسالياً لمواصلة القيادة الإسلامية في بناء الأمة، بل تقتصر النظرة التجزيئية بالوقوف في حدود دراسة كل إمام، باعتبارهم حلقات منفصلة وهذه قد تظهر للوهلة الاولى تبايناً في السلوك - من الناحية الشكلية - بين الأدوار التي مارسها الأئمة (ع) دون ان يدرك القارئ، لماذا هادن الحسن (ع) ولماذا ثار الحسين (ع) . . . الخ، وهنا تظهر خطورة الاكتفاء بالمنهج التجزيئي في دراسة تاريخ أئمتنا (ع) حيث انها ستقدمهم للقارئ كقيادة من السياسيين التقليديين الذين يحترفون العمل السياسي لتحقيق مطالب شخصية، أو عائلية، أو حزبية، إضافة إلى انه قد يوقعنا هذا الفهم في تبرير التعامل مع الواقع الفاسد.

## المنهج الترابطي الأسلوب الامثل

لقد تبين قصور الاكتفاء بالمنهج التجزيئي في دراسة تاريخ أهل البيت (ع)، ورأينا ضرورة ان نخطو الخطوة الثانية باتجاه المنهج الترابطي، الذي يكشف لنا العامل المشترك لاساليب عملهم ودراساتهم كوحدة مترابطة الاجزاء، باعتبار تاريخهم الإسلامي حركة مناسبة في سياق المرحلة التاريخية التي عاصروها، فيحيل المنهج الترابطي مجموعة الأخبار والاحداث التاريخية المتناثرة في كتب التاريخ إلى مركبات ومجاميع تاريخية هادفة ومتناغمة مع استراتيجية اهداف عملهم المرحلي لتغيير الواقع الفاسد الذي عاشوه.

وبهذا المنهج نزيل من ذهن القارئ أي تصور ضيق لتاريخ أئمة أهل البيت (ع) ونصحح كل الآثار السيئة وانعكاساتها على المسلمين الذين رأوا في صلح الإمام الحسن (ع) مهادنة وتنازلاً مذللاً، ورأوا في الإمام السجاد (ع) انعزالاً وابتعاداً عن الحياة السياسية.

وبهذا المنهج التوحيدي يظهر تاريخ الأئمة (ع) كوحدة واحدة على اعتبار انهم يمثلون كتاب الله الناطق، وفي عقيدتنا ان وجود دور مشترك مارسه الأئمة جميعاً ليس مجرد افتراض نبحت عن مبرراته التاريخية، وإنما هو ما تفرضه العقيدة نفسها وفكرة الإمامة كامتداد لمفهوم النبوة ومواصلة دورها القيادي في الأمة الإسلامية بعد الرسول (ص).

وهذا المنهج يزيل لنا كل التناقضات الشكلية والاختلافات الظاهرية، لأنها تبدو وعلى ضوء هذا المنهج مجرد تعابير مختلفة عن حقيقة واحدة، وإنما اختلف التعبير عنها وفقاً للظروف الموضوعية التي عاشتها القضية الإسلامية، والتي مرت بها الرسالة في عهد كل إمام من أئمة أهل البيت (ع).

وعلى ضوء هذا المنهج الترابطي نضع أيدينا على حقيقة تاريخية، بأن الاساليب العملية التي يجب تبنيها هي ذات طابع «متغيرة» تبعاً للظروف التي تمر بها الأمة وبناء على بعدها أو قربها من الرسالة الإسلامية.

وهذا التبدل والتنوع لاساليب عمل الأئمة (ع) يأتي بفعل الظروف الموضوعية الذي يعاصره كل إمام وتشمل هذه الظروف على ما يلي:

- (١) حالة الأمة الفكرية والعقلية والنفسية .
- (٢) حالة الأمة السياسية والاجتماعية .
- (٣) درجة وعي الأمة .
- (٤) علاقة الأمة برسالتها وقيادتها الشرعية .

وهناك قضية أخرى بالغة الأهمية يتناولها المنهج الترابطي ، بالالتفات والاهمية الا وهي إدراك المتغيرات المطردة والصيورة المتجددة في حياة الناس ووعي حاجاتهم والعمل على اجتياز اقرب الاساليب العملية إلى نفوسهم واذهانهم ، وقد تكون هناك ظروف أخرى قد تساهم في تحديد السلوك العملي التي تفرض نفسها على ممارسات أئمة أهل البيت ( ع ) .

وفي اعتقادي ان إهمال المنهج الترابطي في دراسة الائمة ( ع ) والاكتفاء بالمنهج التجزيئي ، يجعل الصورة التاريخية لعملهم وجهادهم مشوهة وقلقة وناقصة ، ومن هنا اضحي التاريخ عندنا - بالنسبة إلى الجماهير - مجرد انعكاس لحياة - سابقة لا يسهم في تكوين الشخصية الانسانية المتكاملة<sup>(١)</sup> ، ويبدولي ان اعتماد المنهج الترابطي هو المنهج الأمثل في التعامل مع تاريخ الائمة ( ع ) ، فإن تأريخهم قد تعرض إلى الكثير من التشويه والتزيق من المؤرخين قديماً ، والذين كانوا يتملقون السلطة أو يخسافون منها ، ومن المستشرقين حديثاً وتلامذتهم ، حيث الغزو الثقافي الاستعماري .

### خلاصة البحث :

نستخلص من المنهج الترابطي ، بأن هناك دوراً مشتركاً في تأريخ الائمة ( ع ) وموقفاً عاماً وبقوه في خضم الأحداث والمشاكل التي اكتفت الرسالة بعد انحراف التجربة الإسلامية واقصائهم عن مركزهم القيادي في زعامتها ، وأن اساليب العمل الرسالي في التغيير ليس اسلوباً جاهزاً نلقاه مباشرة وبصورة حرفية من خلال الأخبار والمرويات المنقولة في كتب التاريخ بشكلها المجزأ أو ان نلغي وعي عقولنا تجاه

(١) ثورة الحسين (ع) / محمد مهدي شمس الدين ، ص : ٢٩٣ .

تأريخهم (ع) وإنما المطلوب هو اثره تجارينا واساليبنا العملية من معطيات تجاربهم العملية الشرة، لأن اساليب العمل تتنوع دائماً حسب اختلاف الواقع الموضوعي الذي تعيشه الدعوة وتكيف لاجوائه.

ومن هنا كان لزاماً على الدعوات التغييرية ان تمتلك منهجاً تتبعه في فهم وتحليل التأريخ حتى تتمكن من استخدامه كأداة فعالة، لادراك ما حولها من مواقف وظروف موضوعية، وتضعها موضع التخطيط المدروس من اساليبها العملية والاهتداء بتجارب عمل الائمة (ع) دون الجمود أو الوقوف على تجربة يعينها من تجارب الائمة (ع) متجاوزة بذلك الواقع الموضوعي الذي تعيشه، وما تفرضه علينا حاجتنا العملية للتغيير والاستفادة من كل اسلوب ينسجم مع ما نتبناه في طريق عملنا للتغيير الاسلامي الشامل.

والدراسة الترابطية لاعمال الائمة (ع) تدلنا على حقيقة أخرى، تظهر من خلال مباشرتهم لعملية التغيير إلا وهي فشل كل الاعمال الفردية المبعثرة والمعزولة عن ساحة الجماهير العريضة، والتي لا تنفق في خط تغيير واحد، بل لا بد من صفوة داعية واعية تهيء الأمة لمسيرة التغيير الإسلامي الكبير، بعد ان تلاحظ واقعا الخارجي الذي تعيش فيه وتدرس ظروفه العقلية والفكرية والنفسية والاجتماعية وتضع كل ذلك في حسابها قبل ان تبدأ بالعمل.

أما تقييد عواطف الجماهير الملتهبة واستغلال ظروف الساحة الأنية وتحويل الفكرة للافراد لصفاتهم الشخصية دون العمل الشامل والمتفاعل مع قوى الساحة الفاعلة فهي بالضرورة من الاعمال الجزئية التي لا تحمل إلا بذور فشلها وسقوطها.

فعملية التغيير التي مارسها الائمة (ع) لم تقم في يوم من الأيام على الجمع العددي المشحون بعواطف ومشاعر خادعة ومهزوزة تلهبهم الخطابات الرنانة وتمحصهم التجربة الصعبة بالأنهزام والانكفاء عن التضحية، وإنما لا بد للاعداد هذه من ان تجسد عمق الفكرة، وان تلك عواطفها بمفاهيم الرسالة ونبيل اخلاقيتها حتى تحركها التضحية والاخلاص من اجل سيادة الفكرة والوصول إلى نيل رضوان الله تعالى.

فالنظرة التوحيدية للعمل، ترتبط دوماً وابتداءً بالواقع الموضوعي المعاش وتخضع بالتالي للشروط الخارجية فهي ترتبط وبشكل ادق وتتوحد بمنطقة العمل الدعوتي والأمة التي نريد ان نعمل في صفوفها ووسطها.

والأمة على ضوء المنهج التوحيدي، لا يمكن ان تثبت على حالة واحدة بحيث نتجه إليها بأسلوب عمل واحد لا يتغير ولا يتجدد.

فمعادلتنا إذن تقوم على أساس الأمة تتغير «الجانب المتغير» والإسلام لا يتغير «الجانب الثابت» والأمة اليوم ليست الأمة بالأمس بمستواها الفكري والاخلاقي وعلاقتها النفسية والاجتماعية واطرافها الاقتصادية، وفي كل ظروفها التفصيلية الاخرى.

وعليه فلا يجوز للداعية ان يتعامل مع الأمة اليوم كما يتعامل مع الأمة بالأمس بل عليه ان يأخذ في عين الاعتبار كافة الظروف والتغيرات التي تحيط بالأمة، لأن مضمون تطوراتها وتغييراتها هو الذي يحدد جوهر التخطيط السليم للعمل، مفتحاً من خلاله على طاقات الأمة الخلاقة ولا بد من التحرر من نزعة التمسك المحرفي بأساليب العمل، والتي تجعلنا نعيش مع أمة قد مضى وقتها وانتهت بظروفها وملابساتها.

ولكي نتجه اتجاهاً سليماً في تفكرنا يلزمنا اعتماد المنهج التوحيدي (الترابطي) وان نتجاوز طريقة الطرح والتفكير المجزأ وان نعتمد على الشمولية في التفكير وذلك عن طريق تعميق خبراتنا وتجاربنا.

وبهذا المنهج الشمولي يمكن تقديم تاريخ اهل البيت (ع) من تاريخ معزول سياسياً عن حياة المسلمين إلى تاريخ فاعل وإلى حركة تغييرية مجاهدة تستهدف تقديم الإسلام كرسالة حاكمة في دولة كريمة تعز الإسلام وأهله وتذل النفاق وأهله، جاعلة من الإسلام رسالة مفتوحة على كل مجالات حياة الأمة وآمالها وآلامها.

والمنهج (الترابطي) هو المنهج المفضل - والذي - سترسم خطاه بقدر الامكان - بالاستعانة من المنهج التجزيئي أيضاً في دراستنا لهذه السلسلة من تاريخ



أثمتنا - التي بين يديك - قارئي العزيز - وهو الكتاب الأول والثاني ، وهي محاولة جديدة - بكر - ترسم بها خطا المنهج الترابطي لإعادة قراءة تأريخ أهل البيت ( ع ) .

والمهم في محاولتنا هذه ، هو اعتماد المعلومات الواردة عن حياة أهل البيت ( ع ) في المصادر التاريخية الإسلامية الموثوقة وعدم تشويهها أو بترها أو اقحام معلومات جديدة على تأريخهم لم تقع أبداً بحجة أو بأخرى ، الأمانة الإسلامية في نقل المرويات مطلوبة للغاية ، ونحن مسؤولون في محاولتنا هذه تصنيف المعلومات الواردة وتحليلها واستنتاج الدروس والعبر التي تفيد امتنا الإسلامية حاضراً ومستقبلاً .

ونستطيع ان نقول ان مكتبتنا الإسلامية ، ما زالت فقيرة إلى الدراسات المتعمقة في مجال المنهج الترابطي الشمولي ، وإلى القراءة الإسلامية الجادة لحياة اثمتنا العظام ( ع ) .

ومن هنا تأتي ميزة المحاولات ذات المنهج الترابطي في فترة نحن احوج ما نكون فيها للتعرف على كنوز تأريخنا وتلمس عوامل الصحوة الإسلامية في بناء الدولة الكريمة .

- ٤ -

الهدف من هذه الدراسة :

أما العظة التي نستلهمها من خلال دراسة «سيرة الائمة» ( ع ) في العمل من أجل الرسالة ، فتندرج تحت النقاط التالية : -

أولاً : إن الرسالة الإسلامية بمتبنياتها المختلفة في الفكر والعمل ذات طابع حضاري ثابت لا تخضع للمساومات والتغيرات في دنيا الانسان .

ثانياً : انه يجب الفصل بين ما هو فكر إسلامي عملي (ثابت) وما هو اسلوب من اساليب العمل (المرن) التي سلكها الرسول (ص) أو أحد الائمة ( ع ) من بعده ويعني ذلك ان النبي (ص) والائمة لهم شخصيتان ، الأولى بوصفهم مبلغين للفكر الإسلامي «العناصر الثابتة في التشريع الإسلامي» عن الله تعالى ، والأخر بوصفهم حكاماً وقادة للمجتمع الإسلامي يضعون الاساليب العملية «العناصر المتحركة



المرونة التي يستوحونها من المؤشرات العامة للإسلام ، والروح الاجتماعية والإنسانية للشريعة على ضوء ادراكهم للمواقع .

وعلى هذا الأساس كان النبي (ص) والائمة (ع) يمارسون تحديد الاساليب العملية في مختلف شؤون الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها ، وهذه الاساليب بحكم صدورها عن صاحب الرسالة أو ورثته المعصومين ، تحمل بدون شك الروح العامة لموقف الإسلام! وتعبير عن تطلعاته في واقع الحياة وعلى العاملين الإسلاميين الاستفادة من هذه الاساليب بقدر ما لا يكون مشدوداً إلى طبيعة المرحلة الاجتماعية والسياسية التي رافقتها<sup>(١)</sup> .

هذا اللون من التميز الذي اشرنا إليه يعيننا على التخلص من ظاهرة الجمود الحرفي عند بعض المواقف التي كانت تجسد الطريقة المثلى في وقتها وفي الظروف التي ساهمت في وجودها .

ثالثاً : ان ندرك بعمق ان الاساليب العملية التي تجب تبنيها هي ذات طابع متغير، تبعاً للظروف العقلية والفكرية والنفسية للأمة ، وبناءً على بعدها أو قربها من الرسالة من الوجهة الأتزامية وطبقاً لبعد الأمة أو قربها من السلطة الزمنية .

رابعاً: إدراك التغيرات المطردة في حياة الناس ووعي حاجاتهم الآنية والعمل على اختيار احسن . واقرب الاساليب العملية إلى نفوسهم واذهانهم .

خامساً: الاستتارة بخطوات الحركة التغييرية التي مارسها خط الإمامة بالحدود التي تسمح به ظروف الانسان في المرحلة الراهنة ، لأن تأريخهم (ع) بهذا الاعتبار شيء متحرك في عقل الأمة وعاطفتها ، وليس لونهاً من الحركة العاطفية أو موقف حماس وخطابة أو تعامل مع سنن خارقة ومعجزات ، بل إنها عقيدة راسخة ، ونظرة معصومة وخطط محكمة ، ودراية متبصرة ، وحسن قراءة للظروف والإمكانات وانسجام بين السنن والقوانين التي شرعها الله تعالى :

(١) الإسلام يقود الحياة/ السيد الشهيد الصدر، ص: ٤٧ .

وفي الختام ، نرجو من الله تعالى ان يكون بحثنا هذا بمنهجية الشمولية ان يشير  
الرغبة في المزيد من البحث، والمزيد من تسليط الضوء على حقيقة تاريخهم العظيم  
( ع ) راجين من القراء الكرام ان يتفضلوا علينا بالتوجيه أو الاقتراح على ما ورد في  
الكتاب من خطأ أو عيب أو نقص «فالمؤمن مرآة المؤمن» .

ونسأل الله تعالى ان يجعل عملنا هذا مرضياً لديه وان ينفع به .  
وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

١٥ / سؤال / ١٤٠٣



## (الكتاب الثاني)

### دور أئمة أهل البيت في التاريخ الإسلامي

من غير المشكوك فيه أبداً أن الرسول (ص) رحل إلى جوار ربه تعالى ، وهو لما يستوف بعد المهمات التاريخية المناطة بالرسالة الإسلامية على المستوى النظري والعملية معاً .

«فعلى الصعيد النظري لم يتسن للرسول (ص) ، أن يبين للأمة الإسلامية سوى الخطوط العريضة للتشريع الإسلامي مضافاً إليها بعض التفاصيل الفقهية لعدد من المسائل الحياتية لانسان الاسلام»<sup>(١)</sup> فرداً وجماعة .

أما على المستوى العملي فإن الدعوة الانقلابية التي كان الرسول (ص) يباشرها لتغيير الواقع الاجتماعي فكراً وعملاً ، وانشاء الانسان الرسالي الجديد في فكره ومفاهيمه وأنماط سلوكه ، هذه المهمة لم تتحقق هي الأخرى للرسول (ص) حتى على مستوى مجتمع عاصمة الدولة (المدينة المنورة) فضلاً عن أقاليم الدولة الإسلامية الأخرى كما يتضح ذلك من مجموع الأخطاء والسلبيات التي طفحت على سلوك عدد من الصحابة فضلاً عن عامة الناس وإذ لم يمض ربع قرن حتى بدأت الخلافة الراشدة والتجربة الإسلامية التي تولى جيل المهاجرين والأنصار قيادتها تنهار تحت وقع الضربات الشديدة التي وجهها أعداء الإسلام القدامى ، ولكن من داخل

(١) الإمامة في التشريع الإسلامي / الاصفى ، ص : ٣٣ .

أطار التجربة الإسلامية لا من خارجها، إذ استطاعوا أن يتسللوا إلى مراكز النفوذ في التجربة بالتدريج ويستغلوا القيادة غير الواعية، ثم صادروا بكل وقاحة وعنفة تلك القيادة، وأجبروا الأمة وجيلها الطبيعي الرائد على التنازل عن شخصيته وقيادته، وتحولت الزعامة إلى ملك موروث يستهتر بالكرامات، ويعطل الحدود ويعجمد الأحكام وأصبحت الخلافة كرة يتلاعب بها صبيان بني أمية<sup>(١)</sup>.

ومن المقطوع به أن قصر الفترة التي عاشها الرسول (ص) بين ظهوره في مجتمع المدينة لم تكن فيها الكفاية لتحقيق العملية التغييرية في ذلك المجتمع، ومن هنا فإن من بداعة الأمور أن يتخذ الإسلام موقفاً ايجابياً لضمان سلامة خط سير الحركة الإسلامية التاريخية وصحة بناء الأمة الإسلامية وتعميق وعيها وانفتاحها على مطالب الرسالة الإلهية... وهذا لا يتأتى بطبيعة الحال إن لم تعهد القيادة الفكرية والسياسية إلى أشخاص ينهضون بالدور الذي نهض به الرسول القائد (ص) ويكون لهم من المؤهلات والصلاحيات ما يمكنهم من مواصلة الحركة التغييرية التي بدأها الرسول (ص) في الأمة على الصعيد العملي وبيان الأحكام الإسلامية التفصيلية في الحوادث المستجدة في مسيرة الأمة على الصعيد الفكري والتشريعي.

ومن خلال هذا الوعي ينبثق خط الإمامة في الإسلام ليقوم الأئمة من خلاله بدورهم الطبيعي في دفع حركة الإسلام التاريخية باتجاه تحقيق أهدافها التغييرية الكبرى في دنيا الناس.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن خط الإمامة لم تكن لنعيه من خلال الضرورة التاريخية التي تفرضه كامتداد طبيعي للرسالة لا بد منه لحماية الإسلام والأمة فحسب ولكنه إلى جانب ذلك يظل خطأً تشريعياً ذا أبعاد محددة طرحته الشريعة الإسلامية من خلال موقفين للرسول (ص):

أحدهما: (عملي): تمثل في تربيته للإمام علي (ع) منذ طفولته واعداده اعداداً روحياً ورسالياً خاصاً، ومارس توعية الإمام علي (ع) على المستوى القيادي للدعوة من

(١) بحث حول الولاية / الشهيد الصدر.

بعده ليكون أهلاً لتولي مهام القيادة الفكرية والسياسية في الأمة بعد غياب الرسول (ص) «فقد كان النبي (ص) يخصه بكثير من مفاهيم الدعوة وحقائقها ويبدؤه بالعطاء الفكري والتثقيف إذا استنفذ الإمام أسئلته ويختلي به الساعات الطوال في الليل والنهار يفتح عينيه على مفاهيم الرسالة، ومشاكل الطريق ومناهج العمل إلى آخر يوم من حياته الشريفة»<sup>(١)</sup>.

روى الحاكم في المستدرک بسنده عن أبي إسحاق:

«سألت قثم بن العباس كيف ورث علي رسول الله قال: لأنه كان أولنا به لحوقاً وأشدنا به لزوقاً».

وروى عن النسائي عن الإمام، أنه يقول:

«كنت إذا سألت رسول الله أعطيت وإذا سكت ابتدأني» ورواه الحاكم في مستدرکه ايضاً.

وقال الإمام علي (ع) في خطبته القاصعة الشهيرة، وهو يصف ارتباطه القريب بالرسول القائد وعناية النبي بأعداده وتربيته:

«وقد علمتم موضعي من رسول الله (ص) بالقرابة القريبة والمرتلة وضعتني في حجره، وأنا ولد يضمني إلى صدره ويكنفني في فراشه ويمسني جسده، ويشمني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقميه وما وجد لي كذبة في قول ولا خطللة في فعل، ولقد كنت أتبعه أتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالافتداء به ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري ولم يجمع بيتاً واحداً يومئذ في الإسلام غير رسول الله وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة وأشتم ريح النبوة».

وثانيهما: (فكري) تمثل بالبيانات الرسمية التي أطلقها الرسول (ص) في

(١) ن. م المصدر السابق.

ظروف ومناسبات مختلفة، لابرار خط الإمامة في الحياة الإسلامية، كحديث المنزلة:

«أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي»<sup>(١)</sup>.

وخطبة الغدير التي جاء بها:  
«من كنت مولاه فهذا علي مولاه»<sup>(٢)</sup>.  
وحديث الثقلين:

«إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيتي وأنهما لن يفترقا حتى يرثي علي الحوض»<sup>(٣)</sup>.

وكذلك تأكيدات المتكررة (ص) تصريحاً أو تلويحاً على الدور الذي كان ينتظر الإمامان الحسن والحسين حتى ليطرح بأنهما عليه السلام «إمامان قاما أو قعدا»<sup>(٤)</sup> كما أنه يقول لهما: «أنتما الإمامان ولأمكما الشفاعة»<sup>(٥)</sup>.

وهكذا يفرض خط الإمامة في الحياة الإسلامية حتمية من خلال الضرورات التاريخية والشرعية ليكون متمماً لخط الرسالة فيها في الجانب النظري والعملي على حد سواء.

وكان من المفروض أن القيادة الإسلامية لهذه التجربة ان تواصل على يد الإمام علي (ع) ويد خلفائه من أئمة أهل البيت (ع) نموها الثوري واحد بعد الآخر، وتقرب نحو اكتمال هدفها التغييري في اجتثاث كل رواسب الماضي الجاهلي وجذوره وبناء أمة جديدة على مستوى متطلبات الدعوة ومسؤولياتها.

وهكذا برزت أهمية خط الإمامة - بغض النظر عما ذكرنا في التاريخ الإسلامي عملياً بعد الحيلولة دون مباشرته لمهامه التاريخية على نطاقين:

(١)، (٢)، (٣) المراجعات / شرف الدين.

(٤)، (٥) راجع كتاب الحسن / للعلمي، ص: ١١.



أحدهما: النطاق التشريعي: فإن مواجهة الأمة لحاجات جديدة لا عهد لها بمثلها أيام التنزيل المبارك، قد حتم على ولاة الأمر بعد الرسول (ص) أن يضعوا حلولاً ويقترحوا تشريعات تحمل الطابع الذاتي في الأعم الأغلب، فالتجأوا إلى (الرأي) فيما لا نص فيه من خلال مفاهيم الاستحسان والقياس والمصالح المرسله وغيرهما<sup>(١)</sup>، التي قادت إلى تبني احكام مخالفة لمفاهيم اسلامية اصيلة، وقد صدرت تلك من صحابين كبار ثم تتابع مسير العملية المذكورة، فأدى إلى تحريفات خطيرة في التشريعات الاسلامية كما في العهد الأموي، على أن هذا اللون من الاجتهاد قد تحوّل الى مدرسة معروفة كان قوام تفكيرها «العمل بالرأي»<sup>(٢)</sup> وقد جوبهت مدرسة الرأي برد فعل عنيف في الأوساط الفكرية مما أدى الى ظهور مدرسة «الحديث» في الحجاز والتي كانت تفضل أن تظل محافظة على المأثور من الحديث واجتهادات الصحابة والتابعين من بعدهم<sup>(٣)</sup>، ولاعتقاد روادها أن العودة إلى الحديث كافية وحدها لتحقيق حماية الرسالة من التميع الذي عانت من انصار مدرسة الرأي.

وللمرء أن يقدر خطورة الموقف الذي عانت منه الشريعة وهي تعيش بين مدرستين احدهما ذات طابع يتخذ الذاتية والرأي قاعدة له ومبرراً «دون ان تنقيد بما يعتبره الشارع في الاجتهاد، وكان في ذلك شيء كثير من الجرأة على الشريعة والتصرف بموازينها ومقاييسها التي تخرج عن متناول الفكر والرأي»<sup>(٤)</sup>.

وأخراهما: ذات طابع جامد لم يلق للحوادث المستجدة في حياة الانسان بالاً وإنما تنوفق عند النصوص فحسب دون الأخذ بنظر الاعتبار ظلالها وايحاءاتها وتطورات الحياة والاعراض عن كل شيء ما عدا الكتاب والسنة كما يذهب الى ذلك داود وغيره من الظاهرية<sup>(٥)</sup> الأمر الذي يبرز أهمية خط الإمامة في الحياة الإسلامية

(١) راجع سلم الوصول الى علم الأصول/ عمر عبدالله، ص: ٢٩٥.

(٢) مجلة النجف/ كلية الفقه/ عدد ٩٢٨، ص: ٨٢ وما بعدهما.

(٣) الأصفى/ في مقدمة كتاب الاجتهاد والتقليد/ ميرزا غلام رضا، ص: ٨.

(٤) ن. م، ص: ١٩.

(٥) ن. م، ص: ١٩.

على الصعيد التشريعي لحماية الرسالة من مزالق الاتجاهين اتجاه «ادخال عنصر الرأي في مصادره التشريعية حيث يفقد التشريع صلابته وقوته واصالته الإسلامية التي هي من خصائص التشريع الإسلامي، واتجاه «مدرسة الحديث» التي ذهبت إلى تجميد الشريعة والأخذ بظاهر النصوص، حيث أفقدت التشريع خاصيته على المرونة وقابليته لمسايرة الظروف الاجتماعية المختلفة»<sup>(١)</sup>.

ثانيهما: النطاق العملي:

من المعلوم - تاريخياً - أن الإسلام جابه، بعد وفاة الرسول (ص) انحرافاً خطيراً ومبكراً في صميم التجربة الاجتماعية والسياسية التي أنشأها النبي (ص) للمجتمع والأمة الإسلامية وما كاد خط الإمامة في الحكم يقصى عن الحياة الإسلامية ويستبدل بأطروحة جديدة في الحكم «أطروحة السقيفة»\* حتى بدأ الانحراف عن الخط الإسلامي يتسرب إلى مراكز التوجيه الفكري والاجتماعي والسياسي، حتى وثدت التجربة الإسلامية الأصيلة، واستبدلت بحكم قبلي ورائي بدأ بتعطيل الحدود ومصادرة روحية الشريعة. وتكدير صفاتها وقد تجسد ذلك بالحكم الأموي والعباسي وما تمخض عنهما من مآسي وويلات ومزالق خطيرة وإبعاد للأجيال عن أهداف الرسالة وطابعها السماوي الصميم.

وكان من المتوقع - بحسب طبيعة الأشياء - ان يتسع ويتعمق الانحراف بالتدرج وذلك بمرور الزمن، لأن الانحراف يبدأ صغيراً ثم تنفجر الزاوية في كل خطوة تزداد وتكبر وكلما تحققت مرحلة من هذا الانحراف، مهدت إلى مرحلة أوسع منها، في المراحل التي تتلوها.

وبحسب منطق الأشياء، كان من المفروض أن يصل هذا الانحراف ويتنامى في خط منحني ضمن عملية تاريخية وزمنية «طويلة المدى» إلى الهاوية والانهيار التام، بحيث تصبح التجربة الإسلامية للمجتمع والدولة مليئة بالتناقضات، حتى

(١) ن. م، ص: ١٩ - ٢٠.

(\* راجع ما كتبه في موضوع منطلق السقيفة من هذا الكتاب، ص:

تكون التجربة عاجزة كلية عن تلبية الحد الأدنى من حاجات الأمة ومصالحها الحيوية .

ومعنى انهيار «التجربة الإسلامية» بالتدرج - ودون أن يقهر انحرافها أحد - اثبات عجزها وقصورها مرة تلو أخرى، حتى تصل إلى إعلان افلاسها وعجزها الكامل عن مواكبتها للحد الأدنى للقضايا التي تبناها أمام الجماهير وللرسالة التي تعلن عن مضمونها .

وحيثما يتفاهم أو يتسلسل الانحراف في خط تصاعدي فمن البديهي أن يصبح فهم تسلسل الأحداث لهذه التجربة بأنها ستعرض بالضرورة عاجلاً أم آجلاً لانهيار كامل ومحقق، أي أن الدولة والمجتمع والحضارة الإسلامية، كقيادة للمجتمع ستعرض للانهيار والسقوط، لأن التجربة عندما تصبح مشحونة بالتناقضات تكون عاجزة حتماً عن مواجهة وظائفها الحقيقية في حماية نفسها وفي بناء الدولة والمجتمع المنشود .

وحيثما تصل التجربة إلى هذا الوضع المتردي من السقوط تصبح عاجزة عن حماية نفسها، وتصبح الأمة بدورها أيضاً عاجزة عن حماية هذه التجربة في مكثباتها الإلهية .

ومعنى ان تكون التجربة عاجزة عن حماية نفسها لأنها تكون في وضع قد استنفذت أهدافها وامكانياتها على الديمومة والبقاء على مسرح التاريخ، لأنها أصبحت مفضوحة في عجزها وعقمها وواضحة الخطأ، والتجربة الفاشلة لا يمكن ان تستمر على مسرح التاريخ لأنها لا تستحق الحياة .

ومعنى أن الأمة ليست على مستوى حماية التجربة، لأن الأمة لا ترى أي فائدة منها ولا تجني منها خيراً أو بركة ودون أن تحقق لها الآمال التي كانت تصبو إليها .

ولهذا لا ترتبط، هذه التجربة، بأي ارتباط حقيقي مع الأمة، والأمة على غير استعداد لأن ترتبط بالتجربة ارتباطاً مصيرياً يقودها إلى تكرار الفشل والسقوط .

وعلى ضوء ما سبق نصل إلى نتيجة مفادها بأن التجربة لا بد لها أن تنهار في

مدى من الزمن، وذلك كنتيجة نهائية وحتمية لبذرة الانحراف التي غرست فيها، وانهيارها يعني انهيار الدولة الاسلامية وقيمها الحضارية، وتخليها بالضرورة عن قيادة المجتمع الإسلامي والعالم معاً واقصائها عن مركزها كقائد للمجتمع والأمة الإسلامية. . ولكن الأمة الإسلامية - كأفراد - ستبقى - طبعاً - لأن التجربة في المجتمع والدولة هي التي تفشل وتخطىء وبالتالي تنهار امام أول من يغزوها ويخطط لمهاجمتها، كما حصل معها امام الغزو التركي الذي واجه الخلافة العباسية، ولكن الأمة بقيت كأفراد (مسلمين) ولكن - بحسب منطلق - الاحداث وتسلسله . سنرى ان الأمة ستنهيار هي الاخرى تبعاً لانهيار تجربتها الحاكمة .

ونحن نسأل هنا لماذا يا ترى ان الأمة التي تدين بالاسلام وتؤمن به وتتفاعل معه هي الاخرى تنهار تبعاً لانهيار تجربتها؟ والجواب جد بسيط، لأن هذه الأمة لم يتح لها أن تعيش الاسلام الصحيح بصيغته الكاملة للحياة لفترة طويلة من الزمن - بل عاشت الاسلام الصحيح فترة وجيزة من الزمن، وهي الفترة التي مارس فيه الرسول (ص) قيادة التجربة، وبعد غيابه (ص) عاشت الأمة تجربة منحرفة، لم تستطع وهي تعيش الانحراف ان تعمق مضمون الرسالة في الأمة وتجذر فيه روح المسؤولية اتجاه عقيدتها، ولم تتمكن من تثقيفها وتحسينها وتزويدها بالضمانات الكافية بمنع الانهيار امام حضارة وافكار جديدة يحملها الغازي الذي يضع في قائمة اولوياته تحطيم التجربة ومجتمعها الاسلامي مستبدلاً إياها بتقاليد ومفاهيمه الحضارية البديلة .

كل هذا سيؤثر على الأمة الاسلامية تأثيراً بالغاً، لأن الأمة لم تتعرف على اسلامها معرفة حقيقية واعية طيلة سني التجربة المنحرفة ولن تجد الأمة في نهاية ممارستها للتجربة المنحرفة ، بعد ان نفذت روحها واهينت كرامتها وحطمت ارادتها وغلت ايديها من قبل زعاماتها المنحرفين - ما تحصن به نفسها ضد ما يطرأ بعد انهيار التجربة، وحينئذ ستنهيار الأمة أيضاً وسوف تندمج بالعالم الكافر الذي غزاها وفتحها وسيطر عليها، وسوف تصادر رسالتها وتميع عقيدتها، وتصبح الأمة في ذمة التاريخ بعد أن كانت وجوداً حقيقياً فاعلاً على مسرح التاريخ وبهذا ينتهي دور الإسلام كتجربة حضارية منقلدة للبشرية؟

هذا هو التسلسل المنطقي والبديهي لانهايار الحضارات والدول، بقطع النظر عن دور قادتها اتجاهها .

والآن نتطرق بالتحليل الى دور الائمة (ع) اتجاه هذا التسلسل الانحرافي، ونتعرف على طريقة معالجتهم لها وموقفهم منها، باعتبارهم مسؤولين شرعاً عن قهره ومواجهته لصالح الرسالة الاسلامية.

لقد واجه الأئمة، اهل البيت (ع) هذه المسألة بلمرين:

الأمر الأول: المهمة عاشها الأئمة (ع) في حياتهم الجهادية، هي محاولة التصدي والقضاء على الإنحراف الموجود في تجربة المجتمع الإسلامي، وإرجاع التجربة الإسلامية إلى وضعها الطبيعي، وذلك باعداد خطة طويلة الأمد، وتهيئة ظروفها الموضوعية التي تتناسب وتتفق مع إرجاع التجربة إلى وضعها الصحيح فمتى ما كانت الظروف الموضوعية مهيئة كان ائمة أهل البيت (ع) على استعداد كامل لتحمل مسؤ ولياتهم في إرجاع التجربة إلى مسارها الطبيعي، وهو ما فعله الإمام علي (ع) وكما هو واضح من قوله (ع):

وبأن الله أخذ عهداً على الانسان أن لا يقهر على الظلم مع وجود الناصره<sup>(1)</sup>.

ويفهم من هذا القول بأنه عندما تنهيه الظروف الموضوعية للتحرك والتي تجعل في قدرة الإنسان (الإمام) أن يحاول ويعمل على اعادة التجربة الإسلامية إلى وضعها الطبيعي والصحيح، وهذا يعني، الاعداد والعمل لتهيئة المقدمات والظروف الموضوعية للتمكين من اعادة التجربة واستئنافها في واقع حياة الأمة.

ولدينا نصوص عديدة من الأئمة (ع) توضح أن أئمة أهل البيت (ع) كانوا دائماً على استعداد كامل لخوض عمل مسلح إذا وجدت لديهم القناعة بتوفر الظروف الموضوعية وذلك بوجود الانصار، والقدرة على تحقيق الاهداف الاسلامية من وراء ذلك العمل المسلح.

(1) راجع نهج البلاغة (جزء من الخطبة الشقشقية).

يقول الإمام الحسن (ع) بهذا الصدد: «والله إني ما سلمت الأمر إلا لأني لم أجد أنصاراً، ولو وجدت أنصاراً لقاتلته ليلي ونهاري حتى يحكم الله بيني وبينه»<sup>(١)</sup>.

ومن الملاحظ أن أئمة أهل البيت (ع) كانوا يؤمنون بأن تسلم السلطة وحده لا يكفي لتحقيق الأهداف ما لم تكن هذه السلطة مدعومة بقواعد شعبية واعية تعي أهداف تلك السلطة، وتؤمن بنظريتها في الحكم وتعمل في سبيل حمايتها وتفسير مواقفها للجماهير وتصمد في وجه الأعاصير<sup>(٢)</sup>.

الأمر الثاني: والأمر الآخر الذي كان يمارسه الأئمة (ع) - وهو في حالة ادراكهم وشعورهم بعدم توفر أو تحقق هذه - الظروف الموضوعية - التي تهيئهم لخوض معركة في مقام تسلم زمام الحكم من جديد - هو ممارسة العمل على تعميق الرسالة فكرياً وروحياً وسياسياً في ذهن الأمة ووعيتها، بغية إيجاد الحصانة الكافية في قواعد الأمة، وذلك من أجل أن يؤثر هذا التحصين في منح الأمة، المناعة الكافية في مواجهة مصير الانهيار بعد تردي التجربة وسقوطها. خصوصاً بعد حرمان الأمة الإسلامية - بوقت مبكر - من أن تعيش التجربة الصحيحة بصيغتها الكاملة للحياة الإسلامية بعد وفاة رسول الله (ص) والذي كان من الضروري واللازم من ان تدعم وتنغذي رسالياً بالإسلام في جميع مجالاته الروحية والفكرية والاجتماعية والسياسية، لكي تعرف الإسلام وتستوعبه بوعي حقيقي كامل.

وليس المقصود بتعبئة الأمة - هنا - مجموع الأمة لأن التعبئة والتغيير الرسالي الواعي لا يمكن أن يتحقق بالنسبة لمجموع الأمة إلا في حالة واحدة، وهي حالة وجود قيادة سياسية تمارس التجربة على مستوى الحكم في دولة ومجتمع، ولكن المقصود من تعبئة الأمة هو إيجاد قواعد واعية في الأمة وخلق روح رسالية فيها وإيجاد عواطف اتجاه هذه الرسالة لدى الأمة.

فأئمة أهل البيت (ع) في حالة شعورهم، بعدم امكان استرجاع مركزهم القيادي من - الغاصبين - حتى وهم في هذه الحالة، كانوا يعملون بدأب من أجل

(١)، (٢) بحث حول الولاية / الشهيد الصدر، ص: ٩٣ - ٩٤.



انقاذ وجود الأمة في المستقبل وضمان عدم انهيارها وتشرذمها كأمة بعد سقوط التجربة وفشلها وذلك من خلال عملهم المخلص الدؤوب باعطاء التحصين الكامل والمستمر لهذه الأمة<sup>(١)</sup>.

## المرحلة في عمل أهل البيت (ع)

قبل أن نتكلم عن مراحل عمل أئمة أهل البيت (ع) نود التمهيد ببعض الملاحظات التالية:

١ - أن عناوين التقسيمات المرحلية التي سنوردها في البحث تؤكد عادة وتؤخذ عنوانها من أهم محاور العمل المركزية وأشدّها الحاحاً لعمل أئمة المرحلة الواحدة، دون أن تنفي وجود مهمات دعوتية أخرى أقل مركزية.

٢ - التقسيم المرحلي الذي تبناه في بحثنا ليس تقسيماً حدياً بل نسبياً يتداخل أحياناً، لأن المؤرخ لا يمكنه أن يقف على اللحظة التاريخية، فيدعي بأن هذه اللحظة هي نهاية المرحلة وبداية أخرى، وإنما هذه التقسيمات تتفق مع طبيعة الأحداث المتصورة في خط التاريخ الإسلامي.

٣ - أن اختصاص بعض مراحل عمل الأئمة (ع) بممارسات معينة لا يتعارض مع وجود نشاطات وممارسات أخرى من التحرك المشترك مع بقية أئمة المراحل الأخرى.

٤ - واقع الأمة السياسي والفكري والنفسي المعاصر لأئمة المرحلة والملاسات الاجتماعية المحيطة بها، كل ذلك يرسم معالم المرحلة ويؤثر على مظاهر التحرك عند أئمة المرحلة الواحدة، وكذلك نضج الأمة الإسلامية يعتبر عنصراً مهماً في تفاعل أئمة أهل البيت (ع) معها.

٥ - أن أي خطأ في تحديد المرحلة التي يمر بها الإمام (ع) يؤدي إلى الخطأ

(١) اعتمدنا في هذا الفصل على تحليلات السيد الشهيد الصدر في محاضراته على طلبته في النجف الأشرف.



في تفسير مواقف ذلك الامام، وعدم الاحاطة بالظرف المعاصر له.

## مراحل عمل أئمة اهل البيت (ع)

### المرحلة الأولى

ويمكن تسمية هذه المرحلة بمرحلة: مواجهة انحراف الحكام أو مواجهة صدمة الانحراف.

وفي اعتقادنا أن تأريخ الأئمة (ع) يمثل امتداداً رسالياً لمواصلة القيادة الاسلامية في بناء الأمة، ومن خلال هذه العقيدة، يعتبر عمل الأئمة (ع) يمثل اطروحة الإسلام في حماية مستقبل الدعوة الإسلامية بعد النبي (ص).

ولكن منطلق السقيفة وروحها القبلية التي تظهت وتحكمت بمنطق المتنافسين المجتمعين في سقيفة سعد بن عباد، لاختيار خليفة رسول الله (ص)، والإمام علي (ع) وغيره من الصحابة بعيدون عنهم لانشغالهم بجثمان النبي (ص) الذي كان لم يدفن بعد<sup>(١)</sup> هذا المنطق وهذه الروح القبلية، هي التي فتحت على المسلمين باباً من أبواب الفتنة، كما يصرح الخليفة عمر بن الخطاب، معلقاً على نتائج اجتماع السقيفة وبيعة أبي بكر بقوله:

«إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وفي الله شرها، فمن عاد إلى مثلها فاقتره»<sup>(٢)</sup>.

وهكذا كتب على الأمة الاسلامية، ان تعيش الحكم الإسلامي المنحوي بشكل مبكر عقيب وفاة الرسول (ص) مباشرة منذ أن نجحت السقيفة في تمرير أهداف «الفتنة» وبعد ان اضطلع بمسؤولية الخلافة أناس لم تنضج فيهم الرسالة الإسلامية.

وعلى ضوء نتائج اجتماع السقيفة وافرازاتها، يمكن أن نقول ان الاسلام الذي

(١) سيرة الرسول/ لابن هشام/ ج ٢ - ١٠١٨.

(٢) ابن أبي الحديد/ ١١١/٨.

تعطيه السقيفة بامتدادها التاريخي، اسلام مشوه ممسوخ، لا يحفظ الصلة العاطفية والفكرية بين الأمة وبين الرسالة.

وهكذا منيت الأمة الإسلامية وبوقت مبكر من حياتها الرسالية (بصدمة الانحراف) وهو الانحراف عن الخط الرسالي الذي رسمه لها النبي (ص)، بعد أن وقعت التجربة السياسية بيد اشخاص لم يفهموا (بعمق) الرسالة الإسلامية بصيغتها الشاملة للحياة ولم يعيشوا همومها أو يدوسوا في غاياتها. . إلى أن اتسعت رقعة الانحراف وزاويتها وأصبح من السهل اليسير مشاهدة هذا التحول بوضوح أكثر، منذ بداية النصف الثاني من عهد عثمان بن عفان إلى أن آل باقصاء الاسلام فيه من الواقع المعاش في زمن معاوية وابنه (الفاجر) يزيد.

ولما كانت امامة أهل البيت (ع) تمثل الامتداد الروحي والعقائدي لخط الأنبياء، وورثاً شرعياً لرسالات السماء، انبرت لتضطلع بدورها الرسالي الذي استهدف تصحيح المسار واعادته الى الاتجاه النبوي المطلوب، وكان محور نشاط ائمة المرحلة الأولى، يشتمل على التخطيط والأخذ بكل الاحتياطات الممكنة لتطويق (صدمة الانحراف) وتحصين الاسلام كشرية منها، والحفاظ على الرسالة الاسلامية نقية بعيدة عن التشويه.

وقد حفلت مواقف الأئمة (ع) من أجل هذا الهدف بزخم هائل من الجهود التخطيطية التحالفية بالتضحيات والرامية الى بناء الأمة على قاعدة فكرية تؤهلها من الناحية النفسية والسياسية أن تحمل مشعل الثورة وتدير الدرب للتأثرين، وترخص من أجل أهدافها كل غال ونفيس.

هذه الحقائق، دعت قادة الرسالة من أئمة أهل البيت (ع) - في هذه المرحلة المصيرية من تاريخ الأمة، للوقوف ومواجهة الصدمة التي وقعت متحدية الأمة الإسلامية عقيب وفاة الرسول (ص)، والتي كانت من الممكن أن تمتد وتقضي على الإسلام ومصالحه الأمة الإسلامية، فتصبح أثراً في التاريخ، دون أن يبقى له وجود في خط الزمن المستمر.

وخلاصة الأمر كان أئمة هذه المرحلة، يتصدون بشكل رئيسي لمواجهة

ومجابهة (انحراف الحكام) وتحصين الأمة ضدها، والعمل على الاحتفاظ بالاسلام كشرعية مستمرة دون أن يطالها التحريف والتشويه، ان لم يكن من المتيسر الحفاظ عليه كمجتمع وتجربة سياسية حاكمة .

ولذا حاول أئمة هذه المرحلة على العمل الدائب بتفهم الاسلام للامة ومحاولة تعميق عضائمه في نفوسهم، حتى تعرف الأمة دينها، وتمسك به، وينفس الوقت تتحصن ضد الانحراف وتقاومه وتتصدى له حالة نشوء .

لقد ركز الأئمة ( ع ) على مكنن الخطر هذا، وأخذوا يعملون لتوضيح وتوعية الأمة على الفرق بين الحكام الشرعيين والحكام القائمين (المغتصبين)، وكان هدفهم في هذه المرحلة هو كشف زيف الحكام أمام الأمة وتوضيح انحرافهم عن الإسلام، وقد أثمرت جهود أئمة هذه المرحلة بفصل السلطة الزمنية الحاكمة عن منصب الخلفاء الرساليين وتعرية انحراف الحكام عن رسالة الاسلام .

وقد أخذت الأمة تميز بين نوعين من الحكام، حكاماً منحرفين، وهم الذين اغتصبوا السلطة والخلافة، وحكاماً رساليين تمثل فيهم عدل الإسلام واستقامته، كما لمسوا ذلك عملياً من خلال تجربتي حكم الامام علي ( ع ) وولده الحسن ( ع ) .

وكذلك دأب أئمة هذه المرحلة بإيقاظ الأمة وتوعيتها باتجاه معرفة قيادتها الشرعية المتمثلة بامامة اهل البيت ( ع ) .

وكانت معالجة افرازات هذه المرحلة من مهام أربعة أئمة وهم :  
الإمام علي بن أبي طالب ( ع ) ، والإمام الحسن بن علي ( ع ) ، والإمام الحسين بن علي ( ع ) ، والإمام علي بن علي ( ع ) .

### المرحلة الثانية :

وهي المرحلة التي جابه فيها أئمة أهل البيت ( ع ) انحراف العلماء والمدارس الفقهية المنحرفة بتحديد معالم الكتلة الشيعية وإيجاد الطابع المميز لها .

بعد أن أنجز أئمة المرحلة الأولى مهمة تحصين الإسلام بتعرية انحراف الحكام والاحتفاظ بالإسلام كتشريع بصيغته الكاملة للحياة، وبعد أن وضعوا كل

التحصينات اللازمة وفرغوا من الضمانات الأساسية ضد (صدمة الانحراف)، بدأت مرحلة عمل جديدة، بجهود ثلاثة أئمة (ع) وهم:

الإمام محمد بن علي الباقر (ع)، والإمام جعفر بن محمد الصادق (ع)،  
 والإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع).

وقد تميزت جهودهم (ع) وتمحورت حول إبراز وتحديد الاطار التفصيلي الخاص بالكتلة الشيعية، بوصفهم الكتلة المؤمنة والمحافظة على الخط الحقيقي للإسلام أمام الخطوط المنحرفة الأخرى.

فالأطار التفصيلي الخاص للكتلة الشيعية، لم يكن متميز المعالم محدد الاطار لكل الناس أيام أئمة المرحلة الأولى الذين اتجهوا بنشاطهم الرئيسي لمعالجة (صدمة الانحراف) وحماية الاسلام دون تحريف يشوه محتواه، والعمل على إعادة الصحوة والروح النضالية التي افتقدتها الأمة عبر سنوات الانحراف بعد وفاة الرسول (ص).

فالعامل في تفادي (صدمة الانحراف) عند أئمة المرحلة الأولى لم ينقطع أو انتهى في المرحلة الثانية، بل ان هذا العمل استمر، لكن حيث ان (صدمة الانحراف) كان قد أمكن تقليل خطرهما، بجهود أئمة المرحلة الأولى، بما بذلوه من جهود وتضحيات في سبيل حفظ الاسلام، وحمايته من التحريف.

أما المرحلة الثانية، فكانت مجالاً خصياً، للأئمة (ع)، لايجاد الطابع المميز للكتلة الشيعية، وذلك ببناء الجماعة الصالحة من مجموع هذه الأمة التي حصنت بالحد الأدنى من التحصين، وانتخاب مجموعة من هذه الأمة، وتحصينهم بأعلى درجة ممكنة من التحصين والوعي، حتى تكون هذه الجماعة هي الرائدة والقائدة والحامية للوعي الإسلامي لمجموع الأمة التي حصنت بالحد الأدنى من التوعية الإسلامية.

ظهور هذا الهدف المرحلي بإبراز الاطار التفصيلي للتشيع مقابل المدارس المنحرفة الأخرى، دفع ببعض المؤرخين إلى «الاساءة في فهم فكرة التشيع، واعتبروها ظاهرة طارئة في التأريخ الإسلامي، مستندين في قولهم هذا إلى بروز

التشيع متدرجاً ومتطوراً من خلال احداث اجتماعية دفعت بها في التاريخ الاسلامي ، الى أن انجلت مظاهره ابان هذه المرحلة .

أما التشيع في واقعه الصحيح ، فقد وجد في اطار الدعوة الإسلامية متمثلاً في الأطروحة النبوية التي وضعها الرسول (ص) بأمر من الله للحفاظ على مستقبل الدعوة وهكذا وجد التشيع لا كظاهرة طارئة على مسرح الاحداث بل كنتيجة ضرورية بطبيعة تكون الدعوة وحاجاتها وظروفها الأصلية ، وبمعنى آخر كانت تفرض على الإسلام أن يلد التشيع ، وبمعنى آخر كانت تفرض على القائد الأول للتجربة أن يعد للتجربة قائدها الثاني الذي تواصل على يده ويد خلفائه نموها الثوري<sup>(١)</sup> .

والفرق بين المرحلتين ، هو أن أئمة المرحلة الأولى اظهروا معنى التشيع بالنطاق الضيق والخاص ، لأنهم انشغلوا بمعالجة هدفهم الرئيسي وهو (تحصين الإسلام من صدمة الانحراف) ، فيما جاء أئمة المرحلة الثانية ، كي يمنحوا الكتلة الشيعية ، وعلى المستوى العام اطارها التفصيلي الشامل ، ولا يعني هذا ، أن أئمة المرحلة الأولى لم يعملوا لابرار الكتلة الشيعية ، بل أن نشاطهم في هذا المجال كان ثانوياً وعلى مستوى خاص ، وقد سبق للإمام علي (ع) هذا النشاط وعلى المستوى الخاص جداً من كتلته من امثال سلمان الفارسي ، وأبي ذر الغفاري ، وعمار بن ياسر ، ومالك الأشتر وغيرهم .

وقد جاء تخطيط أئمة المرحلة الثانية ، مختلفاً في اتجاهاته وتركيبه وتكوينه وذلك وفقاً لمتطلبات الحاجة المرحلية للقضية الاسلامية ومستلزماتها (الموضوعية) والتي اتجهت إلى توضيح الاطار التفصيلي للتشيع ، وكشف ملامحه المتميزة ، واخراج العمل من اجله من مستوى اشخاص معدودين الى مستوى ارحب بتنمية الكتلة كمياً ونوعياً ، وتمثيلها للإسلام الحقيقي ومعالجتها لشؤون الحياة كافة ، ليواجهوا بها محاولات النظام المنحرف بتغذية الانجاهات الفقهية والكلامية المناهضة للتشيع مكونين بذلك وضماً طائفياً ، ببعض الفقهاء والمحدثين والمتكلمين وادعياء العلم الى ارضاء غرائز الحكام المنحرفين .

(١) بحث حول الولاية / السيد الشهيد الصدر.

وقد أعطى أئمة هذه المرحلة جهودهم لايراز الاطار التفصيلي للكتلة الشيعية لمواجهة انحراف العلماء والمدارس الفقهية المنحرفة، ومن خلال ظروف اجتماعية دقيقة بأروع ما يكون التخطيط.

### المرحلة الثالثة :

وهي مرحلة اتساع النشاط والممارسة السياسية والتوسع في بناء القواعد الشعبية وترشيد تحركها ضمن توجهات الخط الرسالي الثوري، وارسال الوكلاء وانتشارهم في العالم الاسلامي وتنضيج خطوط تحرك الخواص من أبناء الأمة.

فبعد انتهاء وتنجيز اهداف المرحلة الثانية، وذلك بتخطيط ائمتنا (ع) ببناء الكتلة الشيعية المرتبطة بهم، بتربية سلوكها، وحماية وجودها من الذوبان، وتنمية وعيها ورفض قواعدها وتوسيعها واعطائها اطارها ومعالمتها الفكرية والاجتماعية في ارجاء العالم الاسلامي، تلتها مرحلة عمل جديدة ابتدأها ثامن الأئمة الإمام علي بن موسى الرضا (ع) حيث أصبحت في مرحلة الكتلة الشيعية، وقواعدها الشعبية العريضة، بمستوى يقربها من تسلّم زمام الحكم، وممارسة العمل السياسي، حتى باتت تشكل خطراً داهماً على الحكام، وقد ارتفع رصيده مدرسة الامام علي (ع) في العالم الاسلامي، وتحددت فيها ملامح الكتلة الشيعية المجاهدة واطروحها المتمثلة بالإسلام الصحيح.

وقد اتسمت المرحلة الثالثة من حياة أهل البيت (ع) بازدياد السلاحم بين الإمام كقائد وقواعده التي شهدت الواناً من التكيل والقتل والتشريد والمؤمرات الماكرة التي خرج بها الحكام آنذاك، في محاولاتهم الدنيئة لعزل امام اهل البيت (ع) واحراجه أمام قواعده الشعبية، وبالتالي فضّ الناس عنه بكل الطرق الممكنة.

وقد جاءت مكاسب هذه المرحلة نتيجة لجهدين متوازيين، عاشها التخطيط عند أئمة المرحلة الأولى والثانية وذلك من خلال الصيغ والأشكال العملية المتعددة، نذكر منها التالي :

الأول: جهد التخطيط الفكري والتوعية العقائدية والتثقيف الرسالي التي



مارسها الأئمة (ع) ممارسة مباشرة من خلال اعمالهم وأنشطتهم (الواجهية) والتي اكتسبت الطابع العلني، (كالمدارس العلمية)، حيث أعطت الكتلة الشيعية معالمها وخصائصها الفكرية ونتاجها الروحي ومفاهيمها لكل جوانب الحياة، ولكي تتهيء منها ارضية صالحة لتسلم السلطة .

الثاني : خط تحريك الضمير السوري عند الأمة، وهو جهد سار موازياً للجهد الأول، وهو الجهد الذي استمد ثورته وانطلاقته من دم الحسين (ع) واستشهاده الفاجع والذي تكفل بتسلم زمام الثورة والمقابلة السياسية للأوضاع الحاكمة المنحرفة .

وباستمرار هذين الخططين المتوازيين في المرحلتين الاولى والثانية، أمكن لمدرسة الإمام علي (ع) وأطروحاته ان تتخذ، رصيذاً ضخماً وواسعاً يغطي كل ارجاء العالم الإسلامي ولا أدل على هذا من النواحي الكثيرة . الفكرية منها والروحية والاجتماعية التي كانت تخرج على الأمة الإسلامية في بداية المرحلة الثالثة في عصر الإمام الرضا (ع) والتي شهدت عدة ثورات وانتفاضات قام بها تلامذة من - مدرسة الإمام علي (ع) - وحملة اطروحاته، وقد ملؤا العالم الإسلامي من الكوفة والبصرة والمدينة ومكة حتى اليمن، رفعوا فيها شعارات مدرسة الإمام علي (ع) وحكموا مناطقها باسمه، وذلك بالرغم من ان من بغداد كانت تحت تبعية الخلافة العباسية إلا انها طوقت بهذه الحركات الثورية وهددت حكمهم .

ولكن الذي يجدر ذكره والتأكيد عليه، أن نمو هذه القواعد وتعاطفها مع قضية أئمة هذه المرحلة، لم تكن تعني تسلم زمام الحكم، بالرغم من كبل هذا النمو المتزايد والعريض في القواعد الشعبية للإمام (ع)، لأن حركة إمام أهل البيت (ع) لم تكن على مستوى تسلم زمام الحكم، لأن الحكم الذي يريده الإمام (ع) غير الحكم الذي يمتلك مثل هذه القواعد الشعبية، نشرح المسألة للقارىء بشكل اوضح ونقول، بأن هذه القواعد الشعبية العريضة الموجودة في العالم الإسلامي والموالية لأهل البيت (ع) كانت تهيء الإمام (ع) لأن يتسلم زمام الحكم على مستوى ما يتطلبه أو يريده أي طالب للحكم، أي انه (ع) بإمكانه ان يتسلم زمام الحكم على النحو الذي يتسلمه المنصور أو المأمون .



هذا اللون من الحكم ، كان بإمكان إمام أهل البيت ( ع ) الوصول إليه ، ح  
القواعد الضخمة التي تسنده . وتواليه لكن مثل هذه القواعد لم تكن تصلح قاعدة  
لحكم الإمام ( ع ) لأن ارتباطها به كان ارتباطاً فكرياً غامضاً وعماماً متمسماً بالحماس  
العاطفي ، هذه العاطفة الحاررية (المتراعبة) كانت في يومها هي القاعدة التي استند  
إليها بنو العباس وركبوا موجهاً للوصول إلى الحكم .

ولكن طبيعة هذه القواعد وأمثالها لا يمكن ان تمهد لحكم الإمام ( ع )  
وامتلاحه لزمارة السلطة السياسية ، ولهذا السبب رأينا أن أغلب الثورات التي وقعت في  
هذه المرحلة والتي عاشها المسلمون المخلصون لأطروحة الإمام علي ( ع ) كانت  
في كثير من الاحيان تتخبط في تناقضات داخلية حتى من قبل قواعدها الشعبية ، والتي  
كثيراً ما تصدعت وانشقت على نفسها ، وذلك بسبب بسيط ، هو ان القاعدة ليست  
واعية لأطروحتها وظروفها الموضوعية وعياً كاملاً ، بل كانت تأتي ثوراتهم عاطفية  
حارة ولم تكن واعية مستوعبة ، والعاطفة بطبيعتها - وكما هو معروف - لا تتج بناء  
حقيقياً للإسلام . ، وإنما البناء الحقيقي يقوم على اساس الوعي الكامل لاهداف  
الدولة الإسلامية ، والإيمان بواقع أهميتها التاريخية<sup>(١)</sup> .

وكانت معالجة اهداف هذه المرحلة من مهام ، الإمام علي بن موسى الرضا  
( ع ) والإمام محمد بن علي الجواد ( ع ) والإمام علي بن محمد الهادي ( ع ) .  
المرحلة الرابعة :

استمر توجه أئمة أهل البيت ( ع ) في مجال الاشراف على القواعد الشعبية  
وحماية وجودها ، وتنمية وعيها ، ومدتها بكل اساليب الصمود والارتفاع إلى مستوى  
الطليعة المؤمنة ومقابل هذا استمرت محاولات السلطة الغاشمة بعزل اطروحة الإمام

(١) هذه المرحلة لم تحدد بشكل يارز من قبل الأئمة (ع) انفسهم ، بل تحددت من خلال موقف الحكم  
المنحرف من الأئمة ، وذلك لأن الجماعة التي نشأت ونمت في ظل المرحلة الثانية والتي وضعت بذرتها  
في المرحلة الاولى ، هذه الجماعة انتشرت وغزت العالم الإسلامي وقتئذ ، وبدا لخلفاء بني العباس ،  
ان قيادة أهل البيت ( ع ) اصبحت على مستوى نسلم زمام الحكم ، والعودة بالمجتمع الإسلامي إلى  
حضرة الإسلام الحقيقي وهذا خلف بشكل رئيسي ردود الفعل للخلفاء تجاه الأئمة ( ع ) في اواخر ايام  
الإمام موسى بن جعفر ( ع ) .

وقيادته عن المسرح الاجتماعي والسياسي، ومحاسبتهم على كل بادرة نشاط أو تحرك، حتى ولو كانت وشاية نافهة أو خبر صغير عن نشاط إمام أهل البيت (ع)، وهذا التصاعد الحاقد في محاربة الإمام (ع) كان أحد الأسباب والدوافع الرئيسية المباشرة لحدوث الغيبة.

ولهذا رأينا الإمام الحسن بن علي العسكري (ع)، يسعى وهو يعيش جو الارهاب الشديد، إلى حجب الإمام المهدي (محمد بن الحسن (ع) عن اعين الناس، مع اظهارة لبعض خاصته فقط مع شن حملة توعية (لفكرة الغيبة)، وتوعية الناس بضرورة تحملهم لمسؤولياتهم الإسلامية تجاهها وتعويدهم على متطلباتها، وتهيئة ذهنياتهم لتقبل القيادة النائية، وهذا ما قام به الإمام المهدي (عج) بنفسه وذلك ضمن مرحلتين من الغيبة والاحتجاب، وهي ما تسمى بالغيبة الصغرى والغيبة الكبرى.

وفي زمن الغيبة الصغرى، تصدى الإمام المهدي (عج) بتعين وتحديد اسماء سفرائه ونوابه الأربعة لقيادة الأمة حيث تولوا الوكالة الخاصة عنه (عج) خلال غيبته الصغرى وقد اضطلعوا بمهمة قيادة قواعد الإمام المهدي (ع) من الناحية الفكرية والسلوكية طبقاً لتعليمات الإمام (ع) والتوسط بينه وبينها في إيصال التبليغات، واخراج التوقيعات وحل مشاكلها، وتذليل العقبات التي تصادفهم، وكانت مهمة غيبة الإمام واحتجابه ترمي إلى بناء الجهاز الخائب لتولي العمل القيادي عنه، والعمل على تصعيد واكتمال بناء الأمة الطليعي (الشيخي) لتأهيلهم لممارسة دورهم الرسالي في حماية الرسالة الإسلامية ونشرها في أرجاء العالم، والعمل على إعداد الأمة والأجيال التالية على غيبة الإمام (عج) الكبرى، وتعويدهم عن حالة الانتظار الايجابي، والتمهيد لظهوره من قبل شيعته بالعمل السياسي والجهادي.

### المرحلة الخامسة :

وهي مرحلة ظهور القائم (عج) الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت (ع) محمد بن الحسن، المهدي (ع) وقيام الدولة الإسلامية العالمية، «يملا الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً».

\*\*\*\*

## تمهيد

### خلافة النبي (ص) ومستقبل الدعوة: (\*)

بعد ان انتهينا من حديث المراحل ، نود أن نعالج مسألة هامة وحساسة ، وهو بمثابة مدخل ضروري لفهم الظروف والملازمات الاجتماعية والسياسية التي عاشها الإمام علي (ع) وأئمة أهل البيت من بعده وأعني بها مسألة خلافة النبي (ص) ومستقبل الدعوة وقيادتها .

ومن المعروف ان النبي (ص) لم يفاجئه الموت مفاجأة ، وكان يدرك منذ فترة قبل وفاته ان اجله قد دنا ، وقد اعلن ذلك بوضوح في حجة الوداع ، وهذا يعني انه كان يملك فرصة كافية للتفكير في مستقبل الدعوة بعده ، هذا إذا لم ندخل في الموقف (النصوص التشريعية) أو عامل الاتصال الغيبي والرعاية الالهية المباشرة للرسالة عن طريق الوحي . . . وخصوصاً ان النبي (ص) كان يدرك جيداً ، بأن الساحة الإسلامية سوف تتعرض لاكبر الاخطار إذا خلت من قائدها او تركت دون أي تخطيط ، فسوف تواجه الأمة ولاول مرة مسؤولية التصرف بدون قائدها تجاه اخطر مشاكل الدعوة ، وهي لا تمتلك أي مفهوم مسبق بهذا الصدد وسوف يتطلب منها الموقف تصرفاً سريعاً وآنيّاً ، لأن الفراغ السياسي لا يمكن ان يستمر وسوف يكون هذا التصرف السريع في

---

(\*) اعتمدنا في هذا البحث بصورة رئيسية ويتصرف ، ما جاء بكتاب بحث حول الولاية للسيد الشهيد الصدر .

لحظة الصدمة التي تمنى بها الأمة وهي تشعر بفقدائها لقائدها الكبير هذه الصدمة التي تزعزع بطبيعتها سير التفكير وتبعث على الاضطراب، حتى انها جعلت عمر بن الخطاب يعلن بفعل الصدمة، ان النبي لم يموت ولن يموت .

وكذلك هنالك الأخطار التي تنجم عن عدم النضج الرسالي، والاضطراب التي تنشأ من (المنافقين)، وإذا أضفنا إليهم عدداً كبيراً ممن أسلم بعد الفتح استسلاماً للأمر الواقع لا انفتاحاً على الحقيقة، نستطيع ان نقدر الخطر الذي يمكن لهذه العناصر أن تولده وهي تجد فجأة فرصة لنشاط واسع في فراغ كبير مع خلو الساحة من رعاية القائد .

فلم تكن إذن خطورة الموقف بعد وفاة النبي (ص) شيئاً خافياً على النبي . . . ولذا رأينا ان الرسول (ص) لما حضرته الوفاة وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال:

«أيتوني بالكف والدواة اكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً»<sup>(١)</sup> .

«وكان النبي (ص) يريد أن يضع حداً للخلاف في مسألة الخلافة من بعده ويعهد إلى المسلمين الا يتجاوزوا حدود هذا العهد، فاختلف في ذلك نفر من الصحابة بمحضر صاحب الرسالة، حتى نسبوا إليه الهجر، فادرك النبي (ص) حراحة الموقف، وشعر بأن الخلاف يكاد ان يعس اصل التشريع، ويجري المسلمون على التشكيك في نصوص الكتاب والسنة، فقطع الخلاف وقال بلهجة حاسمة «قوموا، لا ينبغي عند نبي نزاع»<sup>(٢)</sup> .

وما ان التحق النبي (ص) بالرفيق الأعلى، حتى ثار الخلاف بين المسلمين واشتد النزاع بينهم .

(١) مسند أحمد: ٣٠٠/١ وصحيح مسلم، وصحيح البخاري ج ١ كتاب الصلح . . . راجع بحث حول الولاية/ الشهيد الصدر، ص: ٢٤ .

(٢) ابن أبي الحديد، شرح النهج ج ٣، ص: ٩٧، راجع للتوسع كتاب الإمامة/ الاصفهاني ص ١٠ .

## اجتماع السقيفة :

«وحيثما تجمع أنصار السقيفة لتأمر سعد بن عبادة، وعلي بن أبي طالب وغيره من الصحابة بعيديهم لانشغالهم بجثمان النبي (ص) الذي لم يدفن بعد<sup>(١)</sup> قال منهم قائل :

«وإن ابنت مهاجرة قريش، فقالوا: نحن المهاجرون ونحن عشيرته وأولياؤه، قالت طائفة منهم، إذا نقول منا أمير ومنكم أمير لن نرضى بدون هذا ابداً، وحتى نودي على سعد بن عبادة: (أقتلوا سعداً، قتله الله انه منافق، صاحب فتنة)<sup>(٢)</sup>.

واخترط الزبير سيفه وهو يقول «والله لا اغمدته حتى يبايع علي» فيقول عمر: (عليكم بالكلب) فيؤخذ سيفه من يده أو يضرب به الحجر حتى يكسره<sup>(٣)</sup>.

وأخذ قيس بن سعد بلحية آخر قائلاً «والله لو خفضت منه شعره ما رجعت وفيك جارحة»<sup>(٤)</sup>.

وانقضى الحجاب بن المنذر سيفه على أبي بكر قائلاً:  
«والله لا يرد على أحد ما أقول إلا حطمت أنفه»<sup>(٥)</sup>.

وحيثما خطب أبو بكر فيهم قائلاً:  
«كنا معاشر المسلمين والمهاجرين اول الناس اسلاماً والناس لنا في ذلك تبع، ونحن عشيرة، رسول الله واوسط العرب انساباً».

(١) سيرة الرسول/ لابن هشام، ج ٢/ ١٠١٨.

(٢) الطبري، ج ٣ ص: ٢١٠.

(٣) الإمامة والسياسة، ج ١، ص: ١١.

(٤) الطبري/ ج، ص: ٢١٠.

(٥) مستد أحمد/ ج ١، ص: ٥٦.

واقترح الانتصار ان تكون الخلافة دورية بين المهاجرين والانصار رد أبو بكر  
قائلاً:

«إن رسول الله (ص) لما بعث عظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم  
فخالقوه وشاقوه وخص الله المهاجرين الأولين من قوم بتصديقه، فهم أول  
من عبد الله في الأرض، وهم أولياؤه وعترته وأحق الناس بالأمر بعده ولا  
ينازعهم فيه إلا ظالم».

وقد اندفع عمر بن الخطاب بأبي بكر وأعلن بيعته له وتبعه الآخرون، وحين بلغ  
الإمام علي بالنبا رفض البيعة<sup>(١)</sup> وأثر الإمام ان يعتزل اطراف الفتنة ولا يخوضها، حتى  
تهدأ الأحوال وتستقر الأمور.

وقد علق عمر بن الخطاب على نتائج اجتماع السقيفة وبيعة أبي بكر، بقوله  
«ان بيعة أبي بكر كانت فلتة، وقى الله شرها، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه».

«وكان الخلاف بادىء الأمر يدور حول مسائل تتعلق بشؤون الزعامة والمصالح  
الشخصية، أكثر مما تتعلق بشؤون الفكر والعقيدة، ولكن الخلاف اتسع فيما بعد  
واكتسى ثوباً عقائدياً» إذ لم يمض ربع قرن حتى بدأت الخلافة الراشدة والتجربة  
الإسلامية التي تولى جيل المهاجرين والانصار قيادتها تنهار تحت وقع الضربات  
الشديدة التي وجهها اعداء الإسلام القدامى، ولكن من داخل إطار التجربة الإسلامية  
لا من خارجها إذ استطاعوا ان يتسللوا إلى مراكز النفوذ في التجربة بالتدريج ويستغلوا  
القيادة غير الواعية ثم صادروا وبكل وقاحة وعنق تلك القيادة واجبروا الأمة وجيلها  
الطليعي الرائد على التنازل عن شخصيته وقيادته، وتحولت الزعامة إلى ملك موروث  
يستهر بالكرامات ويعطل الحدود ويجمد الاحكام واصبحت الخلافة كرة يتلاعب بها  
صبيان بني امية»<sup>(٣)</sup>.

(١) النزاع والتخاصم / للمفريزي ، ص : ٤٨ .

(٢) ابن أبي الحديد / ١١١/٨ .

(٣) بحث حول الولاية / الصدر .

«ولا بد من القول بأن النبي (ص) كان يتوقع حصول مثل هذا الخلاف بين المسلمين بعد وفاته، ولهذا فقد وضع النبي (ص) مخططاً تشريعياً وسياسياً واسعاً للمنع من وقوع أمثال ذلك، فوضع النبي (ص) مخططاً وقائياً وعلاجية للمنع عن الاختلاف قبل ان يحصل الخلاف، فمن المخطط الوقائية التي رسمها الإسلام توجيهات عامة كان يسديها القرآن الكريم والنبي (ص) في التحذير عن الاختلاف.

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء، فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ آل عمران: ٩٩.

واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا، فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾ الانفال: ٤٩.

وانسياقاً مع هذا الجانب وضع النبي (ص) قبيل وفاته خطة محكمة لمنع وقوع الاختلاف بين المسلمين، فقد قدر (ص) ان الخلاف سيقع بعد وفاته بشأن الخلافة، فحاول أن يقصي وجوه الأصحاب ساعة وفاته عن المدينة المنورة، خلا علي (ع) ليخلو جو المدينة من المعارضة التي يثيرها وجوه الأصحاب بعد وفاته، ويفرغ علي (ع) للأمر من دون معارض ولكن لم تقدر لهذه الخطة ان تنفذ، فتوفى النبي (ص)، ووجوه الاصحاب في المدينة ويضع الإسلام بعد ذلك مخططاً علاجية لمعالجة الخلاف وذلك بوضع موازين دستورية لمعرفة الجانب الحق من المسألة إذا التبس الأمر بغيره.

والميزان الأول لمعرفة الحق هو القرآن الكريم، وما تجاوزه فهو زخرف وباطل: ﴿هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ الأعراف: ٢٠٣.

ولكن القرآن الكريم ذاته فيه محكم ومتشابه، ومتشابه القرآن يتعرض عادة لاختلاف الاهواء، فيتعرض القرآن ذاته لمثل هذا الاختلاف والتضارب... فلا بد ان يشفع الكتاب الكريم بميزان تشريعي آخر يكمل مهمة الكتاب في علاج التضارب والخلاف الذي يحصل في الشؤون الدينية<sup>(١)</sup>... وإلى هذا المعنى تشير الأحاديث

(١) الإمامة في التشريع الإسلامي / الاصفى، ص: ١٢.



النبوية التي تربط بين الكتاب وأهل البيت (ع) مما اتفق المسلمون على صدوره عن النبي (ص) من ذلك قوله (ص):

واني اوشك ان ادعى فأجيب، واني تارك فيكم الثقلين كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، وان اللطيف الخبير اخبرني انهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما<sup>(١)</sup>.

وهذا هو الجانب العلاجي من الخطة الحكيمة التي وضعها النبي (ص) لمنع عن وقوع الخلاف بين المسلمين.

لماذا وقع الخلاف؟ وكيف نشأ الانقسام في الأمة؟\*

وإن من يتتبع المرحلة الأولى من حياة الأمة الإسلامية في عصر النبي (ص) يجد بأن اتجاهين رئيسيين مختلفين قد رافقا نشوء الأمة وبداية التجربة الإسلامية منذ السنوات الأولى وكانا يعيشان معاً داخل إطار الأمة الوليدة التي أنشأها الرسول القائد وقد أدى هذا الاختلاف بين الاتجاهين إلى انقسام عقائدي عقيم وفاة الرسول (ص) مباشرة شطر الأمة الإسلامية إلى شطرين قدّر لاحدهما ان يحكم، فاستطاع ان يمتد ويستوعب أكثرية المسلمين، بينما اقصي الشطر الأخر عن الحكم، وقدر له ان يمارس وجوده كأقلية معارضة ضمن الإطار الإسلامي العام، وكانت هذه الأقلية هي (الشيعة).

والاتجاهان الرئيسيان اللذان رافقا نشوء الأمة الإسلامية في حياة النبي (ص) منذ البدء هما:

أولاً: - الاتجاه الذي يؤمن بالتعبد بالدين وتحكيمه والتسليم المطلق للنص

(١) اخرجه الحاكم في مستدرکه على الصحيحين والترمذي، والنسائي، واحمد بن حنبل وغيرهم من الحفاظ، عن أكثر من عشرين صحابياً.

(\*) راجع بحث حول الولاية/ السيد الصدر، ص: ٧٣، حيث اعتمدنا، بتصريف على ما جاء في الكتاب المذكور.

الديني في كل جوانب الحياة .

ثانياً : - الاتجاه الذي لا يرى ان إيمانه بالدين يتطلب منه التعبد الا في نطاق خاص من العبادات والغيبيات ويؤمن بإمكانية الاجتهاد، وجواز التصرف على اساسه بالتغيير والتعديل في النص الديني وفقاً للمصالح في غير ذلك النطاق من مجالات لحياة .

وبالرغم من ذلك، من الضروري التسليم بوجود اتجاه واسع منذ كان النبي (ص) على قيد الحياة، يميل إلى تقديم الاجتهاد في تقدير المصلحة واستنتاجها من الظروف على التعبد بحرفية النص الديني، وقد تحمل الرسول المرارة في كثير من الحالات بسبب هذا الاتجاه حتى وهو على فراش الموت في ساعاته الأخيرة، كما ان هناك اتجاهاً آخر يؤمن بتحكيم الدين والتسليم له والتعبد بكل نصوصه في جميع جوانب الحياة .

وقد يكون من عوامل انتشار الاتجاه الثاني (الاجتهادي) في صفوف المسلمين انه يتفق مع ميل الانسان بطبيعته إلى التصرف وفقاً لمصلحة يدركها ويقدرها، بدلاً عن التصرف وفقاً لقرار لا يفهم مغزاه .

وقد قدر لهذا الاتجاه ممثلون جريئون من كبار الصحابة من قبيل عمر بن الخطاب الذي ناقش الرسول (ص) واجتهد في مواضع عديدة خلافاً للنص، إيماناً منه بأن له مثل هذا الحق .

وبهذا الصدد يمكن ان نلاحظ، موقفه من صلح «الحديبية» واحتجابه على هذا الصلح، وموقفه من الأذان وتصرفه فيه باسقاط «حي على خير العمل»، وموقفه من النبي (ص) حين شرع متعة الحج . . إلى غير ذلك من مواقفه الاجتهادية .

وقد انعكس كلا الاتجاهين في مجلس الرسول (ص) في آخر يوم من أيام حياته فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي عباس، قال: «لما حضر رسول الله (ص) الوفاة وفي البيت رجال، فيهم عمر بن الخطاب قال النبي: هلم اكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده، فقال عمر: ان النبي (ص) قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف اهل البيت فاختموا، منهم من يقول: قربوا يكتب لكم

النبي كتاباً لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي قال لهم قوموا: لا ينبغي عند نبي نزاع<sup>(١)</sup>.

وهذه الواقعة وحدها كافية للتدليل على عمق الاتجاهين ومسدى التناقض والصراع بينهما.

ويمكن ان نضيف إليها - لتصوير عمق الاتجاه ورسوخه - ما حصل من نزاع وخلاف بين الصحابة حول تأمير «اسامة بن زيد» على الجيش بالرغم من النص النبوي الصريح على ذلك، حتى خرج الرسول (ص) وهو مريض، وخطب الناس، وقال:

«يا أيها الناس ما مقالة بلغتني عن بعضكم من تأمير أسامة، ولئن طعتم في تأمير أبيه من قبل «وايم الله انه كان لخليقاً بالإمارة وان ابنه بعده لخليق بها»<sup>(٢)</sup>.

وهذان الاتجاهان اللذان ، بدأ الصراع بينهما في حياة النبي (ص) قد انعكسا على موقف المسلمين من أطروحة زعامة الإمام للدعوة بعد النبي (ص).

فالممثلون للاتجاه التعبدي وجدوا في النص النبوي على هذه الأطروحة سبباً ملزماً لقبولها دون توقف او تعديل واما الاتجاه الثاني فقد رأى انه بإمكانه ان يتحرر على الصيغة المطروحة من قبل النبي (ص)، إذا أدى اجتهاده إلى صيغة أخرى أكثر انسجاماً في تصوره مع الظروف.

وهكذا نرى ان الشيعة ولدوا منذ وفاة الرسول (ص) مباشرة ، متمثلين في المسلمين الذين خضعوا عملياً لأطروحة زعامة الإمام علي (ع) وقيادته التي فرض النبي (ص) الابتداء بتنفيذها من حين وفاته مباشرة.

(١) أخرجه البخاري/ باب مرض النبي (ص) مجلد ٣، وروى هذه الرواية ابن سعد في طبقاته، والطبري بتاريخه، وابن كثير في بدايته، ومسلم في صحيحه.  
 (٢) انظر سيرة ابن هشام، وشرح النهج المجلد الثالث، ص: ١٧٢.

وقد تجسّد الاتجاه الشيعي منذ اللحظة الأولى في إنكار ما اتجهت إليه السقيفة من تجميد لاطروحة زعامة الإمام علي (ع) وامناد السلطة إلى غيره<sup>(\*)</sup>.

وقد تقول: إذا كان الاتجاه الشيعي يمثل التعبد بالنص والاتجاه الآخر المقابل له يمثل الاجتهاد، فهذا يعني ان الشيعة يرفضون الاجتهاد، ولا يسمحون لأنفسهم له، مع انا نجد ان الشيعة يمارسون عملية الاجتهاد في الشريعة دائماً.

والجواب: ان الاجتهاد الذي يمارسه الشيعة ويرونه جائزاً بل واجباً وجوباً كفاثياً، هو الاجتهاد في استنباط الحكم من النص الشرعي، لا الاجتهاد في رفض النص الشرعي لرأي يراه المجتهد أو لمصلحة يخمنها، فإن هذا جائز، والاتجاه الشيعي يرفض أي ممارسة للاجتهاد بهذا المعنى ونحن حينما نتحدث عن قيام اتجاهين منذ صدر الإسلام:

احدهما: اتجاه التعبد بالنص، والآخر: اتجاه الاجتهاد. نعني بالاجتهاد الاجتهاد في رفض النص أو قبوله.

وقيام هذين الاتجاهين شيء طبيعي في ظل كل رسالة تغييرية شاملة تحاول تغيير الفاسد من الجذور، فأنها تتخذ درجات مختلفة من التأثير حسب حجم الرواسب المسبقة ومدى انصهار الفرد بقيم الرسالة الجديدة، ودرجة ولائه لها.

وهكذا نعرف ان الاتجاه الذي يمثل التعبد بالنص يمثل الدرجة العليا من الانصهار بالرسالة والتسليم الكامل لها وهو لا يرفض الاجتهاد ضمن إطار النص وبذلك الجهد في استخراج الحكم الشرعي منه.

هذه هي الخطوط العامة عن تفسير ظاهرة التشيع بوصفه ظاهرة طبيعية في إطار

(\*) ذكر الطبرسي في الاحتجاج عن ابان بن تغلب قال: قلت لجعفر بن محمد الصادق: جملت فذاك هل كان أحد في اصحاب رسول الله انكر على أبي بكر فعله؟ قال: نعم كان الذي انكر عليه اثني عشر رجلاً من المهاجرين: خالد بن سعيد بن أبي المعاص، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الفاري، والمقداد بن الاسود وعمار بن ياسر، وزيعة الاسلمي. ومن الانصار: أبو الهيثم التيهان، وعثمان بن حنيف، وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وأبي بن كعب، وأبو أيوب الانصاري.

الدعوة الإسلامية، وتفسير ظهور الشيعة كاستجابة لتلك الظاهرة الطبيعية .

وإمامة أهل البيت، والإمام علي (ع)، التي تمثلها تلك الظاهرة الطبيعية تعبر  
عن مرجعيتين :

أحدهما: المرجعية الفكرية .

والأخرى: المرجعية في العمل القيادي والاجتماعي .

وكلتا المرجعيتين كانتا تتمثلان في شخص النبي (ص) . وكان لا بد - على ضوء  
مادرسنا من ظروف - ان يصمم الرسول الاعظم (ص) الامتداد الصالح له لتحمل  
كلتا المرجعيتين، لكي تقوم المرجعية الفكرية بملأ الفراغات التي قد تواجهها ذهنية  
المسلمين وتقديم المفهوم المناسب، ووجهة النظر الاسلامية فيما يستجد من قضايا  
الفكر والحياة وتفسير ما يشكل ويغمض من معطيات الكتاب الكريم الذي  
يشكل الصدر الأول للمرجعية الفكرية في الإسلام، ولكي تقوم المرجعية القيادية  
الاجتماعية بمواصلة المسيرة وقيادة التجربة الإسلامية في خطها الاجتماعي .

وقد جمعت كلتا المرجعيتين لأهل البيت (ع) بحكم الظروف التي درسناها،  
وجاءت النصوص النبوية الشريفة تؤكد ذلك باستمرار، ومن الاحاديث التي تؤكد على  
المرجعية الفكرية، حديث الثقلين إذ قال رسول الله :

«إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله . . . وعترتي أهل بيتي . . . إنهما لن  
يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»<sup>(١)</sup>.

والمثال الآخر على المرجعية في العمل القيادي الاجتماعي، حديث الغدير،  
حيث خطب الرسول (ص) بغدير خم فقال :

«أيها الناس يوشك ان ادعي فأجيب، واني مسؤول وإنكم مسؤولون،  
فماذا انتم قائلون؟ قالوا نشهد انك قد بلغت وجاهدت ونصحت فجزاك  
الله خيراً . فقال: اليس تشهدون ان لا إله إلا الله وان محمداً عبده

(١) انظر الحاكم في مستدركه على الصحيحين الترمذي والنسائي، واحمد بن حنبل .

ورسوله، وان جتته حق، وان ناره حق وان الموت حق، وان البعث حق  
بعد الموت، وان الساعة آتية لا ريب فيها. وان الله يبعث من في القبور؟  
فقالوا بلى نشهد بذلك. قال: اللهم اشهد، ثم قال: يا أيها الناس ان الله  
مولاي وانا مولى المؤمنين وانا اولى بهم من انفسهم فمن كنت مولاه فهذا  
مولاه - يعني علياً - اللهم وآل من والاه وعاد من عاداه<sup>(١)</sup>.

وهكذا جسد هذان النصان النبويان الشريفان في عدد كبير من امثالهما كلتا  
المرجعيتين في أهل البيت (ع)، وقد اتخذ الاتجاه الإسلامي القائم على التعبد  
بنصوص النبي (ص) بكلا النصين، وآمن بكلتا المرجعيتين، وهو اتجاه المسلمين  
الموالين لأهل البيت، ولئن كانت المرجعية القيادية الاجتماعية لكل إمام تعني  
ممارسته للسلطة خلال حياته، فإن المرجعية الفكرية حقيقة ثابتة مطلقة لا تتقيد بزمان  
حياة الإمام، ومن هنا كان لها مدلولها العملي الحي في كل وقت فما دام المسلمون  
بحاجة إلى فهم محدد للإسلام وتعرف على أحكامه وحلاله وحرامه ومفاهيمه وقيمه  
فهم بحاجة إلى المرجعية الفكرية المحددة ربانياً المتمثلة، أولاً: في كتاب الله  
تعالى. وثانياً: في سنة رسوله (ص) والعترة المعصومة من أهل البيت التي لا تفترق  
عن الكتاب كما نص الرسول الاعظم.

وأما الاتجاه الآخر في المسلمين الذي قام على الاجتهاد بدلاً عن التعبد بالنص  
فقد قرر في البدء عند وفاة الرسول (ص) تسليم المرجعية القيادية التي تمارس السلطة  
إلى رجالات من المهاجرين وفقاً لاعتبارات متغيرة ومتحركة ومرنة. وعلى هذا  
الاساس تسلم أبو بكر السلطة بعد وفاة النبي مباشرة على أساس ما تم من مشاور  
محدود في مجلس السقيفة، ثم تولى الخلافة عمر بنص محدّد من أبي بكر، وخلفهما  
عثمان بنص غير محدّد من عمر، وأدت المرونة بعد ثلث قرن من وفاة الرسول القائد  
إلى تسلل ابناء الطلقاء الذين حاربوا الإسلام بالأمس إلى مراكز السلطة.

هذا فيما يتصل بالمرجعية التي تمارس السلطة، وأما بالنسبة إلى المرجعية

(١) حديث الغدير حديث مستفيض في كتب الحديث عند الشيعة والسنة معاً. رواه اكثر من مائة صحابي  
واكثر من ثمانين تابعياً ومن حفاظ القرن الثاني قرابة ستين شخصاً.



الفكرية فقد كان من الصعب اقرارها في أهل البيت، بعد ان أدى الاجتهاد انتزاع المرجعية القيادية منهم، لأن اقرارها كان يعني خلق ظروف الموضوعية التي تمكنهم من تسلم السلطة والجمع بين المرجعيتين، كما انه كان من الصعب أيضاً من الناحية الأخرى الاعتراف بالمرجعية الفكرية لشخص الخليفة الذي يمارس السلطة، لأن متطلبات المرجعية الفكرية تختلف عن متطلبات ممارسة السلطة فالاحساس بجدارة الشخص لممارسة السلطة والتطبيق لا يعني بحال الشعور بإمكانية نصبه إماماً فكرياً ومرجعاً أعلى بعد القرآن والسنة النبوية لفهم النظرية، لأن هذه الإمامة الفكرية تتطلب درجة عالية من الثقافة، والاحاطة واستيعاب النظرية، وكان من الواضح ان هذا لم يكن متوفراً في أي صحابي بمفرده - إذا قطع النظر عن أهل البيت -.

ولهذا ظل ميزان المرجعية الفكرية يتأرجح فترة من الزمن، وظل الخلفاء في كثير من الحالات يتعاملون مع الإمام علي على اساس قريب من ذلك، حتى قال عمر مرات عديدة: ولولا علي لهلك عمر، ولا ابقاني الله لمعضلة ليس لها أبو حسن<sup>(١)</sup>.

ولكن بمرور الزمن بعد وفاة النبي (ص) وتعود المسلمين تدريجاً على النظر إلى أهل البيت والإمام علي بوصفهم اشخاصاً اعتياديين ومحكومين أمكن الاستغناء عن مرجعيتهم الفكرية أساساً وإسنادها إلى بديل معقول، وهذا البديل ليس هو شخص الخليفة بل الصحابة، وهكذا وضع بالتدريج مبدأ مرجعية الصحابة ككل بدلاً عن مرجعية أهل البيت (ع) وهو بديل يستسيغه النظر بعد تجاوز المرجعية المنصوصة، لأن هؤلاء هم الجيل الذي رافق النبي (ص) وعاش حياته وتجربته ووفى حديثه وسنته.

وبهذا فقد أهل البيت عملياً امتيازهم الرياني وأصبحوا يشكلون جزءاً من المرجعية الفكرية بوصفهم صحابة، وبحكم ما قدر ان عاشه الصحابة انفسهم من اختلافات حادة وتناقضات شديدة بلغت في كثير من الاحيان إلى مستوى القتال، وهدر كل فريق دم الفريق الآخر وكرامته واتهامه بالانحراف والخيانة، أقول بحكم

(٢): راجع كتاب بحث حول الولاية/ للسيد الشهيد الصدر. ص: ٧٣ - ٨٩



هذه الاختلافات والانتهاكات بين صفوف الإمامة الفكرية والمرجعية العقائدية نفسها، نشأت ألوان من التناقض العقائدي والفكري في جسم الأمة الإسلامية كأنعكاسات لا وجه التناقض في داخل تلك الإمامة الفكرية التي قررها الاجتهاد<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

### تعريف بشخصية الإمام:

نسبه:

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هشام بن عبد مناف .  
أبوه (أبو طالب) هو أخو عبد الله أبي النبي (ص) لأمه وأبيه، وأبو طالب هو الذي كفل رسول الله صغيراً، وقام بنصره ومنعه من أذى المشركين، وكان أبو طالب مسلماً لا يجاهر بإسلامه ولو جاهر لم يمكنه ما أمكنه من نصر رسول الله (ص).

أمه: فاطمة بنت اسد بن هاشم، وكانت لرسول الله (ص) بمنزلة الأم، وكان يسميها أمي .

مولده ووفاته: ولد يوم الجمعة ١٣ رجب بعد عام الفيل بثلاثين سنة وقبل بعثة النبي (ص) بأثني عشرة سنة، ويمكن تقدير تاريخ مولده بين ٦٠٠ أو ٦٠٤ ميلادية وكانت ولادته بمكة في الكعبة المشرفة، وهو أول مولود ولد في الكعبة. (٢).

ولقد اغتيل الإمام (ع) وهو في أفضل ساعة عبادته، حيث يقوم بين يدي الله، حيث امتدت إليه يد الأثيم (ابن ملجم المرادي) فضرب الإمام (ع) بسيف وهو في سجوده عند صلاة الفجر وفي مسجد الكوفة، وذلك في صبيحة اليوم التاسع عشر من شهر رمضان المبارك عام ٤٠ هـ.

(١) راجع كتاب بحث حول الولاية/ للسيد الشهيد الصدر. ص: ٧٣ - ٨٩.

(٢) راجع دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، حسن الأمين، ص: ٦٨ المجلد الأول، وكذلك كشفة الغمة ج ١، والغدير/ الأمين ج ٦، ص: ٢٢ - ٢٨.

## مكاته من خلال الكتاب والسنة :

١ - الكتاب :

﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾

الأحزاب : ٣٣

ذكر المفسرون والرواة في سبب نزولها، أنها نزلت في رسول الله (ص) وعلي وفاطمة والحسن والحسين (ع)، ولما نزلت الآية قالت أم سلمة زوجة الرسول (ص) : هل أنا من أهل البيت؟ وقال : لا ولكنك على خير<sup>(١)</sup>.

﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً. ولا شكوراً أنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة ومرور﴾ سورة الدهر : ٧ - ١١ .

ولقد اجمع المفسرون بأنها نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين (ع) . وكان ذلك عندما مرض الحسنان، فنذر علي (ع) وفاطمة وفضة ان شفي الحسنان، فإن علياً والزهراء يصومون لله تعالى ثلاثة أيام، وبعد شفاء الحسينين صام أهل البيت (ع) وعند غروب شمس اليوم الأول طرق الباب عليهم مسكين يشكو جوعه، فأعطوه ما عندهم من خبز الشعير وفي اليوم الثاني استطعمهم يتيم فأطعموه .

وفي ثالث أيام النذر سألهم أسير، فقدموا له طعامهم وهكذا بقي أهل البيت (ع) ثلاثة أيام لم يذوقوا فيها غير الماء وأنزل الله هذه الآيات الكريمة اعظماً لشأنهم وأكباراً لعملهم ليكونوا القدوة والمثال<sup>(٢)</sup>.

(١) راجع صحيح مسلم ، في كتاب فضائل الصحابة ، والحاكم في مستدرک الصحيحين ج٣ ص : ١٤٧ والبيهقي في سننه ج٢ ص : ١٤٩ ، والسيوطي في الدر المنثور في تفسير الآية ، وصحيح الترمذي ج٢ ص : ٢٠٩ وابن حجر في تهذيب التهذيب ج٢ ص : ٢٩٧ وغيرهم نقلاً عن فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج١ ص : ٢٢٤ وما بعدها .

(٢) الزمخشري / الكشف ج٢ ، ومجمع البيان / الطبرسي في تفسيره سورة الدهر وابن عبد ربه في العقد المفرد ج٣ ص : ٤٢ - ٤٧ ، والحاكم النيسابوري في الكفاية ، وأبي إسحاق الثعلبي في تفسيره «الكشف والبيان» والالوسي في روح المعاني ، والطبري في الرياض ج٢ ص : ٢٠٧ ، نقلاً عن الغدير / الأميني ج٣ ص : ١٠٧ - ١١١ .

«فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم، فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين» .

اجمع أهل التفسير بأنها نزلت، حين خرج رسول الله (ص) بعلي وفاطمة والحسن والحسين (ع) لمباهلة نصارى نجران، فلما رآه النصارى قد خرج بأهل بيته خافوا العاقبة واعتذروا عن مباهلتهم، فدفعوا الجزية خصوصاً منهم لسلطان دولة الرسول (ص) (١).

﴿إِنَّمَا وَلِيكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ المائدة: ٥٥ .

ذكر المفسرون ان الآية نزلت في علي (ع) وحينما تصدق (ع) على مسكين بخاتمه اثناء ركوعه، وهي آية تؤكد إمامة الإمام، وضرورة الالتزام به مرجعاً فكرياً وسياسياً للأمة (٢).

٢ - في السنة الشريفة :

عن البراء بن عازب قال: «أقبلنا مع رسول الله (ص) في السنة التي حج، فنزل في بعض الطريق، فأمر: الصلاة جامعة، فأخذ بيد علي فقال: «أأنت أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» .

قالوا: بلى .

قال (ص): «أأنت أولى بكل مؤمن من نفسه؟»

(١) صحيح الترمذي ج ٢ ص: ٣٠٠ واحمد بن حنبل في المسند ج ١ ، ص: ١٨٥ والسيوطي في الدر المنثور، والزمخشري، في كشافه ، والفخر الرازي في تفسيره الكبير وغيرهم نقلوا عن فضائل الخمسة من الصحاح الستة، ص: ٢٤٤ وما بعدها.

(٢) راجع تفسير البيضاوي ومجمع البيان للطبرسي، وأبو إسحاق الثعلبي في تفسيره، والطبري في تفسيره ج ٦، ص: ١٦٥، والواحدي في أسباب النزول، ص: ١٤٨ والخازن في تفسيره ج ١، ص: ٤٩٦، والرازي في تفسيره ج ٣، ص: ٤٣١ والنيسابوري في تفسيره ج ٣، ص: ٤٦١ وابن حجر في الصواعق ص: ٢٥ وغيرها نقلوا عن أعيان الشيعة ج ٢، ص: ١٣٠ - ١٣٤ وخلفاء الرسول الاثناعشر، ص: ١٠٣ وما بعدها.

قالوا: بلى .

قال (ص): «فهذا ولي من انا مولاه، اللهم وال من والاه، اللهم عاد من عاده»  
ورواها أحمد بن حنبل «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وآل من والاه وعاد من  
عاداه»<sup>(١)</sup>

وقال (ص): «علي مع الحق والحق مع علي لن يفترقا حتى يردا علي  
الحوض»<sup>(٢)</sup>.

وقال (ص): لكل نبي وصي وأن علياً وصي ووارثي<sup>(٣)</sup>.  
وفي حديث لرسول الله (ص) يخاطب به عمار بن ياسر (ره) جاء فيه: «إن  
سلك الناس كلهم وادياً فأسلك وادياً سلكه علي وخل الناس طراه»<sup>(٤)</sup>.

### الإمام وموقفه من الخلفاء

وما أن فاضت نفس رسول الله (ص)، واشتغل الإمام وأهل البيت (ع)  
بتجهيزه وتشيعه إلى مشواه الأخير، حتى بادر الانصار وبعض المهاجرين إلى اجتماع  
في سقيفة سعد بن عبيدة لتنصيب من يخلف النبي (ص) في قيادة المسلمين .

وبعد مناقشات ، وصراع سادته جو من التوتر والقلق والتهديد باستعمال العنف ،  
بادر عمر بن الخطاب إلى بيعة أبي بكر بالخلافة<sup>(٥)</sup>، والإمام علي (ع) بعيد عنهم  
مشغول بتجهيز فقيد الأمة العظيم رسول الله (ص) . إذ ظل (ص) جثمانه الطاهر ثلاثة

(١) مسند ابن حنبل ج ٤ ، ص : ٢٨١ ، صحيح ابن ماجه ، ص : ١٢ ، الترمذي والطبري وكنز العمال ج ١ ،  
ص : ٤٨ ، ومستدرک الصحيحين وسواهم ، نقلاً عن كتاب الغدير / للأميني ج ١ .  
(٢) تاريخ البغدادي ج ١٤ ، ص : ٣٢١ والهيثمي في مجمع ج ٧ ، ص : ٢٣٥ وكنز العمال ج ٦ ، ص : ١٥٧  
وتفسير الرازي ج ١ ، ص : ١١١ نقلاً عن علي والوصية ، ص : ١١٣ .  
(٣) أحمد بن حنبل ، وكنز العمال ج ٦ ، ص : ١٥٤ ، والمعجم الكبير للطبراني نقلاً عن علي والوصية /  
للعسكري ، ص : ١٩٤ .  
(٤) تاريخ الخطيب البغدادي ج ١٣ ، ص : ١٨٦ والهيثمي في مجمع ج ٧ ، ص : ٢٣٦ وكنز العمال ج ٦ ،  
ص : ١٥٥ .  
(٥) راجع صحيح البخاري ج ٤ ، ص : ١٩٤ / والسقيفة / للمظفر .

أيام<sup>(١)</sup> دون دفن ليتسنى للمسلمين توديعه والصلاة عليه .

ولعدم قناعة الإمام ( ع ) بما جرى ظل مؤمناً بحقه في الخلافة، واعتزل الوسط الاجتماعي، وما هم فيه ستة شهور، ولم يسمع له صوت في ما يسمى بحروب الردة ولا سواها<sup>(٢)</sup>.

ولقد تعامل الإمام ( ع ) مع الخلافة، حسب ما تحكم به المصلحة الإسلامية حفظاً وصوناً للوحدة الإسلامية من التمزق والضياع، وتحقيقاً للمصالح العليا الإسلامية التي جاهد من أجلها.

ولالإمام ( ع ) تعليق بهذا الصدد يقول:

«فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد (ص) فخشيت أن لم انصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولا يتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل، يزول منها ما كان، كما يزول السراب أو كما يتفشع السحاب فنهضت في تلك الاحداث حتى زاح الباطل وزهق واطمأن الدين وتنهته»<sup>(٣)</sup>.

لقد رفض الإمام ( ع ) - بعد السقيفة - أن يستجيب لدعوة أبي سفيان التي أزره فيها العباس بن عبد المطلب ودعاه فيها أن يعارض النتيجة التي أسفر عنها اجتماع السقيفة وقال: «سلامة الدين أحب إلينا»<sup>(٤)</sup>، كما أنه أعلن قبوله للنتيجة التي أسفرت عنها الشورى وإن كان قد سجل عدم رضاه عنها، فقال: «لأسلمن ما سلمت امور المسلمين، ولم يكن فيها جور الا عليّ خاصة»<sup>(٥)</sup>.

(١) تاريخ ابن كثير ج ٥ ص: ٢٧١ وتاريخ أبي الفدا ج ١، ص: ١٥٢ نقلاً عن الخديج ج ٧، ص: ٧٥.

(٢) السقيفة / المظفر، ص: ١٦٠.

(٣) نهج البلاغة / تويب، د. صبحي الصالح، ص: ٤٥١.

(٤) نهج البلاغة، بيروت.

(٥) نهج البلاغة، ٥١/١.

وبعد ان صوت علي ( ع ) كان يعلو عندما يستشار ويجهر عندما يستفتي ، وقد تصدى - في هذا المضمار - لتوجيه الحياة الإسلامية ، وفقاً لما تقتضيه رسالة الله تعالى في الحقول التشريعية والتنفيذية والقضائية .

ومن أجل ذلك فإن الباحث التاريخي في حياة الإمام ( ع ) لا يلبث إلا ان يلتقي مع مئات المواقف والاحداث، في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، التي لا تجد غير الإمام ( ع ) مدبراً لها ومعالجاً وقاضياً بأمر الشريعة فيها .

والخلفاء الثلاثة لم يروا بدأ من استشارته . إذا التبت عليهم الأمور، وهكذا تجده - مرة - مرشداً إلى الحكم الإسلامي الصحيح في امر ما ومرة تجده قاضياً في شأن من شؤون الأمة، وأخرى موجهاً للحاكم الوجهة التي تحقق المصلحة الإسلامية العليا<sup>(١)</sup> .

ولقد نبه الخليفة عمر بن الخطاب مشيداً بفضل علي ( ع ) ومنها بأهميته في مسيرة الخلافة بقوله : «اعوذ بالله ان اعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن»<sup>(٢)</sup> .

### شخصيته وأخلاقه الاجتماعية :

لقد عبرت الكثير من النصوص عن شخصية الإمام ومكانته في دنيا الاسلام : فهو المطهر من الرجس ، وهارون الأمة ، وكفه ككف النبي (ص) في العدل، وهو رفيق الحق لا يتفك أحدهما من الآخر، وهو باب العلم الإلهي ، وفاروق الأمة وو . الخ .

عبادته :

لكثرة تعاهده لأمر الصلاة والتضرع إلى الله تعالى يروي عروة بن الزبير في حديث له عن أبي الدرداء :

(١) راجع للاستفادة أمير المؤمنين / علي بن أبي طالب / لجنة التأليف في دار التوحيد ج ١ ، ص : ٥٧ - ٥٨ .  
(٢) الدر المشهور / السيوطي ج ٣ ، ص : ١٤٤ ، وسيرة عمر لابن الجوزي ، صفحة ١٠٦ والفنوحات الإسلامية لدهلان ج-٢ ، ص : ٤٨٦ نقلاً عن القدير ج ٦ وح ٧ .

قال: «شهدت علي بن أبي طالب . . وقد اعتزل عن مواليه، واختفى ممن يليه . . وبعد عن مكانه، فقلت الحق بمنزله، فإذا أنا بصوت حزين ونغم شجي، وهو يقول: «إلهي كم من موبقة حلمت عن مقابلتها بنقمتك، وكم من جريرة تكرمت عن كشفها بكرمك، إلهي ان طال في عصيانك عمري، وعظم في الصحف ذنبي، فما أنا مؤمل غير غفرانك، ولا أنا براج غير رضوانك».

فشغلني الصوت، واقتفيت الأثر، فإذا علي بن أبي طالب (ع) بعينه، فاستترت له وأخملت الحركة، فركع ركعات في جوف الليل الغامر، ثم فرغ من الدعاء والبكاء والبث والشكوى فكان مما ناجى به الله تعالى، أن قال: «إلهي أفكر في عفوك، فتَهون عليّ خطيئتي، ثم اذكر العظيم من أخذك فتعظم عليّ بليتي».

ثم قال: «آه إن أنا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها وانت محصيتها، فتقول: خذوه فيا له من مأخوذ لا تنجيه عشيرته، ولا تنفعه قبيلته، ولا يرحمه الملائكة إذا أذن فيه بالنداء».

ثم قال: «آه من نار تنضج الأكباد والكلبي، آه من نار نزاعة للشوى، آه من لهبات لظى».

قال أبو الدرداء: ثم أمعن في البكاء. فلم اسمع له حساً، ولا حركة . . فأتيته فإذا هو كالخشب الملقاة فحركته، فلم يتحرك، وزويته فلم ينزرو.

ثم أتوه بماء فنضحوه على وجهه، فافاق، ونظر إليّ وأنا أبكي فقال: مما بكأوك يا أبا الدرداء؟

فقلت: مما أراه تنزله بنفسك.

فقال: يا أبا الدرداء، فكيف لو رأيتني، ودعي بي إلى الحساب، وأيقن أهل الجرائم بالعذاب، واحتوشنتني ملائكة غلاظ وزبانية فظاظ، فوقفت بين يدي الملك الجبار، قد أسلمني الأحباء ورفضني أهل الدنيا، لكنك أشد رحمة لي بين يدي من لا تخفى عليه خافية».



فقال أبو الدرداء: وفوالله ما رأيت ذلك لأحد من أصحاب رسول الله (ص) (١)  
وحول التزامه بقيام صلاة الليل طول عمره الشريف، يروي لنا أبو يعلى - في المسند -  
عنه (ع) قال: «ما تركت صلاة الليل منذ سمعت قول النبي (ص): صلاة الليل  
نور» (٢).

وكان يقول (ع) موضحاً علاقته بالله تعالى:  
«إلهي ما عبدتك خوفاً من عقابك، ولا طمعاً في ثوابك ولكن وجدتك أهلاً  
للعبادة فعبدتك» (٣).

وهكذا كان علي (ع) في شدة تعلقه بالله، وعظيم تمسكه بمنهج الأنبياء  
(ع). انه ترجمة صادقة لعبادة محمد (ص) وزهد المسيح (ع).  
زهد:

كان (ع) أشبه الناس طعمة برسول الله (ص) يأكل الخبز والنخل والزيت  
ويطعم الناس الخبز واللحم» (٤).

وعن سفيان الثوري عن عمرو بن قيس قال: «رؤى على علي (ع) أزار مرقوع  
فعبت في ذلك؟

فقال: يخشع له القلب ويقتدي به المؤمن» (٥).  
وعن الغزالي يقول: «كان علي (ع) يمتنع من بيت المال حتى يبيع سيفه، ولا  
يكون له الا قميص واحد في وقت الغسل ولا يجد غيره» (٦).

ويقول الإمام (ع): «على أئمة الحق أن يتأسوا بأضعف رعيتهم في الأكل

(١) بحار الأنوار، ج ٤١، ص: ١١ - ١٢.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤١، ص: ١٧.

(٣) نفس المصنوع، ص: ١٤، وتذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي، ص: ١٤٤.

(٤) نفس المصنوع، ج ٤٠، ص: ٣٣٠.

(٥) تذكرة الخواص، ص: ١٢٠.

(٦) مناقب ابن شهر آشوب، ج ١، ص: ٣٦٦ عن الأحياء للغزالي.

واللباس ولا يتميزون عليهم بشيء لا يقدرون عليه ليراهم الفقير فيرضى عن الله تعالى بما هو فيه ويراهم الغني فيزداد شكراً وتواضعاً<sup>(١)</sup>.

### أخلاقه :

دخل ضرار على معاوية - أيام استئذان الناس وأسلموا لمعاوية القيادة - فالح على الرجل أن يصف له علياً فتردد ضرار كثيراً، فلما مضى معاوية في اصراره قال ضرار:

أما إذا لا بد «فكان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته.

كان والله عزيز الدمعة، يقلب كفه ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشِب.

كان والله كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، ويتدثنا إذا أتيناه ويأتينا إذا دعونا. . ونحن والله مع قربه منا، ودنوه إلينا لا نكلمه هية له ولا نبتديه لعظمته فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم. يعظم أهل الدين ويحب المساكين، لا يطمع القوى في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله<sup>(٢)</sup> وكان (ع) يوصي الناس بأخلاق الإسلام بقوله:

«سح الناس بوجهك ومجلسك وحكمك وإيالك والغضب فإنه طيرة من الشيطان، وأعلم أن ما يقربك من الله يباعدك من النار، وما يبعدك من الله يقربك من النار»<sup>(٣)</sup>.

### تواضعه :

(١) تذكرة الخواص، ص: ١١٨ .

(٢) تذكرة الخواص، ص: ١٢٧ - ١٢٨ .

(٣) نهج البلاغة .

فمن الصادق (ع) يقول: «كان علي (ع) يحطب ويكنس، وكانت فاطمة تطحن وتمعجن وتخبز»<sup>(١)</sup>.

ومن تواضعه (ع) انه خرج يوماً على أصحابه، وهو راكب فمشوا خلفه، فالتفت اليهم فقال: ألكم حاجة؟ قالوا: لا يا أمير المؤمنين، ولكننا نحب أن نمشي معك. فقال لهم: انصرفوا فإن مشي الماشي مع الراكب مفسدة للراكب ومذلة للماشي»<sup>(٢)</sup>.

ومن تواضعه الجرم أكله خبز الشعير واللبن، ولبسه أبسط أنواع اللباس، وترقيعه لثوبه البالي، وبساطته في مسكنه، ووقوفه بين يدي القاضي مع رجل من عامة الشعب الذي يضطلع الامام (ع) بقيادته<sup>(٣)</sup>.

وكان الإمام (ع) سهلاً قريباً متواضعاً، يلقي أبعاد الناس وأقربهم بلا تصنع ولا تكلف ولم يحط نفسه بالألقاب ولا بأبهة الملك بل كان يتعامل مع الأمة كفردها منها، يعيش مشاكل الضعفاء ويتودد للفقراء ويعظم أهل التقوى من الناس.

ومن تواضعه (ع) مقابلته لمن يلقاه من البشر وطلاقة المحيا والابتسامة الحلوة وبشر الوجه، الغاء منه للحواجز والرسميات بين القيادة والأمة، وانتهاء لدور الزخرف والألقاب التي تحيط بها الامراء والقادة انفسهم عبر تعاملهم مع الناس»<sup>(٤)</sup>.

حلمه:

ولقد اشتهر (ع) بحلمه وعفوه عن من يسيء الأدب معه، فهو لا يعرف الغضب الا حين تنتهك للحق حرمة أو تتعدى حدود الله تعالى، أو يتعدى على حقوق الأمة وتضر مصلحتها وهذه بعض نماذج عفوه وحلمه.

أسر مالك الاشر (ره) مروان بن الحكم يوم الجمل، فلما مثل مروان بين يدي

(١) مناقب آل أبي طالب ج ١ ص: ٣٧٢.

(٢) البحار، ص: ٥٥ عن المحاسن.

(٣) بحار الأنوار ج ٤١، ص: ٥٦.

(٤) راجع للتوسع / أمير المؤمنين علي بن أبي طالب / لجنة التأليف في دار التوحيد ج ٣، ص: ٧٣-٧٥.

الإمام (ع) لم يستقبله بسوء قط، وإنما عاقبه على موقفه الخياني اللثيم فحسب،<sup>(١)</sup> ثم أطلق سراحه ومروان هو في حقه على الإسلام والإمام (ع) وهو في دسائسه ومكره، ودوره الخبيث في تأجيج الفتن في وجه الامام (ع) اشهر من أن نذكره، فهو الذي عارض البيعة للإمام (ع) وهرب من المدينة بعد البيعة مباشرة، وهو الذي ساهم في فتنة البصرة وألهب الناكثين وأغرامهم بالتعجيل بها. . الى غير ذلك من مواقفه الخسيسة.

ولقد عفا الإمام (ع) كذلك عن عبدالله بن الزبير<sup>(٢)</sup> بعد أن اسره يوم الجمل وهو الذي كان يقود الفتنة في حرب الجمل.

وقد خلى مسيل موسى بن طلحة بن عبيد الله، وكان طرفاً في فتنة الجمل، فلما جيء به للإمام، طلب منه ان يستغفر الله ويتوب إليه ثم قال:

«اذهب حيث شئت، وما وجدت لك في عسكرنا من سلاح أو كراع (جمع الخيل) فخذها واتق الله فيما تستقبله من امرك وأجلس في بيتك»<sup>(٣)</sup>.

وهناك شواهد ومفردات كثيرة تروى لنا حلم الإمام وعظيم صفحه منها:  
«دعا الإمام (ع) غلاماً له مراراً فلم يجبه، فخرج فوجده على الباب فقال: ما حملك على ترك اجابتي؟ قال:

كسلت عن اجابتك، وأمنت عقوبتك، فقال (ع):  
الحمد لله الذي جعلني ممن يأمن خلقه، امض فأنت حرّ لوجه الله»<sup>(٤)</sup>.  
«وقد خاطبه رجل من الخوارج بقوله: «قاتله الله كافراً ما أفتقه».  
فوثب أصحاب الإمام (ع) ليقتلوه، فقال الإمام (ع): «إنما هو سبّ بسب أو عفو عن ذنب»<sup>(٥)</sup>.

(١) المناقب ج ١، ص: ٢٨ ونهج البلاغة نص ٧٣.

(٢) شرح نهج البلاغة ج ١، ص: ٢٢.

(٣) بحار الأنوار ج ٤١، ص: ٥٠ نقلاً عن أمير المؤمنين / دار التوحيد، ص: ٨٢.

(٤) المناقب ج ١، ص: ٣٧٩.

(٥) نفس المصدر، ص: ٢٨٠ وبحار الأنوار ج ٤١، ص: ٤٩.

وموقف الإمام (ع) مشهور من ابن ملجم المرادي الذي اغتاله في مسجد الكوفة حيث أوصى في آخر حياته ولديه الحسن والحسين (ع) بقوله:

واحبسوا هذا الأسير، وأطعموه وأسقوه، واحسنوا اساره فإن عشت فأنا أولى بما صنع فيّ، ان شئت استقدت وان شئت صالحت وان مت فذلك إليكم، فإن بدا لكم ان تقتلوه فلا تمثلوا به<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

---

(١) بحار الأنوار ج ٤١، ص: ٢٠٦ باب ١٢٧.

## حياة الإمام علي (ع) السياسة

مدخل :

قبل الحديث عن مواقف الإمام (ع) من الاحداث، وكيفية معالجته لها، علينا أن نلم بشيء موجز عن تلك الظروف والملابسات الاجتماعية والاتجاهات الفكرية والسياسية التي سبقت حكمه، والتي بدأت الأمة الاسلامية تشهد فيها انحرافاً صريحاً عن مبادئ الاسلام وتعاليمه .

قلنا سابقاً بأن الأمة الإسلامية في عصر نبيها محمد (ص) انفرز فيها اتجاهان رئيسيان، رافقا نشوء الأمة، وبداية التجربة الإسلامية منذ السنوات الأولى، والاتجاهان الرئيسيان هما:

الأول: الاتجاه الذي يؤمن بالتعبد بالنص الديني، وبالتالي تحكيمه والتسليم المطلق في كل مجالات الحياة.

الثاني: الاتجاه الذي يرى أن إيمانه بالاسلام لا يتطلب منه التعبد والتسليم الا في نطاق خاص من العبادات والغيبيات، ويؤمن بجواز التصرف والتغيير والتعديل في النص الاسلامي<sup>(١)</sup>.

وقد انعكس كلا الاتجاهين في مجلس الرسول (ص) «في آخر يوم من أيام حياته عندما طلب (ص) من الحاضرين، وفيهم عمر بن الخطاب، «أن يكتب لهم

(١) راجع للاستزادة بحث حول الولاية / السيد الشهيد الصدر- وابن كثير في بدايته ومسلم في صحيحه.

كتاباً، كي لا يضلوا بعده» فكان رد عمر على طلب الرسول (ص) «بأن النبي (ص) قد غلب عليه الوجع وحسبكم والقرآن» فاختلف أهل البيت واختصموا وحتى قال لهم (ص) قوموا لا ينبغي عند نبي نزاع»<sup>(١)</sup>.

وقد بدأ الصراع بين ممثلين هذين الاتجاهين في حياة النبي (ص)، وقد انعكسا على موقف المسلمين من اطروحة زعامة الامام علي (ع) للدعوة بعد النبي (ص)، فكان ممثلي الاتجاه (الاجتهادي) انه بالامكان التحرر من الصيغة المطروحة. من قبل النبي (ص) إذ أدى اجتهاده الى صيغة أخرى أكثر انسجاماً في تصويره مع الظروف وملابسات الواقع.

أما الاتجاه (التعديدي) فقد اتجه ممثله الامام علي (ع) منذ اللحظة الأولى الى استنكار ما اتجهت إليه مقررات السقيفة من تجميد لأطروحة زعامة الإمام (ع)، واسناد السلطة الى غيره.

ويمكن أن نشهد التحول والانحراف بوضوح، في حياة الأمة الإسلامية، منذ بداية النصف الثاني من عهد الخليفة عثمان بن عفان، هذا الانحراف نفسه صار فيما بعد أساساً للظروف والملابسات الاجتماعية والسياسية التي عاشها الامام علي (ع) فتصدى لها (ع) منذ اللحظة الأولى لتسلمه لزاماً مسؤولية الخلافة في الدولة الإسلامية، محاولاً تحصين الأمة ضد صدمة انحراف (الحكام) والعودة بها الى الحياة الإسلامية الكريمة.

ونشير هنا إلى أهم تلك الاحداث والظروف التي ساهمت في التمهيد للتطورات الكبرى في عهد عثمان بن عفان والتي عاش اثارها الشيخة الامام علي (ع) وهي:

(١) راجع النعم في صحيح البخاري / باب مرض النبي / المجلد الثالث، وابن سعد في طبقاته، والطبري بتاريخه.

(٢) راجع للتفصيل فتوح البلدان، ص: ٤٣٧، وابن خلدون شرح توحيد البلاغة ج ٢٠، ص: ١٧ - ٢١.



## ١ - منطق السقيفة\*:

نعني به الروح القبلية التي سادت وتحكمت بمنطق المتنافسين والاتجاه نحو تعزيز مبدأ انحصار السلطة بكل واحد منهم وعدم مشاركة الآخرين في الحكم والتأكيد على المعبررات الوراثية.

«من ينازعنا سلطان محمد ونحن أولياؤه وعشيرته».

وحيثما تجمع أنصار السقيفة لتأمير سعد بن عبادة قال قائل منهم: «ان ايت مهاجرة قريش، فقالوا: نحن المهاجرون ونحن عشيرته وأولياؤه، قالت طائفة منهم: إذا نقول منا امير ومنكم امير، لن نرضى بدون هذا أبداً».

وقال الحباب بن المنذر وهو يشجع الأنصار على التمسك: «املكوا عليكم أيديكم، إنما الناس في فيثكم وظلكم، فإن أبي هؤلاء فمننا امير ومنهم امير».

فردّ عليه عمر قائلاً: هيهات لا يجتمع سيفان في غمد، من ذا يخاصمنا في سلطان محمد وميراثه ونحن أولياؤه وعشيرته يبسطل أو متجانف لائم أو متورط في هلكه»<sup>(١)</sup>.

هذا اللون من التفكير القبلي، واستعداد كثير من الأنصار لتقبل فكرة اميرين احدهما من الأنصار والآخر من المهاجرين، حتى كان يرى كل جناح انه أحق من غيره بالأمر<sup>(٢)</sup> وعلي بن أبي طالب وغيره من الصحابة بعيدون عنهم لانشغالهم بجمان النبي (ص) الذي كان لم يذفن بعد<sup>(٣)</sup> حيث اندفع عمر بأبي بكر وتقديمه في اجتماع السقيفة، لبيتوا في أمر الخلافة، وحين بلغ النبا الإمام علي (ع) رفض البيعة<sup>(٤)</sup> ورفضها معه انصاره واستمروا هكذا ممتنعين عن البيعة ستة اشهر كاملة بل ان علياً اعتبر اجتماع السقيفة في غيبته تأمرأ.

(\*) راجع للاستفسار والتوسع ثورة الحسين / لمحمد مهدي شمس الدين، ص: ١٥.

(١) راجع في نصوص يوم السقيفة شرح نهج البلاغة ٦/٦ - ٩.

(٢) الطبري ج ٣١/٥، الكامل لابن الأثير ج ٣١/٣.

(٣) سيرة الرسول / لابن هشام ج ١٠١٨/٢.

(٤) انظر النزاع والتخاصم / المقرئ ص: ٤٨.

هذه الروح القبلية هي التي فتحت على المسلمين باباً من أبواب الفتنة، كما يصرح بذلك عمر بقوله: «إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرها فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه، فأبى رجل بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين فإنها تفرجة يجب أن يقتل»<sup>(١)</sup>.

## ٢ - مبدأ عمر في العطاء:

بعد أن كان العطاء بين المسلمين بالتساوي في زمن النبي (ص) وكذلك في عصر أبي بكر، عمد عمر إلى مبدأ التفصيل في العطاء.

«فضل السابقين على غيرهم وفضل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين. وفضل المهاجرين كافة على الأنصار كافة، وفضل العرب على العجم وفضل الصريح على المولى»<sup>(٢)</sup> «وفضل مضر على ربيعة، ففرض لمضر في ثلاثمائة ولربيعة في مائتين»<sup>(٣)</sup> وفضل الأوس على الخزرج»<sup>(٤)</sup>.

وبهذا أوجد الخليفة بوادر الطبقية في المجتمع الإسلامي والتي أصبحت قتيلاً اشعلت نار الصراع القبلي بين ربيعة ومضر وبين الأوس والخزرج<sup>(٥)</sup> والصراع العنصري بين العرب والعجم والصريح والموالي<sup>(٦)</sup>.

وقد أدرك عمر في أواخر حياته خط مبدئه وأعلن عزمه على الرجوع إلى مبدأ المساواة في العطاء بقوله:

«وإن عشت هذه السنة، ساويت بين الناس فلم أفضل أحمر على أسود ولا عربياً على عجمي وصنعت كما صنع رسول الله وأبو بكر»<sup>(٧)</sup>.

(١) المثل والنحل / الشهرستاني.

(٢) ابن حديد، ١١١/٨.

(٣) تاريخ يعقوبي، ١٠٦/٢.

(٤) فتوح البلدان: ٤٣٧.

(٥) تاريخ يعقوبي، ج ١٠٦/٢.

(٦) ابن حديد، ج ١١١/٨.

(٧) تاريخ يعقوبي / ج ١٠٧/ ٢.

ولكن عمر اغتيل قبل ان يتمكن من معالجة غلطته، والرجوع عن مبدئه، فجاه عهد عثمان وسار عليه، فظهرت آثاره الضارة في الحياة الإسلامية، وكان من أهم العوامل التي مهدت للفتنة بين المسلمين في زمن الإمام علي (ع).

### ٣ - الشورى:

«نعني بها طريقة عمر اختيار وتعيين ستة نفر من قريش وتقديمهم للأمة الإسلامية كمرشحين للخلافة من بعده»<sup>(١)</sup> واقتراحه هذا أثار في نفوس كثير من الأشخاص البارزين في قريش وفي نفوس قبائلهم وأنصارهم، مطامح سياسية، ما كانوا ليحلموا بها، لأنهم رأوا ان بعض من رشحهم عمر لا يفضلونهم في شيء، بل ربما امتازوا عليهم في أشياء كثيرة.

فالناس كانوا يريدون علياً لأنهم يخشون سلطان بني أمية أما قريش فكانت تخشى علياً في عدله واستقامته.

اجتمع الناس وكثروا على الباب، لا يشكون في علي وانه يبائع علي بن أبي طالب، وكان هوى قريش - ما عدا بني هاشم - في عثمان، وهوى طائفة من الانصار مع علي، وهوى طائفة أخرى مع عثمان، وهي أقل الطائفتين<sup>(٢)</sup>.

وقد ترسخ هذا الطموح عندما تمت تنحية الإمام (ع) مرشح الاكثرية المسلمة عن الخلافة وإسنادها لعثمان بن عفان مرشح الارستقراطية القرشية، عندما يادر عبد الرحمن بن عوف بخلع نفسه ليكون في موقف المحايد، ويحصر الترشيح في علي (ع) وعثمان ليختار هو بينهما.

وقد طلب من علي (ع) ان يبايعه على كتاب الله وسنة رسوله وفعل عمر وأبي بكر، فقال علي: لا.. ولكني أحاول ذلك جهدي وطاقتي، وطلب من عثمان نفس ماطلبه من علي فأجابه عثمان على الفور بالموافقة.. فبأيعه.. وتمت له الخلافة<sup>(٣)</sup>.

(١) الكامل لابن الأثير ج ٣/٣٦.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٥٢/٩.

(٣) عثمان/ طه حسين نقلا عن دائرة المعارف الإسلامية الشيعية/ حسن الأمين ٩٤/٢.

وقد عبر الإمام (ع) عن عدم رضاه عن هذه النتيجة بقوله ولأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلا علي خاصة<sup>(١)</sup>.

بينما أخذ الطامحون إلى الخلافة يجمعون الأنصار حولهم في الخفاء ويستعينون على ذلك بأموالهم وقبائلهم، وإنشاء علاقات المصاهرة مع القبائل الأخرى، حتى إذا تقدم العمر بخلافة عثمان قليلاً ظهرت هذه الأحزاب إلى العلن تعمل في سبيل هدفها.

وكانت عاقبة الشورى ومن نتائجها نشوء أحزاب وتكتلات قائمة على الولاء الشخصي من ذوي الأهداف الشخصية للوصول إلى الحكم، مستغلة أسباب الشكوى والاستياء من عثمان وبناته وولاته على الأمصار، متفاعلة مع أسباب أخرى في أسلوب عثمان ومعالجاته في سياسة المال والادارة والاجتماع حتى كانت نتيجةها قيام الثورة ومصرع عثمان.

#### ٤ - سياسة عثمان:

لقد دأب عثمان منذ ان ولي الحكم، على ممارسة سياسة خطيرة ومغامرة في المال وتنصيب الولاة. فقد طفق يهب خواصه وذوي رحمه ومن يمت إليه بنسب أو سبب الأموال العظيمة، ويخصهم بالمنح الجليلة ويحملهم على رقاب الناس... وولي على البلدان الإسلامية شباناً من بني أمية لا يحسنون الحكم ولا السياسة، ذوي روح تسلطية عاتية، لم ينل منها الإسلام شيئاً مذكوراً..

وهكذا كونت هذه الطبقة أرستقراطية من الأغنياء المترفين الذين لا تزال تنتما في صدورهم القيم البدوية الجاهلية، وقد امتد نفوذ هذه الطبقة في خلافة عثمان امتداداً هائلاً فسيطرت على الحكم سيطرة مطلقة وحازت الأموال العظيمة التي افاءها الله على المسلمين، والتي كان المفروض فيها ان تذهب إلى المعدومين

(١) نهج البلاغة ج ١/ ١٥١.

والفقراء، وانتشرت هذه الطبقة في طول البلاد وعرضها، حين فتح لها عثمان باب الهجرة والتنقل في البلاد الإسلامية.

وإلى جانب ذلك كانت ثمة طبقة أخرى تتألف من الأعراب وأهل البادية وكانت القوى المسلحة في الدولة الإسلامية مكونة منهم ينضم اليهم من دخلوا من الأمم (غير العرب) هؤلاء كانوا يلقون في زمن عثمان حيفاً كبيراً من طبقة الأرستقراطية الناشئة الطامحة إلى المزيد من القوة والاستيلاء بسبب ما يعتمل في نفوس أفرادها من قيم البداوة.

وكانت عاقبة ذلك ان تضحخت الفروق بين الطبقات تضخماً كبيراً من الناحية المادية والمعنوية، وانقلبت الأثرة إلى طغيان، وانقلب الحقد إلى زئير، وتراكم الطغيان حتى وجد رد فعل طاغ في ثورة المظلومين الذين أثقلهم الظلم الفادح على حكومة عثمان وعلي ولاتاه<sup>(١)</sup>

«ولقد كان سلوك عثمان إزاء معارضي سياسته من كبار الصحابة وأركان الدعوة سبباً في مضاعفة النقمة عليه.

فقد عارض سياسة عثمان في المال والإدارة عبد الله بن مسعود وكان خازناً لبيت المال فاعترضه عثمان بقوله: «إنما انت خازن لنا»، ثم اشتدت معارضة ابن مسعود فأمر عثمان بضربه حتى كسر بعض أضلاعه.

وعارضه أبو ذر الغفاري فنفاه إلى الشام، وما ان وصل الشام حتى اخذ ينتقد اساليب معاوية في انفاق الأموال العامة وصادف كلامه هوى في نفوس رعية معاوية فكتب إلى عثمان فأرسل إليه عثمان، فوصل أبو ذر إلى المدينة وقد تأكل لحم فخذه

(١) دراسات في نهج البلاغة/لمحمد مهدي شمس الدين ص: ٢٥٥.

من عنف السير، ففناه عثمان إلى الريلة، ولبت فيها حتى مات غريباً وحيداً سنة ٣٢ هـ

وعارضه عمار بن ياسر، فشتمه عثمان وضربه، ولكن هذا العصف لم يثن عماراً فاستمر في معارضته، فأمر به عثمان فطرح أرضاً، ووطئه برجليه، حتى أصابه الفتق.

وعارضه غير هؤلاء من الصحابة من المهاجرين والانصار في الاحداث التي كان يقوم عليها. والسياسة التي كان يتتهجها، فلم يسمع منهم ولم يستجيب لهم.

وهؤلاء المعارضون كانوا يعبرون بمعارضتهم هذه عن إرادة جميع المسلمين الذين آذنتهم سياسة عثمان في كراماتهم وارزاقهم، ولم يفسر المسلمون سياسة عثمان من المعارضة إلا بأنه عازم على الماضي في سياسته دون الالتفات إلى أي نصح أو تحذير.

وقد مكن عثمان بسياسته هذه، لمعارضة اسباب القوة والنفوذ، وذلك حين اطلق لها ان تنمي ثرواتها، وتكوين الاقطاعات الضخمة، حيث راح افرادها يستكثرون لانفسهم من الاموال والاتباع، ويمنون انفسهم بالوصول إلى الخلافة، ويمنيهم بذلك اتباعهم وقبائلهم.

وقد أشار الطبري في احداث سنة ٣٥ إلى هذه الحقيقة فقال: «فلما ولي عثمان خلى عنهم فاضطربوا في البلاد وانقطع إليهم الناس... فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس انقطع من لم يكن له طول ولا مزية في الإسلام فكان مغموراً في الناس... فقالوا يملكون فنكون قد عرفناهم وتقدمنا في التقرب والانقطاع إليهم... فكان ذلك أول وهن دخل على الإسلام وأول فتنة كانت في العامة ليس إلا ذلك»<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

### الإمام وموقفه من الثورة على عثمان:

المتتبع لخيوط احداث الثورة، وخط سيرها حتى مقتل الخليفة عثمان: يدرك

(١) الطبري: ١٣٤/٥ نقلًا عن ثورة الحسين/شمس الدين ص: ٤٥.

بأن الثورة وجمهورها الساخط، لم يكن أرعنا ولا قصير نظر:

ولقد كانت جماهير المحاربين هي مادة الثورة، أما وقودها فهو تصرفات عثمان وولاته وآل بيته، وأما الذي أججها فهم أصحاب المصلحة فيها، هم هؤلاء الزعماء الذين أوتوا من الطموح ما جعل الخلافة هدفهم، ومن المال والمترلة ما مكنتهم من جمع الانصار حولهم ومن سوء الأوضاع ما سهل عليهم أن يعدوا الناس بخير مما هم فيه.

\*\*\*

ومع كل هذا حاول الثوار المخلصون، مراراً الاتصال بأولياء الأمور ورموز السلطة الحاكمة ومن خلال ممثلهم لكي ينهوا الخليفة عثمان ويعرفوه على سوء الحكم وضرورة معالجتها بالحكمة.

وكانت تأتيه وفود الامصار إلى المدينة مرات عديدة حاملة معها طائفة من مطالبها وأمانيتها، وكانت هذه الوفود في كل مرة تبوء بالفشل وتقابل بالاعراض والجفاء.

وقد سلك عثمان ويطانته من الامويين والمنتفعين تجاه الثوار سلوكاً بعيداً عن الحكمة والعدل، فبدلاً من ان تجاب مطالب الثوار ردوا بعنف واستهين بهم، وجوبها بسياسة قاسية، هي هذه السياسة التي تمخض عنها مؤتمر عثمان مع عماله على الامصار والتي يرويها لنا الطبري بقوله:

وقال له عبدالله بن عامر، رأبي يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك، وإن نجمهم في المغازي حتى يذلولوا لك، فلا يكون همّة أحدهم إلا نفسه، وما هو فيه من ديرة دابته وقمل فروه. . فرد عثمان عماله على أعمالهم وأمرهم بالتضييق على من قبلهم، وأمرهم بتجمير (جمعهم) الناس في البعوث وعزم على تحريم (منع) أعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا إليه<sup>(١)</sup>.

(١) الطبري ٣/٢٧٣، ٢٧٤



ولكن هذه الاجراءات القاسية زادت نار المقاومة اشتعالاً فقد رأى هؤلاء الثوار انهم خدعوا فتألبوا ساخطين من الكوفة والبصرة ومصر والحجاز ومن هنا وهناك للقيام بمسمى جماعي لارغام عثمان على تغيير بطانته وعماله الذين اسأؤوا السيرة وجاروا على السرعة... وكان الإمام (ع) يتوسط بينهم وبين الخليفة في مساع حميدة فيوعدهم الخليفة خيراً.

لكن ما وقع للوفد المصري، بعد ان برحوا المدينة، حتى اوعزت السلطة العليا إلى حاكم مصر بالقبض عليهم، وما كان من الثوار والمعارضين إلا ان عادوا مرة اخرى يرفعون مطالبهم بعنف وقوة اشد، ولم يسعها لحجم عواطفها الملتهبة، بل هبت ساخطة محتجة على رعونة وحماسة هذه التصرفات، وتريد وضع حد فاصل لالامها ويؤسها...

وكانت مطالبهم تشمل الآتي :-

١ - الأخذ بمبدأ العطاء المتساوي الذي سار عليه النبي (ص) دون سياسة التفضيل التي سنها عمر والتي لا تزال.

٢ - تطهير الجهاز الحاكم من المتنفذين والمستغلين، لا سيما مروان بن الحكم وبعناته المتنفذة في استغلال وتسيير دفة الحكم.

٣ - الوقوف بحزم تجاه اطماع قريش واستئثارهم بالثروات والمناصب ووضع حد لها.

٤ - الحيلولة دون استدلال الأمراء للأهلين وامتھان كراماتهم كما فعلوا مع أبي ذر وعمار بن ياسر عندما تحدوهم وناقشوهم بسلوكهم المنحرف.

٥ - الحد من صلاحية الولاة والأمراء في اطلاق ايديهم في التصرف بالخراج والأموال العامة. وصلت هذه المطالب إلى عثمان، ولكنه لم يفعل شيئاً مذكوراً تجاهها كلياً، وترك الأحداث تتأزم وتتفاقم وتؤج كالنار في الهشيم، فتخوف الإمام على نتائج الأمور ويادر على الفور إلى الاجتماع بعثمان فقال له:

«الناس ورائي، وقد كلموني فيك، والله ما أدري ما أقول لك، وما أعرف

شيئاً تجهله ولا أدلك على أمر لا تعرفه ، انك لتعلم ما نعلم ما سبقناك إلى شيء فنجدك عنه ، ولا خلونا بشيء فنبلغك وما خصصنا بأمر دونك . . .  
قَالَ اللهُ اللهُ فِي نَفْسِكَ فَإِنَّكَ وَاللهَ مَا تَبْصُرُ مِنْ عَمِي ، وَمَا تَعْلَمُ مِنْ جَهْلٍ وَإِنَّ الطَّرِيقَ لَوَاضِحٌ بَيْنَهُ (١) .

ومما قاله (ع) أيضاً لعثمان : ان معاوية يقطع الأمور دونك وانت تعلمها فيقول للناس هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تغير علي معاوية .

ولكن معاوية لم يزل بعثمان يوغر صدره على علي (ع) ويضرب له المثل بشدته فيقول :

«هكذا يستقبلك وأنت إمامه وسلفه وابن عمه وابن عمته ، فما ظنك بما غاب عنك منه؟» (٢) .

وكان عثمان أحياناً يذعن لنصائح الإمام (ع) ، ويعزم على الإصلاح ولكن سرعان ما يتعلل بمختلف الأعذار ولا يستقر على رأي .

وحيال تردد عثمان قال له الإمام (ع) :

«ما يريد عثمان أن ينصحه احد ، أتخذ بطانة غش ليس منهم أحد إلا وقد تسبب بطائفة من الأرض يأكل خراجها ويستذل أهلها» (٣) .

وكان عمرو بن العاص يحرض الناس علانية على سياسية عثمان حتى قال يصف نفسه :

«أنا أبو عبدالله إذا حككت فرحته نكأتها ان كنت لألقى الراعي فأحرضه على عثمان» .

وهذه عائشة تجتريء على عثمان وهي تخطب ، وقد نشرت قميص النبي (ص) قائلة :

(١) راجع دائرة المعارف/الأمين ج ٢ / ص : ٨٧ .

(٢) ن . م . ص : ٧٨ .

(٣) ن . م . ص : ٨٧ .

«هذا قميص النبي لم يبيل وقد ابليت سنته» .

أما طلحة والزبير فقد وصلت بهما الحال إلى اعانة الثائرين بالمال للإطاحة بعثمان والجموع الوافدة من كل مكان، تفتحت ثائرتها، ومضت في اندفاعها متمرة غاضبة ، وكان الإمام علي ( ع ) موقفه من هؤلاء الثائرين كاطفائي الحريق يبذل كل ما في وسعه لتخفيف ثائرتهم واطفاء حريقها الملتهب .

وما كان من عثمان إلا ان استمهل الثوار ثلاثة أيام لكي يجتمع بهم بعدها ليكون اجتماعاً حاسماً فاصلاً، فلما انتهت اجتمعت جماهير غفيرة على بابيه ولم يخرج لهم، بل خرج عليهم مروان بن الحكم مبعوثاً عن عثمان، فخطبهم بكلمات ملؤها الرعونة والاستعلاء قائلاً:

«ما شأنكم قد اجتمعتم، كأنكم جثم لنهب؟ شأهت الوجوه كل إنسان أخذ ياذن صاحبه؟ جثم تريدون ان تنزعوا ملكنا من أيدينا؟ اخرجوا عنا أما والله لئن رمتونا ليمرنّ عليكم أمر لا يسركم ولا تحمداوا غب رأيكم، ارجعوا إلى منازلكم، والله ما نحن بمغلوبين على ما في أيدينا» .

كانت هذه الخطبة المملوغة، بمثابة القتل الذي اشعل نار الثورة، فأرسل عثمان على الفور على الإمام علي ( ع ) فأبى ان يأتيه وقال ( ع ) معلقاً بقوله: «قد أعلمت أنني لست بعائده لأن الإمام ( ع ) كبير عليه منطلق مروان الذي فاجأ به الجمهور المحتشد بلسان الخليفة، بعد ملامكلامه حمقاً ورعونة لا تطاق، ورأى أن قيمة وساطته لا تعني شيئاً لأنها لا تجدي نفعاً، وقد امتنع واثقاً بأن عثمان سيضطر تحت ضغط الجمهور إلى إجابة مطالبهم الاصلاحية الحققة، وتنحية مروان ويطانته ولكن شيئاً من هذا لم يقع، واسرع عثمان بارسال كتاب إلى معاوية في الشام يقول فيها: «ان اهل المدينة قد كفروا واخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة فابعث إليّ من قبلك من مقاتلة اهل الشام على صعب وذلول» فإذا بمعاوية حينما جاءه كتابه يتربص به ولا يجيبه<sup>(١)</sup> .

(١) راجع دائرة المعارف/ الامين ص: ٨٨ .

ومضت الأيام والاحداث تزيد الهوة اتساعاً، وتحولت كل هذه الاخطاء والانحرافات إلى خيبة آمال مئات واسعة من المسلمين وغضبها، كما تسببت إلى جانب ذلك، في اتبعات كثير من القيم والاخلاق والمطامع الجاهلية التي نشطت للعمل من خلال ممثلها ورموزها في قمة السلطة في مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع وقد أدى اتبعات هذه القيم الجاهلية إلى تعارض في المصالح بين ممثلي هذه القيم وبين أكثرية المسلمين الذين كانت تغذى نفقوسهم بالآمال التي تولدها قيم الإسلام في العدالة الخالصة والمساواة. هذا التعارض المأساوي الذي ما فتئت تغذيه أخطاء الحكم وسياسات الرموز الجاهلية المائدة فتعمقه، وتزيده حدة، وتدفع به إلى مزيد من الاتساع والانتشار.

وقد تراكم كل ذلك على مدى سنين، واتسع إلى ان شمل حواضر الدولة كلها وأدى في النهاية إلى عاقبته الوخيمة وثمرته المرّة، ثورة شارك فيها الاغنياء والفقراء الساخطون بلا حقد، والحاقدون من عليّة القوم، وأدت الثورة الى مقتل الخليفة عثمان وإلى دخول المسلمين في منعطف من تاريخهم جديد<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

### الإمام (ع) وموقفه من تولي الحكم:

بعد مقتل الخليفة عثمان، توجهت انظار الثوار إلى الإمام علي (ع) «يطلبون منه ان يلي الحكم، ولكنه ابي عليهم ذلك، لا لأنه لم يأنس من نفسه القوة على ولاية الحكم وتحمل تبعاته، فقد كان (ع) على تمام الاستعداد لذلك، كان قد خبر المجتمع الإسلامي من أقطاره، وخالط كافة طبقاته وراقب حياتها عن كسب، ونفذ إلى اعماقها، وتعرف على الوجدان الطبقي الذي يشدها ويجمعها، وقد مكنته من ذلك مركزه الفريد من النبي (ص) وهو مركز لم يكن احد من الصحابة يتمتع به، اعدته اعداداً تاماً لمهمة الحكم»<sup>(٢)</sup>.

(١) راجع حركة التاريخ عند الإمام علي (ع) / محمد مهدي شمس الدين ، ص: ١٤٣ .

(٢) راجع للتومع ثورة الحسين / شمس الدين ، ص: ٥١ .

بل إن الإمام رأى المجتمع الإسلامي قد تردى في هوة من الفوارق الاجتماعية والاقتصادية والتي زادت عمقاً واتساعاً بسبب سياسية ولاية عثمان خلال مدة الخلافة ، ورأى ان التوجيهات الإسلامية ومفاهيمها العظيمة التي عمل النبي ( ع ) طيلة حياته على ارساء اصولها في المجتمع الإسلامي الناشئ قد فقدت فاعليتها في توجيه حياة الناس . وإنما صار الناس إلى واقعهم هذا لأنهم فقدوا الثقة بالقوة الحاكمة التي تهيمن عليهم ، فراحوا يسعون إلى إقرار حقوقهم وصيانتها بأنفسهم .

«قد أدرك ( ع ) أن حجم الحاجات التي يفتقر اليها الناس والأمال التي تعمر قلوبهم أكبر بكثير من حجم الامكانيات التي توفرها مؤسسات الدولة ، وإن حجم المعوقات التي يمثلها رموز العهد الماضي ، وقواه التي شلتها الثورة فاضطرت إلى الانكماش . . حجم هذه المعوقات كبير وخطير ، لأنها مستشرية في جميع مراكز السلطة»<sup>(١)</sup> .

وهكذا انقطعت الصلة بينهم وبين الرموز المعنوية التي يجب ان تقود حياتهم والسبيل إلى تلافي هذا الفساد هو إشعار الناس ان حكماً صحيحاً يهيمن عليهم ، لتعود إلى الناس ثقتهم الزائلة بحكامهم ، ولكن هذا لم يكن سهلاً قريباً فثمة طبقات ناشئة لا تسبغ مثل هذا ولذلك فهي حرية بأن تقف في وجه كل منهج اصلاحي ومحاولة تطهيرية .

إذن فقد كان الإمام ( ع ) يدرك نتيجة لوعيه العميق للظروف الاجتماعية والنفسية التي كانت تجتاح المجتمع الإسلامي في ذلك الحين ، ولأن المدّ الثوري الذي انتهى بالأمور إلى ما انتهت إليه بالنسبة إلى عثمان يقتضي عملاً ثورياً يتناول دعائم المجتمع الإسلامي من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

ومن هنا كان رفض الإمام ( ع ) وامتناعه عن الاستجابة الفورية لضغط الجماهير والصحابة عليه بقبوله الخلافة ، فقد اراد ان يضعهم أمام إختيار يكشف به مدى استعدادهم لتحمل اسلوب الثورة في العمل ، لثلا يروا فيما بعد أنه استغلهم

(١) حركة التاريخ عند الإمام علي ( ع ) / محمد مهدي شمس الدين ، ص : ١٤٣ .

واستغل اندفاعهم الثوري حين يكتشفون صعوبة الشروط التي يجب ان يناضلوا  
الفساد الذي ثاروا عليه في ظلها.

ولهذا أجابهم الإمام (ع) بقوله:

«دعوني والتمسوا غيري، فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له  
القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وإن الأفاق قد اغامت والمحجة قد  
تنكرت، واعلموا اني ان اجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول  
القاتل وعتب العاتب، وان تركتموني، فأنا كأحدكم، ولعلي اسمعكم  
واطوعكم لمن وليتموه، أمركم وأنا لكم وزيراً خير لكم مني امير»<sup>(١)</sup>.

ولكن الناس اصروا عليه ان يلي الحكم، فاستجاب لهم «ورجا ان يخرج  
بالناس من واقعهم الاجتماعي النعس الذي احلتهم فيه اثنتا عشرة سنة مضت عليهم  
في خلافة عثمان إلى واقع انبل واحفل بمعاني الإسلام.

ولقد دأب بعد ان بويع خليفة للمسلمين على بيان الهدف الذي ابتغى من وراء  
ولاية الحكم، وذلك بأن يكون في مركز يمكنه من ان يصلح شؤون الناس، وان يرفع  
عن المظلومين فساد ما رزحوا تحته من ظلم، قائلاً:

«اللهم انك تعلم انه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان، ولا التماس  
شيء من فصول الحطام، ولكن لترد المعالم من دينك، ونظهر الاصلاح في بلادك،  
فيأمن المظلومين من عبادك وتقام المعطلة من حدودك»<sup>(٢)</sup>.

ولاجل هذا قبل (ع) ان يتولى الحكم.

الإمام (ع) في الحكم:

تسلم الإمام الحكم في مجتمع ورث الفساد، وكانت تتظره مشاكل معقدة

(١) نهج البلاغة ج ١ ص: ٥٩ وشرح النهج ج ٥ ص: ٢٦٩ - ٢٧٠.

(٢) دراسات في نهج البلاغة/شمس الدين، ص: ٢٦٠.

كثيرة على مختلف الاصعدة ، فعالتهم الإمام ( ع ) منذ الملحظة الاولى لمباشرته  
 مسؤولية الحكم بسياسته الثورية الجديدة التي قرر ان يتبعها من أجل تحقيق الأهداف  
 التي قبل الحكم من أجلها ، وقد تناولت سياسته الثورية ثلاثة ميادين هي :

١ - الميدان الحقوقي .

٢ - الميدان المالي والاقتصادي .

٣ - الميدان الاداري والسياسي .

وقد اثرت - مع الأسف - حول سياسة الإمام ( ع ) واصلاحياته الكثيرة من  
 الشكوك والاحكام المرتجلة، حتى شاعت في كتب التاريخ ، واتخذها قارئو التاريخ  
 الإسلامي قضية مسلماً بها مفروغاً من بحثها والاستدلال عليها، وخصوصاً سياسته  
 الادارية التي كثرت فيها الاحكام العاطفية وراجت حولها الآراء المغلوطة . . وهذا ما  
 سوف نناقشه بالتفصيل وبأسلوب تحليلي عميق ، مستعينين بما طرحه الشهيد السيد  
 انصهر بمحاضراته التي القاها على طلبته في النجف الاشرف لنستوضح من خلالها  
 حقيقتها، بعد ان نمر سراعاً بالميدانين الحقوقي والمالي بصورة عابرة .

١ - الميدان الحقوقي : تناولت اصلاحاته في هذا المجال، الغاء مبدأ التفاضل  
 في العطاء وعلان مبدأ المساواة الذي يساوي فيه كل المسلمين ويعتبرهم سواء في  
 الحقوق والواجبات فجاءت مقوله الإمام ( ع ) بهذا الصدد قوله :

«الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له والقوي عندي ضعيف حتى آخذ  
 الحق منه»<sup>(١)</sup> ويوضي ( ع ) الأشتر النخعي في كتابه القيم قائلاً :

«انصف الله وانصف الناس من نفسك، ومن خاصة أهلك، ومن لك فيه  
 هوى من رعيتك فإنك ألا تفعل تظلم ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه  
 دون عباده . . وليكن احب الأمور أوسطها في الحق واعمها في  
 العدل»<sup>(٢)</sup> .

(٢) ٥٠٠ م / ٤٣٨ .

(١) نهج البلاغة ج ١ ص : ٢١٧ .



ويقول (ع) :

«أيها الناس اعينوني على انفسكم ، وأيم الله لانصفن المظلوم من ظالمه ، ولأقودن الظالم بخزامة حتى اورده منهل الحق وان كان كارهاً .

الميدان المالي والاقتصادي : وركز (ع) من خلاله على نقطتين مهمتين : -  
أولاً : الثروات غير المشروعة التي تكونت ايام عثمان .  
ثانياً : اسلوب توزيع العطاء التفضيلي .

ولذا فقد قام (ع) بمصادرة جميع ما أقطعه عثمان من القطن وما وهبه من الأموال العظيمة لطبقة الارستقراطيين ، وعالهم بسياسة في توزيع المال بقوله :

«أيها الناس إني رجل منكم لي مالكم وعلي ما عليكم واني حاملكم على منهج نبيكم ، ومنتفذ فيكم ما أمره ، ألا وان كل قطعة أقطمها عثمان ، وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال فإن الحق لا يبطله شيء ، ولو وجدته قد تزوج به النساء ، وملك الاماء ، وفرق في البلدان لردده ، فإن في العدل سعة ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه اضيق»<sup>(١)</sup> .

ولعل قادة الطبقة الثرية فكرت في مساومة الإمام (ع) على بذل طاعتهم له على ان يفضي عما سلف منهم ، فأرسلوا إليه الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وقال له :  
«يا ابا الحسن ، انك قد وترتنا جميعاً ، ونحن اخوتك ونظراؤك من بني عبد مناف ، ونحن نبايعك اليوم على ان تضع عنا ما أصبناه من المال ايام عثمان ، وأن تقتل قتله وانا ان خفناك تركناك فالتحقنا بالشام»<sup>(٢)</sup>

أما رد الإمام (ع) لها فجاء واضحاً ومؤكده لعزمه في مواصلة تطبيق المنهج الذي بدأ به ، فقال :

«فأما هذا الفيء فليس لأحد فيه أثر ، وقد فرغ الله من قسمته فهو مال الله

(١) نهج البلاغة ج ١ صفحة : ٥٩ .

(٢) شرح نهج البلاغة ج ٧ صفحة : ٣٧ - ٣٩ - ٤٠ .

واتم عباد الله المسلمون ، وهذا كتاب الله به أقررنا وله اسلمنا وعهد نبينا  
بين أظهرنا فمن لم يرض به فليتول كيف شاء»<sup>(١)</sup>.

وبهذه الاجراءات الغى الإمام (ع) كل أشكال التمييز في توزيع المال على  
الناس مؤكداً ان التقوى والسابقة في الإسلام ، أمور لا تمنح اصحابها امتيازات في  
الدنيا ومن كان له قدم في ذلك ، فالله يتولى جزاءه ، أما في هذه الدنيا فالناس سواسية  
في الواجبات والحقوق.

«وأما رجل من المهاجرين والانصار من اصحاب رسول الله (ص) يرى  
ان الفضل له على سواه لصحته ، فإن الفضل التير غداً عند الله وثوابه  
وأجره على الله»<sup>(٢)</sup>.

وهكذا جسد الإمام (ع) مفهوم التسوية في العطاء بين جميع الناس الذين  
يتمتعون بحق المواطنة الإسلامية ، دون تمييز لاي سبب من الاسباب.

الميدان الاداري والسياسي:

لقد باشر الإمام اصلاحاته في هذا الميدان ، بتجديد مواصفات ولاية الأمر،  
وموظفي الدولة ، الذين ترشحهم موازين الإسلام ، لادارة شؤون الأمة الإسلامية  
وذلك ببيان اصدره جاء فيه:

«إنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والاحكام  
وامامة المسلمين البخيل ، فتكون في أموالهم نهمته (شهوته) ولا الجاهل  
فيصلهم بجهله ، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه ، ولا الحائف (الظالم)  
للدول (المال) فيتخذ قوماً دون قوم ، ولا المرتشي في الحكم فيذهب  
بالحقوق ، ويقف بها دون المقاطع (حدود الله) . ولا المعطل للسنة  
فيهلك الأمة»<sup>(٣)</sup>.

(١) شرح نهج البلاغة ج ٧ صفحة: ٣٧ - ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) شرح نهج البلاغة/لمحمد عبيد ج ١ ص: ٢٦٩ .

(٣) نهج البلاغة/صحي الصالح رقم ١٣١ ص: ١٨٩ .

ففي ضوء هذا التحديد الموضوعي لصفات ولاية الأمر عند الإمام (ع) إلى عمليين:

أولاً: الاستغناء عن خدمات قسم الولاية الذين كانوا يتولون أقاليم الدولة الإسلامية، وعزلهم عن الأمصار، مبيناً أسباب عزلهم قائلاً:

«ولكنني آسي ان يلي امر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها فيتخذوا مال الله دولاً، وعبادة خولاً، والصالحين حرباً، والفاسقين حزباً فإن منهم الذي قد شرب فيكم الحرام، وجلد حداً في الإسلام، وان منهم من لم يسلم حتى رضخت له على الإسلام الرضائع»<sup>(١)</sup>.

لقد سبق للخليفة عثمان، ان قرب ممن طردهم الرسول (ص) أو أقصاهم، لقد رد عمه الحكم بن امية إلى المدينة بعد ان طرده رسول الله (ص) وأصبح يسمى طريد رسول الله، وأوى عبدالله بن سعد بن أبي سرح، وكان النبي (ص) قد اهدر دمه، وولاه عثمان مصر كما ولي عبدالله بن عامر البصرة فأحدث فيها من الأحداث ما جعل المؤمنين يتقمون عليه وعلى عثمان<sup>(٢)</sup>.

ثانياً: إسناد ولايتها إلى رجال من أهل الدين والعفة والحزم، وذلك لانه (ع) ان اكبر عناصر الشكوى، واهم اجزائها هو الجزء الخاص بالأمرء والولاية، فبادر الإمام (ع) إلى تغيير التعينات القديمة، وأصدر أمره بتولية عثمان بن حنيف على البصرة وسهل بن حنيف على الشام، وقيس بن سعد بن عبادة على مصر، وأبو موسى الأشعري على الكوفة، وهي من الامصار الكبرى آنذاك.

وقد كلمه الكثيرون، ومنهم المغيرة بن شعبة بشأن ولاية عثمان فأشار عليه بأن يبقى هؤلاء الولاية على أعمالهم، ورشما يستتب له الوضع، ولكنه أبى عليه ذلك وعزلهم، وهكذا فعل مع طلحة والزبير بشأن ولاية الكوفة والبصرة وردّهما رداً رقيقاً مما حملهما للضغط على الإمام (ع) والتشكيك بقيادته، ونكث بيعتهما له

(١) نهج البلاغة.

(٢) النظم الإسلامية، نشأتها وتطورها، د. صبحي الصالح ص: ٩١.

والمجاهرة بمطالبته بدم عثمان، متناسين انهما كانا من بين المحرضين على الثورة على عثمان، بل وطالبوا الإمام (ع) بإعادة طرح أمر المخلافة شورى بين المسلمين وزعما انهما بايعا علياً عن اكراه وان بيعتهما لهذا لا تجوز<sup>(١)</sup>.

ورد على مزاعمهم الإمام (ع) بقوله:

وقأقبلتم إليّ إقبال العوذ المطافيل (الانثى ذات السطفل من الانس والوحش) على اولادها، تقولون البيعة قبضت كفي فبسطتموها، ونازعتكم يدي فجاذبتموها اللهم انهما قطعاني<sup>(٢)</sup>.

ويتضح موقف الإمام (ع) من إبعاد طلحة والزبير عن ولاية البصرة والكوفة، بالرغم من الآراء التي اعتبرته عملاً سياسياً يتسم بقصر النظر.

ولكن تتضح سلامة موقف الإمام (ع) ، عندما تعرف بأن المواقف الممكنة من طلحة والزبير لا تخرج عن أربعة مواقف، كلها اغمض عاقبة، وأقل سلامة ، وأضعف ضماناً من موقفه الذي ارتضاه<sup>(٣)</sup>.

فالموقف الاول:

أن يقوم بتوليتهما البصرة والكوفة، وقد كان عبدالله بن عباس على هذا الرأي، ولم يرتضيه الإمام (ع) لأنه البصرة والكوفة فيهما الرجال والأموال ، ومتى تملكنا رقاب الناس، يستميلان السفينة بالطمع ويضربان الضعيف بالبلاء، ويقويان على القوي بالسلطان، ثم ينقلبان عليه اقوى مما كانا بغير ولاية.

الموقف الثاني:

أن يعمل الإمام (ع) على الوقيعة بينهما ليفترقا، ولا يتفقا على عمل، وهو بعمله هذا سوف يعطي احدهما ويحرم الآخر، فمن اعطاه لا يضمن انقلابه، ومن

(١) اليعين والبسار في الإسلام / أحمد عباس صالح ١١٨ - ١١٩ .

(٢) نهج البلاغة ص / ١٩٥ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية / نقلاً عن الكاتب عباس محمود العقاد ص / ٨٤ .

حرمه لا يأمن ان يهرب إلى الأثرة كما هرب غيره إلى الشام ليساوم معاوية اويبقى في المدينة على ضغينة مستورة .

الموقف الثالث :

إن يعتقلهما (اعتقالاً سياسياً) أسيرين ولا يبيح لهما الخروج من المدينة إلى مكة حين سألاه الأذن بالمسير إليها، ثم خرجا منها إلى البصرة ليشنا الغارة عليه، وكان يعلم (ع) بأمرهما، حين سألاه الأذن بالسفر إلى العمرة فقال لهما:

«ما العمرة تريدان، وإنما تريدان الغدرة» .

وأغلب الظن لو ان الإمام أقدم على حبسهما، لأثار عواطف الناس عليه وتقموا حبسهما قبل أن تثبت البيعة بوزرهما . بل ربما شك بعض أنصاره في سياسته تجاههما .

ومن تلك الأحكام المرتجلة التي اتهموا الإمام بها قولهم في سياسة الإدارية، (والتي سنأتي عليها شرحاً وتحليلاً فيما بعد) وخصوصاً عزل معاوية والي الشام، وقبوله التحكيم في حربه ضده - في صنفين ومعروف ان الإمام (ع) لم يقبل بالتحكيم إلا بعد ان أحجم جنده عن الحرب ، ووقعت الخلافات في صفوفهم وأخذت تتفاقم إلى حد التهديد بالخطر والافتتال بين الرافضيين والقابليين بالتحكيم، حتى انهم هددوا بقتل الإمام كما قتل عثمان . وأحاطوا به يلحون في استدعاء الأشتر النخعي الذي كان يلاحق أعدائه، مستأسداً في ساحة الحرب على أمل النصر القريب .

أما المؤرخون الذين صوبوا رأيه في التحكيم وتخطأوه في قبول أبي موسى الأشعري على علمه بضعفه وتردده، يتسوقون ان أبا موسى الأشعري كان مفروضاً عليه، كما فرض عليه التحكيم والنتيجة واحدة متشابهة لو ناب عنه الأشعري أو ناب عنه الأشتر أو عبد الله بن عباس لأن عمرو بن العاص لم يكن ليخلع معاوية ويقر علياً بالخلافة، وان توهم بعضهم بأن الأشتر أو ابن عباس كان قديراً على تحويل ابن العاص عن رأيه والجنوح به إلى ضرب علي . . . فليس ذلك على التحقيق بمقنع معاوية أن يستكين ويستسلم وحوله المؤيدون والمترقبون للمطامع يعز عليهم اخفاقهم كما يعز عا . . . شخصياً .

فليس في أيدي المؤرخين الناقدين إذن حلّ اصوب من الحل الذي أذعن له الإمام (ع) على كره منه، سواء أذعن له وهو عالم بخطئه أو أذعن له وهو يسوي بينه وبين غيره في عقباه<sup>(١)</sup>.

أما عزله (ع) لمعاوية، فهي القضية التي استأثرت بأهتمام المؤرخين وكتاباتهم، حتى وصل بهم القول وبأن معاوية ضرورة حتمية في التاريخ العربي، باعتباره مرحلة من مراحل بناء الدولة وتركزها، جاعلين من معاوية رجل دولة وسياسة ودهاء التزم سياسة واقعية بارعة، مقابل سياسة خيالية مفرقة بالمثل الاخلاقية التي اتبعها خصمه الإمام علي (ع)<sup>(٢)</sup>.

والآن نسأل، هل كان بمستطاع الإمام علي ان يقر معاوية في عمله بالشام وهل كان موقفه هذا صحيحاً لو انه استطاع؟

ويجب الكاتب عباس محمود العقاد أن ليس بإمكان الإمام ان يقر معاوية في عمله لسببين :-

أولاً: لأنه أشار على عثمان مراراً بعزله، وكان وجود معاوية وأمثاله من الولاة المستغلين، أهم المآخذ على حكومة عثمان، فلو أمره فمأذا يكون موقف اشياعه فيه، وما سيقوله الناس؟

ثانياً: إذا هو أعرض عن رأيه الأول فهل في وسعه ان يعرض عن آراء الثائرين الذين بايعوه بالخلافة لتفسير الحال والخروج عن حكم عثمان إلى حكم جديد؟ . . . وندع هذا ونزعم أن أقرار معاوية بحيلة من الحيل مستطاع، فهل هو على هذا الزعم أسلم وأدنى إلى الوفاق؟ .

نقول: كلا على الأرجح، لأن معاوية لم يعمل في الشام عمل وال طوال حياته ويقنع بهذا النصيب ثم لا يتناول إلى ما وراءه، لكنه عمل فيها عمل صاحب الدولة

(١) دائرة المعارف الإسلامية/ عن عباس محمود العقاد، ص: ٨٦.

(٢) الدولة العربية إلى نهاية الدولة الأموية، ليوليوس فلها وزن، ترجمة عبد الهادي أبو رية ص: ١٥٨.

التي يؤسسها ويدعمها له ولأبنائه من بعده، فجمع الأقطاب من حوله، واشترى الانصار بكل ثمن في يديه وأحاط نفسه بالقوة والثروة واستعد للبقاء الطويل، واغتنام الفرصة في حينها، فأى فرصة هو واجدها خير من مقتل عثمان والمطالبة بثأره؟<sup>(١)</sup>.

يقول الإمام علي (ع) في هذا المقام «والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن كل غدره فجرة وكل فجرة كفره لا ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة»<sup>(٢)</sup>.

وقال في موقف آخر: «ولقد أصبحنا في زمان قد اتخذ أكثر اهله الغدر كياساً ونسبهم أهل الجهل منه إلى حسن الحيلة ما لهم! قاتلهم الله، قد يرى الحول القلب وجه الحيلة ودونها مانع من أمر الله ونهيه فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها، ويتهمز فرصتها من لا حريجة له في الدين»<sup>(٣)</sup>.

### طبيعة موقف الإمام (ع) ومعاوية من الصراع:

من المعروف تاريخياً، أن الأمويين كانوا ألد أعداء الإسلام، وانكد خصومه، منذ ان بزغ فجره، وحتى آخر مرحلة من مراحل حكمهم، ولم يدخلوا الإسلام إلا بعد (ان رضخت لهم على الإسلام الرضائع)<sup>(٤)</sup>، واستفقدوا جميع امكاناتهم في حربه وياؤوا بالفشل، ولما دخلوا فيه مرغمين، اخذ يعملون بدأب على تهميشه وتمزيقه، وإعادة مظاهر الجاهلية بأسلوب جديد ولبوس الإسلام.

والمعروف عند المؤرخين، ان معاوية<sup>(٥)</sup> قد نشأ في وسط، اغلظ الجاهليات

(١) دائرة المعارف الإسلامية / نقلاً عن الكاتب العقاد، ص: ٨٣ - ٨٤.

(٢) نهج البلاغة، رقم النص ٢٠٠.

(٣) نهج البلاغة، رقم الخطبة: ٤١.

(٤) نهج البلاغة.

(\*) هو أبو عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان القرشي الأموي، أمه هند بنت عتبة، اسلم بعد الفتح وولاه اخوه لما طعن في عمواس ١٨ هـ، فأقره عمر بن الخطاب وبني والياً على الشام حتى قتل عثمان فتمرد على الإمام علي (ع) وجهاز جيشاً لقتاله فتلاقيا في صفين سنة ٣٦ هـ. ولما لاح النصر لجيش علي (ع) خدعهم برفع المصاحف ودعوتهم الى حكمه ففرروا التحكيم فقتل عمرو بن العاص بأبي موسى، وفي سنة ٤١ هـ صالحه الإمام الحسن (ع) فأصبح خليفة المسلمين وتوفي سنة ٦٠ هـ.



القبلية التي حاربت الإسلام وأعرافه حتى انخضعها الإسلام بقوة السيف، نشأ فيها حتى صلب عوده وانتقل على كبرسته من مكة بعد فتحها إلى المدينة، ومن الجاهلية إلى الإسلام، ولم يمكث في المجتمع الإسلامي الناشئ إلا وقتاً قصيراً لا يكفي ليتطبع فيه بالطابع الإسلامي الجديد عليه ويتمرن به ليستطيع ان يؤثر على ذلك المجتمع الذي امتدت حضارته إلى آماذ بعيدة في الدهر، بل هو الذي تأثر بها.

وكان معاوية من ابرز الرموز التي اشتركت مع قريش في جميع مواقفها العدائية من الإسلام، وكان يبعد من ذلك المجتمع من كان يعترض سبيله من صحابة تطبّعوا بالطابع الإسلامي الأصيل نظراء أبي ذر وأبي الدرداء وقراء أهل الكوفة<sup>(١)</sup>.

ولم يدخل معاوية ولا أبوه وأمه في الإسلام؛ إلا قبل وفاة النبي (ص) ببضع سنين وكانوا يبطنون الشرك ولكن كما يحدثنا المؤرخون، بأن معاوية كان على قدر كبير من الكياسة والدهاء والمكر، ساعدته على ان يخفي أكثر ما كان يكره من سوء للإسلام وظهر للمسلمين بمظهر الحريص عليهم.

ونريد هنا ان نبين حقيقة موقف الإمام (ع) ومعاوية من الصراع وما لابسها من ظروف ذاتية وموضوعية، والذي كان له أثر فاعل وعميق في تاريخنا الإسلامي إلى يومنا هذا.

ويصدد طبيعة الصراع كان يوجد منذ البدء في طبيعة موقف الإمام (ع) الذي مثل اطروحة - الدعوة الإسلامية - وطبيعة موقف معاوية الذي كان يمثل خط الانحراف (الجاهلية)، ما يفرض أو ما يقرب النتيجة التي انتهى إليها الصراع بينهما<sup>(٢)</sup>.

وهناك عدة مؤشرات ونقاط يجب ان تكون موضع اعتبار الدارس، عندما يعرض لطبيعة الصراع المحتوم بين الإمام (ع) ومعاوية.

(١) شرح نهج البلاغة للمعتزلي/١/١٥٩.

(٢) اعتدنا: تحليلنا على آراء الشهيد الصدر/في سباحتنا من منة في النجف الاشرف.

## موقفي الهجوم والدفاع :

أولاً : كانت طبيعة موقف الإمام من الصراع وملايسات الظروف تتمثل بالهجوم على معاوية في عقرداره في الشام ، وتصفيته سياسياً فعمليته كانت على مستوى الغزو وكانت عملية معاوية على مستوى الدفاع ورد الهجوم .

فالإمام ( ع ) عندما تسلم مسؤولية الحكم في الدولة الإسلامية وجد نفسه مسؤولاً بشكل مباشر عن تصفية الانشقاق ومحاولة التمرد - غير الشرعي - الذي أوجده خط بني امية بشخص معاوية ووهم ممن وقفوا من الإسلام موقف خصومة وعداء ، وقد اعلنوا إسلامهم تقية ونفاقاً .

فكانت مهمة إزالة الانشقاق وتصفيتها من جسم الأمة الإسلامية هي مسؤولية وقدر الإمام ( ع ) ومن مشاكل دولته الملحة التي يجب ان يعالجها بأسرع وقت .

فالإمام ( ع ) حينما اختار عاصمته الكوفة ، حيث مركز قاعدته الشعبية فيها ، كان مطلبه السياسي الاول هو تعبئة هذه القاعدة - والتي يستند إليها في تسير الحكم - ثم العمل من خلالها ، على تصفية التجزئة غير المشروعة . والتي قدر لها ان تتركز في ثغر من ثغور المسلمين في الشام . واجبارهم بالقوة على الانضمام إلى الخط الشرعي .

فمهمة التخطيط لتصفية الانشقاق كانت تعني بالنسبة للإمام ( ع ) ان يبدأ معاوية بالهجوم والغزو ، ناقلاً قاعدته الشعبية ، ومكلفاً إياها بأن تقوم وتتحرك وتخرج من بلادها مهاجرة في سبيل الله تاركة أمنها واستقرارها ومعيشتها لكي تقضي على أزمة الانشقاق والتي تمثلت بالانفصال - غير المشروع - التي أوجدها معاوية في جسم الأمة الإسلامية .

بينما لم يكن معاوية على هذا المستوى من التخطيط ، ولم يكن موقفه موقف الغازي أو المهاجم بل كان همه الأوحيد أن يمسك بالشام ويكرس انفصالها عن باقي اجزاء الوطن الإسلامي وازاء هذه الحقيقة ، لا بد من ان ندرك فارقاً كبيراً يميز طبيعة كلا الموقفين وأثرها على طبيعة الصراع . . . فالفرق كبير جداً بين قائد يأمر جيشه بأن يتحرك من بلاده مهاجراً ليخوض معركة - هجومية - لا يوجد أي اعتبار أو دفاع

لخوضها، سوى احياء الرسالة الإسلامية واطروحتها للحياة، ولم تكن هناك أية دوافع خاصة وراء هذه المعركة حيث ان العراقيين لم تتعطل مصالحهم المادية، بسبب انفصال ولاية الشام عن جسم الوطن الإسلامي ولم يتلقوا معهم بعداوة سابقة، وإنما كانت اعتبارات الرسالة ودوافعها الإنسانية هي الاعتبار الوحيد، والدافع الذي يستصرخهم ويناديهم إلى خوض معركة تصفية الانشقاق، والقضاء على التجزئة التي منيت بها الأمة على يد اعدائها القدامى، ولا بد من إعادة ارض الشام للدولة والمجتمع الإسلامي.

فهم إذن وعلى ضوء هذه الحقيقة، يجب ان يكونوا مدفوعين للمعركة بدافع رسالي كبير أو ان يكونوا بمستوى عظيم من فهم القضية وادراك لابعادها وتبين لمضمونها، حتى يكونوا بمستوى العطاء لها، سواء بنفوسهم أو ارواحهم واموالهم فكان موقف الإمام علي (ع) يتطلب ويفترض ويطرح قضية الهجوم على اناس لا يملكون في غالبيتهم الوعي لخطورة وضعهم المانع في مواجهة الانحراف، انطلاقاً من عدم استيعابهم لابعاده.

بينما هذا المستوى من العطاء والجهد لم يكن هو اطروحة معاوية لجيشه، فهو لم يطالب جيشه بغزو العراق ولا باحتلال باقي اجزاء العالم الإسلامي، بل كان يمنيهم بسيادة واستقلال وفي النهاية وعلى الخط الطويل يحقق حلمه في زعامة العالم الإسلامي بعد أن يخلو له الجو، وتتهيأ له الفرص والمناسبات والظروف الموضوعية لكي يتأمر على الزعامة المطلقة في كل ارجاء العالم الإسلامي.

أما الأشخاص والقواعد الشعبية التي كانت تدور في فلك الإمام (ع) والتي استجابوا لنداء الحرب والقتال معه (ع) فقد كان منهم العدد الكبير من الواعين وانصاف الواعين والمتعاطفين لسبب وآخر هؤلاء هم الذين استجابوا لمطالب الرسالة منذ اللحظة الأولى وشعروا بأن واجبه الإسلامي يفرض عليهم تصفية التجزئة ووضع حد لها، فأعطوا من التضحيات ما أعطوا، وخاضوا عدة معارك بأسلة وقدموا للقضية الإسلامية التي طرحها الإمام عطاء لا يستهان به. . ولكن كان لابد لهذا العطاء من ان يتناقص تدريجياً، وذلك وفقاً لمستوى وعيهم للقضية، وخصوصاً رؤساء القبائل الذين دخلوا المعركة، وهم تحت سلطان الدولة برئاسة الإمام علي من ناحية

وتشجيعاً لأهل العراق ضد أهل الشام من ناحية أخرى، وطمعاً في السيادة والغلب إذا كتب النصر لعلي وهناك القوى المؤيدة لسياسته من الناحية الاجتماعية سواء عن الوعي أو بحكم وضعها الطبقي<sup>(١)</sup>.

ولهذا السبب لم تكن الاطروحتان متكافئتين، ومن حيث درجة الجهة ومن حيث درجة الطرح ومن حيث درجة الدفع والتحرك.

فهناك اطروحة تريد من الجيش ان يخرج من بيته مهاجراً يغزو في سبيل الله، واطروحة أخرى تريد من الجيش أن يبقى في بيته وأن يحافظ على استقلال وطنه في أرضه.

هذا الفرق الكبير بين الاطروحتين، ودرجة الجهد التي تتطلبها كل منهما، كان له دور كبير في طبيعة موقفيهما.  
«معركة تصفية الانحراف الداخلي»

ثانياً:

كان الإمام علي (ع) يواجه انحرافاً من داخل المجتمع الإسلامي الذي يحكمه نتيجة للظروف والملابسات السياسية والتاريخية التي سبقت حكمه إلى مسؤوليته (ع) في مواجهة تصفية التجزئة السياسية (في الشام) والتي كانت لها الأولوية في سلم مهامه الإصلاحية.

وكان لا بد للإمام (ع) أن يبادر لخوض معركة ضد الانحراف الداخلي الذي كان يعيشه المسلمون في العراق والحجاز والعالم الإسلامي بشكل عام.

فالإمام (ع) كان بين معركتين، معركة ضد (التجزئة السياسية) ومعركة (ضد الانحراف الداخلي) في المجتمع الإسلامي، والذي تمثل في سياسة سابقة، من التحيز اللا إسلامي<sup>(٢)</sup>، حتى شاهدنا جلياً كيف ان التجربة الإسلامية أخذت تنهار

(١) نفس المصدر السابق ص/ ١٣٨.

(٢) راجع ما كتبه في موضوع الميدان الإداري والسياسي/ص:

تحت وقع الضربات التي وجهها (المنافقون) مستغلين قياداتها، ومن ثم صادروا تلك القيادات بكل وقاحة وعنف، حتى تحولت الخلافة إلى ملك موروث يستهتر بالكرامات ويقتل الأبرياء ويبعث الأموال ويعطل الحدود ويجمد الاحكام<sup>(١)</sup>.

ومن هناك قدر الإمام (ع) في ان يصفي هذه الأوضاع المتحرفة ويقلم أظافرها وان يسترجع الأموال من الخائنين والبلد بحرب دون هوادة على كل الأفكار والمفاهيم غير المنسجمة مع خط الإسلام.

وقد شملت إجراءات الإمام (ع) بعض الزعماء المتنفذين كطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، وقد انكرا على الإمام (ع) سياسته واعتبراها مخالفة للنهج الذي افقه الناس.

ورد عليهما الإمام (ع): ما الذي كرهتما من أمري حتى رأيتما خلافي؟ قالا: إنك جعلت حقنا في القسم كحق غيرنا، وسويت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما آفاه الله علينا بأسيافنا ورماحنا وأوجفنا عليه بخيلنا ورجلنا، وظهرت عليه دعوتنا واخذناه قسراً قهراً ممن لا يرى الإسلام إلا كرهاً<sup>(٢)</sup>.

وقد دفعت هذه الاجراءات بهما ان دبوا حركة تمرد في البصرة استهدفت إسقاط حكم الإمام (ع) وذلك تحت ستار الثار لعثمان.

وعلى ضوء حقائق مجتمع الإمام (ع) وظروفه المعقدة. كانت تنتظره معركة كبيرة ومضنية في الداخل، حيث كان من المفروض لهؤلاء أن يكونوا عوناً بجانبه في معركته الخارجية في تصفية الإنشقاق.

وعلى العكس بالنسبة إلى معاوية، فانه لم يكن يعيش معركة تغيير وتصحيح داخل مجتمعه، بل إنه كان يعمد إلى «شراء الضمائر بالمال، ويفضل طائفة بحرمان أخرى ولا يهمه أن ينزل بداعي الضرائب من الزرع والتجار أفدح الظلم

(١) راجع للاستفادة بحث حول الولاية/ السيد الشهيد الصدر

(٢) علي بن أبي طالب - نظرة عصرية جديدة/ د. محمد أحمد خلف الله/ ص: ٣٢.

في سبيل الحصول على الأموال الكافية لتغذية أطماع حفنة من رؤساء القبائل لتكون على إستعداد تام في قمع ولجم أي حركة تحريرية تقوم بها جماعة من الناس<sup>(١)</sup>.

ومن الجدير بالإشارة - وكما تجمع عليه كل المصادر التاريخية - أن الشام دخلت الدولة الإسلامية بالفتح العسكري، ولم يدخلها الإسلام دخولاً كبيراً، بل دخلها بالإسم والشعارات فقط ولم يدخل بمضمونه الحقيقي الواعي إلى قلوب أهل الشام، فهم ما يزالون يعيشون راسباً جاهلياً متأثرين بالأفكار التي آمنوا بها قبل الإسلام، حتى ان أوضاعهم الفكرية والإجتماعية والسياسية لا تختلف بدرجة كبيرة عما كانوا عليه قبل الإسلام.

ولم يكن يرى معاوية أي تناقض بين أهدافه وأطروحاته، وبين المجتمع الشامي، الذي كان بوضعه الفكري والإجتماعي والسياسي مؤهلاً تماماً لتقبل أطروحة معاوية.

وكانت أهدافه تتلخص بزعامة ملكية قيسرية وهرقلية، لا تؤمن بالارتباط الحقيقي بالله تعالى، مستهدفة تحويل الإسلام إلى مؤسسة تخدم مصالح طبقة المستغلين على حساب مصالح الأمة، بينما أطروحة الإمام علي (ع) كانت تواجه انحرافاً مزمناً منذ وفاة النبي (ص)، وكان (ع) مسؤولاً عن تصفيتها وإزالتها دون رجعة.

وقد واجه (ع) الأطماع والأحزاب السياسية، التي تكونت في عهد عمر بن الخطاب حيث تفاقمت مشاكلها وتناقضاتها بعد عمر نتيجة للشورى، مما دعت هذه الزعامات والأحزاب ان تفكر في أمر مستقبلها السياسي، وتخطط في كيفية الاستفادة بأكبر قدر ممكن من الفائدة في خضم هذا التناقض.

أما معاوية فلم يمتني بصحابة (اجلاء) يعاصرونه، ويقولون له نحن صحابة

(١) ثورة الحسين/شمس الدين/ص: ٤٦.

كما أنت صحابي، بل أن أهل الشام مسلمين لاسلامه وإسلام أخيه يزيد من قبل، ولم ير أحد من الشاميين رسول الله (ص) ولم يسمعوا القرآن إلا عن طريق معاوية.

ولهذا كنا نرى حالة الاستسلام والطاعة التامة في المجتمع الشامي بالنسبة لمعاوية، ولا يوجد ما يناظرها بالنسبة إلى الإمام (ع) في مجتمع المدينة والعراق.

فمعركة الإمام (ع) الداخلية التي كان يواجهها، لم يكن معاوية يواجه نظيراً لها في مجتمعه الشامي.

### «مركز الإمام في نظر المسلمين»

ثالثاً:

إن مركز الإمام (ع) قبل الخلافة، وقبل خوض المعركة كان يختلف اختلافاً كبيراً عن مركز معاوية قبل خوض المعركة مع الإمام (ع).

فالإمام (ع) كان قد تكون له في نظر المسلمين - المفهوم الرسمي للخلافة - (الأمر الواقع) قبل تسلمه لمسؤوليات الخلافة وهو أن الإمام علي، ليس إلا صحابياً جليلاً، له خدمات جلي ثناء حياة الرسول (ص)، فحاله كحال غيره من الصحابة الأجلاء من ذوي الخدمات الكبيرة في زمن النبي (ص).

هذا الاتجاه الذي أدانه الإمام (ع) منذ اللحظة الأولى واستنكر ما اتجهت إليه مقررات السقيفة من تجميد لأطروحاته في الزعامة الفكرية والسياسية، وإسناد السلطة إلى غيره، وامتنع (ع) من تقديم البيعة لستة أشهر كاملة، حتى أن المسلمين وبالتدريج - وخضوعاً للأمر الواقع - وبحكم السياسة الحاكمة على يد الخلفاء الثلاثة - بدأوا يعاملون علياً على هذا الأساس (باعتباره الصحابي الجليل لا أكثر).

وبحكم هذا التقويم، كان يوجد كثير من الصحابة، ممن كانوا يرون أنهم لا يقلون عن الإمام (ع)، وإن قلوا فإنهم يقلون عنه، بدرجات، والفرق بينهم وبينه



فارق تافه.. فهم صحابة رسول الله (ص) وهو كذلك، هم أخذوا العلم من الرسول وهو أخذ العلم منه (ص).. فهم كانوا يعترفون للإمام (ع) بأنه الأفضل والأروع، والأكثر اجتهاداً منهم (على أفضل تقدير) ولكنهم كانوا يرون الفارق بينهم وبينه فارق درجة ليس إلا<sup>(١)</sup>.

هذا الوضع الذي تحدثنا عنه، لم يتواجد نظيراً له في المجتمع الشامي، فمعاوية كان يعيش في بلد لم يكن قد نشأت فيه زعامات سياسية طامحة إلى الحكم ولم يكن فيه أناس ذوي سابقة في الإسلام ممن يرى لنفسه الحق بالمساهمة في التخطيط ومن تقدير الأمور. هذا المجتمع الذي لم يكن يعرف غير معاوية وأخيه يزيد، لأن الشاميين - تاريخياً - دخلوا الإسلام على يد أخ معاوية وهو يزيد بن أبي سفيان والي بعثة أبي بكر إلى الشام، ولما مات يزيد بن أبي سفيان ولي أبي بكر بعده أخاه معاوية بن أبي سفيان<sup>(٢)</sup> ولم يكن قد مني بتناقضات من هذا القبيل.

فأهل الشام كانوا كفاراً ودخلوا الإسلام على يد معاوية وأخيه يزيد من قبل، فنظرتهم إلى معاوية نظرة إحترام وتقدير باعتباره همزة الوصل بينهم وبين الإسلام.

هذه الحقيقة، استفاد منها الأمويون، عندما حاربوا الحسين (ع) فيما بعد حاربوه باعتباره شخصاً مارقاً من الدين ومخالفاً للإمام الشرعي، وانطلقوا في محاربتهم إلى ما عهدوه من السند الديني للأمويين في نفوس الشاميين<sup>(٣)</sup>.

فنظرة أهل الشام ورجالاتهم إلى معاوية - على ضوء الحقيقة التاريخية - تختلف عن نظرة أهل المدينة والمراق إلى الإمام (ع) وهذه النظرة المختلفة بالذات

(١) الاحتجاج/ الطبرسي، راجع بحث حول الولاية/ السيد الشهيد الصدر.

(٢) صانعو التاريخ العربي/ د. فليبي حتي.

(٣) الدولة العربية سقوطها ولها وزن/ والطبري ج ٤ ص ٣٣١.

هي التي أوجدت باستمرار في حياة الإمام (ع) تناقضاً وكثيراً من الآراء والاجتهادات المتضاربة وامتناعاً في كثير من الأحيان عن قبول رأي الإمام (ع) بينما كان أهل الشام يتلقون أوامر معاوية بالتسليم والطاعة التامة .

أما الإمام علي (ع) فقد عاش في مدينة الرسول (ص)، حيث حاضرة الإسلام الأولى، التي عاش فيها الرسول (ص) وعاش بعد ذلك أبو بكر وعمر وعثمان، وقد واجه الإمام علي (ع) كثيراً ممن كانوا يرون أن من حقهم المساهمة في التخطيط والمشاركة في رسم الخط وواجه أشخاصاً كانوا يرون أنفسهم ندا للإمام وغاية الأمر إن الإمام (ع) ند أفضل ومقدم - ولكنهم بالتالي صحابة رسول الله والإمام صحابي عاشوا جميعاً مع رسول الله (ص) .

ومن المعلوم بأن خلافة الإمام (ع) جاءت بعد وفاة النبي (ص) بعشرين سنة، ويعني هذا أن الامتياز الخاص الذي تمتع به الإمام (ع) في عهد النبي (ص) كان قد انتهى مفهومه وتضاءل أثره في نفوس المسلمين بعد أن عاشوا عشرين سنة وكانوا يرونه مأموماً ومنتقاداً وجندياً بين يدي الخلفاء الذين سبقوه في الحكم .

هذا الوضع ولد إحساساً نفسياً لدى المسلمين اتجاه الإمام (ع) ظهر أثره في مصادرة تلك الآثار التي خلفها عهد النبوة .

فالصحابة الذين ساهموا في حل الأمور وعقدتها وساهموا في تثبيت خط السقيفة وقدر لهم أن يمشوا في خط الانحراف والذين قدموا للإسلام في صدر حياتهم، هؤلاء الصحابة كانوا ينظرون للإمام علي (ع) باعتباره الأخ الأكبر دون أن يروا أن إسلامهم مستمد من خطه، هذه الحقيقة التي كانت واضحة في عهد النبوة حرفت من خلال عهد الخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان، ولهذا كان الصحابة يعترفون بأن علياً هو الأفضل دون أن يروا أنفسهم مجرد تابع يؤمر فيطيع .

فكان هناك صحابة من هذا القبيل، يريدون أن يساهموا في التخطيط ويشاركوا في رسم الخط، في ظرف دقيق وحساس . لا تتحملة عقولهم القاصرة .

يقول طه حسين «وكان بينه (ع) وبين معاوية اختلاف آخر يغري الناس به ويجمعهم، كان (ع) يدبر أمور أصحابه على ملأ منهم، لا يستبد من دونهم بشيء، وإنما يستشيرهم في الجليل والخطير من أمره، وكان يرى الرأي فيأبونه ويمتنعون عليه، ويضطرونه إلى أن يتخذ رأيهم هم، ويحتفظ برأيه لنفسه وكان ذلك يغريهم به ويطمعهم فيه.

ولم يكن معاوية يعطي أصحابه بعض هذا الذي، كان يعطيهم (ع) لم يكن يستشيرهم وإنما كان المشيرون من خاصته، فكان إذا أمر اطاعه أهل الشام دون أن يجمعوا فضلاً عن أن يجادلوا، ثم كان معاوية يحتفظ بسرّه كله لا يظهر عليه إلا من أراد أن يظهره عليه خاصته، وكانت أمور علي (ع) كلها تدبر على ملأ من الناس لا تخفي على أصحابه من أمره خافية مهما يكن خطرها.

كان علي (ع) يدبر خلافة، وكان معاوية يدبر ملكاً كان عصر الخلافة انقضى وكان عصر الملك قد أطل<sup>(١)</sup>.

رابعاً: إستقلال معاوية بأقليم من أقاليم الدولة الإسلامية - الشام - وهذا الأقليم لم يكن للإمام علي (ع) أي رصيد أو قاعدة شعبية تسانده أو تواليه.

ومن المعلوم تاريخياً أن أقليم الشام دخل الإسلام بعد وفاة رسول الله (ص) والإمام بعيد عن الحياة السياسية، منعزل عن خط العمل الإجتماعي الفاعل، وقد دخل اقليم الشام ودشن حياته الإسلامية بولاية يزيد بن أبي سفيان أخ معاوية الذي تولى قيادة الشام بعد أخيه يزيد.

وتعني هذه الحقيقة - التاريخية - أن الشاميين عاشوا الإسلام بمنظار - آل أبي سفيان - أما علي (ع) فلم يسمع له ذكر عندهم، ولم يتفاعل مع وجودهم الإسلامي

(١) الفتنة الكبرى/ طه حسين/ ص: ١٦٥.

والعقائدي وهو بالتالي لا يملك شعاراً له وصيد أو قاعدة شعبية توأله في المجتمع الذي يتزعمه معاوية ويحمل فيه لواء الانشقاق على الدولة الإسلامية .

وفي الجانب الآخر ترى العكس، فإن معاوية كان يملك شعاراً له وصيد، وقاعدة شعبية قوية في نفس المجتمع الذي تزعمه الإمام علي (ع) .

فمعاوية كان يحمل شعار - الخليفة المقتول - والمطالبة بدمه، وكان عثمان الخليفة القتيل زعيم المجتمع الذي تولاه بعده الإمام علي (ع) . وكان لعثمان قواعد أو وجود كبير في هذا المجتمع، ولهذا جاء شعار معاوية متجاوباً ومتلاقياً مع قاعدة ورسيد شعبي داخل مجتمع الإمام (ع)، بينما لم يكن شعار الإمام علي (ع) يلتقي مع قاعدة ورسيد داخل مجتمع معاوية في الشام .

خامساً: كان هناك فرق آخر بين الإمام (ع) ومعاوية، وهو أن الإمام (ع) كان يتبنى قضية هي في صالح الأضعف من أفراد المجتمع، وكان في حكمه ينهج نهج الإسلام الذي يستجيب لحاجات عامة الناس .

أما معاوية فقد تبنى قضية هي في صالح الأقوى من أفراد المجتمع . الإمام (ع) كان يتبنى الإسلام بما فيه من قضايا العدالة الاجتماعية التي يمثلها النظام الاقتصادي للإسلام وهذه القضايا لم تكن في صالح الأقوى بل كانت في صالح الأضعف . . ومعاوية كان يمثل الجاهلية بفوارقها وعنفوانها وطبقاتها، وهذا لم يكن في صالح الأضعف، بل كان في صالح الأقوى .

ومن المعلوم تاريخياً إنه بعد وفاة رسول الله (ص)، حينما دخل العراق والشام، وبقيّة البلاد ضمن إطار المجتمع الإسلامي، لم يتمكن الخلفاء الذين تزعموا قيادة المسلمين، على تدوير النظام القبائلي الذي كان موجوداً في هذه

الأقاليم، بل بقي التنظيم القبائلي سائداً، وبقي زعيم كل قبيلة هو الرابط بين قبيلته وبين السلطان .

وهذا التنظيم القبائلي بطبيعة تكوينه، يخلق جماعة من الزعماء المتفذين، ومن شيوخ هذه القبائل، الذين لم يرتبهم الإسلام، لأنهم لم تنح لهم فرصة معايشة أيام النبوة عيشاً صحيحاً، مما جعل من هؤلاء، طبقة معينة ذات مصالح وذات أهواء ومشاعر في قواعدها الشعبية، مما يوفر لهم أسباب النفوذ والاعتیاد عليهم.

فالمجتمع الإسلامي الذي تركه الخلفاء وورثه الإمام (ع) كان يعج بالتقسيمات القبلية بحيث أن كل قبيلة كانت تخضع إدارياً وسياسياً لزعامة واحد من أولئك الشيوخ الذي كان بمثابة همزة وصل بين قبيلته والحاكم، وهذه الحالة تسهل مهمة الحكام المنحرفين في أن يرشوا رؤساء هذه القبائل بقدر الإمكان، وهذا ما كان يفعله المنحرفين من الحكام، وكان عاملاً من عوامل القوة بالنسبة إلى معاوية.

وبينما كانت حكومة الإمام علي (ع) تسير على نهج إسلامي خالص كانت حكومة معاوية في الشام تسير على نهج آخر في الحكم يقوم على شراء الضمائر بالمال، يغذي به أطماع حفنة من رؤساء القبائل العربية يؤلفون جهازه العسكري المتأهب دائماً لقمع أي حركة تحريرية تقوم بها جماعة من الناس.

فقد كان رؤساء القبائل في العراق يرون سياسة معاوية فيعجبون بها، فهي تلي ما يطمحون إليه من غنى ووجاهة وارتفاع قدر، بينما هم لا يجدون شيئاً من هذا في حكومة الإمام.

فكان المجتمع مجتمع قبلي يدين لرؤسائه بالطاعة المطلقة.

وهؤلاء الرؤساء يطمحون إلى المزيد من القوة والسلطان والغنى والمنزلة الاجتماعية، ولا يجدون شيئاً منها عند الإمام (ع) بينما يجدونها عند معاوية كما يشتهون.

ويقول هؤلاء الرؤساء أن حكومة معاوية خير من حكومة علي وهي بخير لهم بلا إشكال، وتسمع القبيلة مقالة زعيمها فتدين بها.

على هذا النحو كانت سياسة معاوية تؤثر في العراق، وقد وعى ذلك جماعة من المخلصين للإمام فقالوا له:

«يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم، واستمسل من تخاف خسلافه من الناس»<sup>(١)</sup>.

ولكن الإمام (ع) أجابهم قائلًا:

«أنا مروني أن أطلب النصر بالجور. لو كان المال لي لسويت بينهم فكيف وإنما المال مال الله؟ ألا وإن اعطاء المال في غير حقه تذيير وإسراف وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة، ويكرمه في الناس ويهينه عند الله»<sup>(٢)</sup>.

وقد صارت الشام ملاذًا لمن يغضب عليه الإمام لخيانة خانها في عمله أو جريرة جرها على نفسه ومطمحًا لمن يريد الغنى والمنزلة، فيجد عند معاوية الأكرام والرفعة، والعطاء، والمنزلة الاجتماعية.

وقد كتب الإمام (ع) إلى عامله سهل بن حنيف في شأن قوم من أهلها لحقوا بمعاوية:

«وإنما هم أهل دنيا مقبلون عليها، ومهطمون إليها، وقد عرفوا العدل ورأوه وسمعوه ووعوه، وعلموا أن الناس عندنا أسوة، فهربوا إلى الأثرة، فبعدا لهم وسحقاً»<sup>(٣)</sup>.

وقد كان الإمام (ع) يعرف كيف يجعلهم إلى صَفِيهِ لو أراد، فيفضلهم، ويعطيهم الأموال ويجعلهم على رقاب الناس، ويرضي غرورهم القبلي، ولكن

(١) شرح نهج البلاغة ١ - ١٨٢.

(٢) شرح نهج البلاغة ١ - ١٨٢.

(٣) نهج البلاغة رقم النص ٧٠.

ذلك كان ينقلب به إلى جبار يدعم ملكه بالسيف، بدل ان يكون أبا للرعية قد عم سلطانه القلوب، لقد قال لهم مرة:

«واني لعارف بما يصلحكم ويقيم أودكم، ولكني لا أرى إصلاحكم بافساد نفسي» (١) (٥).

هذه الظروف الموضوعية التي مر ذكرها انفاً، لم يصنعها الإمام (ع) وإنما صنعت من خلال تاريخ طويل، وهي التي أوجدت لمعاوية مركزاً قوياً مقابل مركز ضعيف للإمام (ع)، ولولا براعة الإمام وتضحيته، وكفاءته ورصيده الروحي في قطاعات شعبية واسعة، لما استطاع (ع) أن يجيش الجيوش لحروب داخلية دامت قرابة أربع سنوات.

سادساً: دعوى (الحسن والوعى) إن دعوى الإمام علي (ع) في معاوية لم تكن على مستوى (الحسن) إنما كانت على مستوى (الوعى) والواعون لم يكونوا كل المسلمين بل أغلب الناس عادة يخضعون في فهمهم للواقع لتفسيرات سطحية. أقرب ما تكون إلى الحسن، والتي تستسلم للأسباب القريبة الجاهزة التي تبدو للعين من أول نظرة، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث عما وراء الواقع الحسي، أو يحاولوا التعرف على الرسالة البعيدة التي ساهمت في نشوء هذا الواقع أو ذلك (٢).

أما دعوى معاوية في علي (ع) فقد صورها وأخرجها وكأنها على مستوى (الحسن) والناس كلهم يعيشون «الحسن» وقلّة منهم يعيشون حالة الوعي الرسالي.

الإمام علي (ع) كان يقول في معرض إشارته إلى معاوية بأنه لا يمثل خطأ من خطوط الإسلام ورسائله العظيمة، وإنما يمثل جاهلية أبيه (أبوسفيان) وإنه يريد أن يقضي على الكيان الإسلامي وتحويل المجتمع الإسلامي إلى مجتمع آخر، لا يؤمن بالإسلام وبالقرآن ويريد للخلافة أن تتأطر بإطارات قيصرية وكسروية.

(١) نهج البلاغة رقم النص ٦٧.

(٢) مفاهيم إسلامية عامة/الحلقة الخامسة/السيد محمد حسين فضل الله / ص: ٤٣.



كان هذا هو إدعاء الإمام (ع) في معاوية .

أما إدعاء معاوية في الإمام (ع) . فكان يقول: بأن الإمام (ع) أثار الناس وهيجهم للثورة على عثمان بن عفان، الخليفة الشرعي وقتئذ، وإن أصحابه وأهله، كانوا في طليعة الثوار على عثمان، وإن علياً (ع) قد خطط عن طريق هؤلاء الأصحاب لقتل عثمان ومن ثم تريخ على كرسي الحكم بعده «ومضى يتجادل على أساس هذه الدعوى الحسبية بينما أخفى هدفه الأصيل طي الكتمان، ولم تلبث المجادلات حول الحجة تتراكم حتى تغطي فعلاً على الحقيقة»<sup>(١)</sup>.

ما أقرب دعوى معاوية للتصديق على مستوى (الحسن)، وهل هناك شخص يعيش الأرقام التي كان يقدمها معاوية عن هؤلاء الأصحاب والتي باشرت بنفسها قتل عثمان، أو التي ساعدت وحرضت على ذلك أمثال: محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة، وأبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر، ومالك الأشتر، وعبيد الله بن مسعود وغيرهم من المسلمين الذين كانوا الدعامة الشعبية لحكم الإمام (ع) «وقد جاهر عمار بالهجوم على الخليفة، كما جاهر أبو ذر باتهام الخليفة وعماله بالخروج على الشريعة الإسلامية وراح يحض الأغنياء على أن يطرحوا كثر المال حتى نفاه عثمان إلى الشام ليكون تحت رقابة معاوية، وكان يحرض الفقراء، ليقوموا بالثورة وكان محمد بن أبي حذيفة، ومحمد بن أبي بكر في مصر يدعوان إلى مثل ما دعا به أبو ذر وفي الكوفة هاجم الأشتر حكم عثمان بخطاب ناري يتهمه بالجور والظلم»<sup>(٢)</sup>.

فهل هناك تفسير أقرب إلى الحسن، من أن يكون الإمام علي (ع) قد قتل الخليفة عثمان بيد، واستلم الحكم ليتريخ عليه باليد الأخرى؟ . .

نقول - على ضوء هذه الحقائق - أن تفسير معاوية كان مقبولاً إلى حد ما لأنه كان قريباً من (الحسن) .

(١) اليعين واليسار في الإسلام / ص: ١١٨ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية / ص: ٩٧ .

أما تفسير موقف الإمام (ع) من معاوية، فقد كان يحتاج إلى قدر كبير من الوعي والتفهم.

ولا ننسى بأننا اليوم، ننظر إلى معاوية، بعد ان انتهى وانكشف لنا أمره، وافتضحت نواياه للجميع، عندما صعد المنبر عام الجماعة، معلقاً بكل صراحة ووقاحة عن هدفه ونواياه قائلاً: «ما حاربتم لتصلوا وتصوموا ولتحجوا ولا تركوا ولكني قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وانتم كارهون»<sup>(١)</sup> ونحن ننظر إلى معاوية بعد أن ارتكب الفظائع وغير أحكام الشريعة وأبدع في السنة وقتل المئات من الأبرياء والأخيار كحجر بن عدي والأبطال الأبرار من أخوان حجر، وبعد أن سمّ الإمام الحسن بن علي (ع)، ويعد أن أعطى ولاية العهد إلى ابنه الفاسق الفاجر - يزيد - متحدياً معاهدة الصلح التي أبرمها مع الحسن (ع) ضارباً بها عرض الحائط، والذي قال فيها:

وكنيت قد منيت الحسن وأعطيته أشياء وجميعها تحت قدمي لا أفي بشيء منها.. وأن كل مال أو دم أصيب في هذه الفتنة لمطلول، وكل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين»<sup>(٢)</sup>.

وكذلك بعد أن أمر يسبّ علي (ع) على منابر المسلمين إلى أن يشب علي ذلك الصغير ويهرم عليه الكبير، والحاقد زياداً بأبيه، مخالفاً بذلك حكم القرآن وسنة الرسول (ص)، وإجماع الأمة، وبدد أموال المسلمين ووزعها على أنصاره واتباعه، ولم يخرج من الدنيا إلا بعد أن سلط ولده على رقاب المسلمين وهم له كارهون»<sup>(٣)</sup>.

نحن الآن عندما نكتب في تاريخ معاوية بن أبي سفيان ننظر إليه من خلال هذه المقاييس والاعتبارات، بعد أن انتهى وأصبح في ذمة التاريخ، أما أولئك

(١) أعيان الشيعة ج ٤ ص: ٢٦، وابن أبي الحديد في شرح النهج.

(٢) ن. م، وسيرة الأئمة الاثني عشر/الحسن ج ٢ ص: ٩٢.

(٣) سيرة الأئمة/الحسن ج ٢ ص: ٩٣.

الجماهير الكبيرة من المسلمين فلم يكونوا ينظرون لمعاوية بهذا الاعتبار والمنظار لأنهم لم يعيشوا هذه الاحداث بهذا الوضوح الذي ننظر إليه الآن .  
فلواسقطنا النظر عن تأريخ معاوية فيما بعد ولاحظنا معاوية فيما قبل ، ولاحظناه بمنظار ذهنية أولئك الجماهير - غير الواعية، التي عاشت مع أبي بكر وعمر وعثمان، وفضلتهم على الإمام علي (ع)، وتاملنا تلك الجماهير - غير الواعية - وهي تطرح السؤال التالي :

من هو معاوية؟ فتكون الإجابة: بأنه أحد صحابة رسول الله (ص) وقد تسلم عمله كوالي للشام، بعد وفاة الرسول (ص)، وهو أحد معتمدي الخليفة أبي بكر الصديق وقد أرسله الأخير قائداً لجيشه في سوريا، ومن ثم ولاه عمر بن الخطاب عليها، وكان عمر يوليه درجة كبيرة من ثقته، وخصوصاً أن الخليفة عمر، هو ذلك الشخص الذي تقدسه الجماهير وحتى أن عمر عندما أراد أن يؤدب ولاته استثنى معاوية من إجراء التأديب، وحينما أراد أن يقاسم أموال ولاته، استثنى معاوية من ذلك، فمعاوية كان في نظر الخليفة عمر بن الخطاب والياً موشوقاً به، محترماً ومعزواً من الناحية الإسلامية، وبعد عمر جاء عثمان، ليوسع من نطاق ولاية معاوية بإضافة بلاد أخرى إلى ولايته في الشام.

ومن هنا ندرك بأن معاوية بذلك المنظار ليس هو معاوية الذي ننظر إليه هذا اليوم بل كان شخصاً عنوانه الإجتماعي إنه حريص على كرامة الإسلام، فمعاوية (قبل) كان يطالب علياً بقتل عثمان، وكان يتهمه بالتحريض على قتل خليفة المسلمين الشرعي (عثمان) ويقول في الإمام (ع) بأنه قادر على إقامة الحد والقصاص على قتلة عثمان، وكان يعقب على تسوالة هذا بأن علياً يحاول التخلص من هذه المسؤلية، فلذن لماذا لا يسلم قاتل عثمان؟ . . . وإن لم يكن يقدر على ذلك، فهو أذن عاجز عن تطبيق الشرع، فليعتذر إذن عن مسؤلية الخلافة وليأتي شخص آخر أجدر منه لخلافة المسلمين<sup>(١)</sup> لأن الخليفة الحق يشترط فيه القدرة على تطبيق أحكامه فقد كتب للإمام يقول له: وقد بلغني أنك تتصل من دم عثمان وتبرأ منه،

(٢) صاموا التاريخ العربي / حتى ص: ٦٥

فإن كنت صادقاً فادفع إلينا قتلته كي نقتلهم به، ثم نحن أسرع الناس إليك وإلا فليس بيننا وبينك إلا السيف، والذي لا إله غيره لنظلمن قتلة عثمان في الجبال والرمال<sup>(١)</sup>.

بهذه الادعاءات والشعارات المضللة، واجه معاوية الناس ليخرج الإمام (ع) أمام جماهيره - غير الواعية - والإمام (ع) في مواجهة لهذه الادعاءات المضللة والمخادعة لم يكن يريد أن يصرح بأن عثمان كان السبب الرئيسي في مقتله، وكان جديراً بأن يقتل لانحرافه لأنه لو صرح بهذا لأكد اتهام معاوية ضده أمام جماهيره - غير الواعية - وليس هناك من يعرف بأن عثمان يستحق القتل، فكثير من الناس البسطاء يقولون: عثمان قتل مظلوماً، فلا بد من القصاص.

هذه هي دعوى معاوية بالإمام علي (ع). ومن مجموع هذه الظروف والملاسات المعقدة، تواجدت بالتدرج بذرة (الشك) في مجتمع الإمام علي (ع) هذا الإمام العظيم الذي خاض المعركة على رأس هذا المجتمع لتصفية الانحراف من الداخل والانحراف من الخارج والذي كان يريد أن يوحي جماهيره (الشاكّة) بأن المعركة ليست معركة زعامة شخصية أو وجوده الخاص ولا معركة قبيلته أو عشيرته وأمجاده التاريخية، وإنما هي معركة الإسلام مع جاهلية الأرض، بل هي معركة الحفاظ على أمانة الله التي جاهد من أجلها عشرات الآلاف من الأنبياء والمصلحين. وكان يخطب جماهيره موعياً إياهم بقوله «اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لئلا نرد المعالم من دينك ونظهر الإصلاح في بلادك وتقام المعطلة من حدودك، اللهم إني أول من آتاك وسمع وأجاب، لم يسبقني إلا رسول الله (ص) بالصلاة، قد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين، البخيل فتكون في أموالهم نهمته ولا الجاهل فيضلمهم بجهله ولا الجافي فيقطعهم بجفائه. ولا الحائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في

(١) انساب الاشراف ج ٢ ص: ٢٧٨

الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع، ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة،<sup>(١)</sup>

لقد كان الإمام (ع) يسعى دائماً إلى توعية جماهيره على واقع المعركة وطبيعتها المقدسة، ولكن الجماهير بدأت تشك في واقع المعركة وطبيعتها - بفضل الظروف والملايسات المعقدة - وأخذوا يزدادون عناداً وتصلباً في موقفهم كلما دعاهم الإمام (ع) إلى الدخول في طاعته والسير إلى قتال معاوية، وكان يقول لهم:

وأحمد الله على ما قضى من أمر وقدر من فعل وعلى ابتلائي بكم، أيتها الفرقة التي إذا أمرت لم تطع، وإذا دعوت لم تجب إن أهملتكم خضتم، وإن حوربتم خرتم، وإن اجتمع الناس على أمام طفتكم، وإن اجتمعتم إلى مشاققة نكصتم،<sup>(٢)</sup>.

هذه الجماهير يبدو إنها أصابها التعب وأرهقها تكليف الجهاد، بعد أن قدمت للإسلام كثيراً من التضحيات التي لا يمكن أن يؤديها كثير من المجتمعات إلا أن نفسها في مواصلة خط الجهاد لم يكن طويلاً ومتواصلًا، فقد كان الانحراف ذا نفس أطول.

إن جماهير الإمام علي (ع) التي أرهاقها تكليف الجهاد الطويل، والقتال من حرب إلى حرب، حيث قدموا من التضحيات الشيء الكثير، لقد بذلوا أموالهم وأنفسهم في حروب ثلاثة متوالية، والآلاف منهم قتلوا واستشهدوا، وقد تيممت أطفالهم، وترملت نساءهم، وتهدمت مدنهم وقراهم، حتى إنهم صاروا يشعرون بأنهم في حالة غير طبيعية هذه الجماهير أخذت تشعر رويداً رويداً، بأنها طلقت الدنيا وطلقت الأهل والأولاد والأموال، في سبيل قضية لا تمس مصالحهم الشخصية، ومن هذه الأرضية، أخذوا يوحون إلى أنفسهم بالشك والتميع عادة يوحى بالشك، وقد يخلق في الإنسان الشك، لأن من مصلحته أن يشك لأن رغبة هذه

(١) نهج البلاغة ص: ١٨٩

(٢) شرح النهج / ابن أبي الحديد ج ١٠ ص: ٦٧.

الجماهير بإيقاف هذا التزييف والحروب المتوالية، كانت رغبة نفسية جامحة وكانت الدافع لخلق الشك ومبرراتها اللامنطقية (الذاتية) وهذه المبررات تأتي - عادة - نتاجاً لهذه الرغبة النفسية، في أن يتبدل الحال إلى ما كان عليه قبل اعباء هذا المخطب الفادح، وتحمل مسؤولياته.

والمعروف أن كل إنسان (بطبعه) يميل إلى الدعة والكسل، فإذا وضعت أمامه مهام كبيرة، حينئذ إذا وجد مجالاً للشك في هذه المهمة فسوف يكون عنده دافع نفسي إلى أن يشك... يشك لأنه يريد أن يشك، ولأن مصلحته ان يشك، وهذا ما حصل مع الإمام علي (ع) فالعراقيون قدموا وبذلوا الكثير من التضحيات في حروب ثلاثة، وقد ماتوا واستشهدوا، وحلت بهم الكثير من المآسي والمحن، ولكنهم أخذوا يتساءلون لأجل ماذا هذه الحروب؟ لأجل أن يزداد مالهم وجاههم لا، وإنما لحساب الرسالة وهدفها الكبير، وهذا الهدف الكبير أعز من كل النفوس والدماء والأموال، ولكننا يجب أن نقدر موقف هؤلاء الذين ضحوا وبذلوا ثم أصبحوا يشككون، لأن من مصلحتهم أن يشككوا وأصبح الإمام يدفعهم إلى المعركة فلا يندفعون، ويحركهم فلا يتحركون لماذا؟ لأن من مصلحتهم أن يبرروا للمعركة مفهوماً تلقيقياً جديداً وهو أن المسألة مسألة تناطح زعامتين زعامة علي ومعاوية وما بالننا أن يكون أحدهما زعيماً، نحن نقف على الحياد ونتفرج ويتم الأمر لأحدهما.

هذا التفسير الذي أوحى به بمصلحة هؤلاء، كانت عقبة كأداء دون أن يتحركوا إلى خط الجهاد، هذا الحال هو الذي جعل الإمام (ع) يبكي من على المنبر وينعي أصحابه الذين استشهدوا ولم يشكوا في خطه والذين كانوا ينظرون إليه كامتداد لرسول الله (ص) من قبيل عمار وأمثاله، عمار الذي وقف بين يدي الإمام (ع) في صفين واضعاً سيفه على بطنه قائلاً لامامه (ع):

«والله إنك تعلم لو كان رضاك أن تغمد هذا السيف في بطني حتى أخرجته من ظهري لفعلته والله انك تعلم إنني لا أعلم رضا إلا في قتال هؤلاء الناكثين والقاسطين المنحرفين».

كان الإمام علي (ع) يبكي أمثال عمار، لأنهم كانوا قد ارتفعوا فوق هذه



الشكوك وقد طلقوا مصالحتهم الشخصية لمصلحة الرسالة وفي سبيل إعادة مجد المجتمع الإسلامي ووحده، .. أما الباقيون فقد بدأ - الشك يتسرب إلى نفوسهم، بدأوا يشكون في إمامهم (ع) حتى إنه تمنى الموت لأنه أصبح يحس بأنه انقطع عن هؤلاء وانفصل عنهم، وقد أصبحوا لا يفهمون أهداف رسالته ولا يتفاعلون معه فكرياً وروحياً.

وما أكثر خطبه وكلماته التي أعلن فيه شكواه منهم، ويرمه بهم من ذلك قوله (ع):

«يا أشباه الرجال ولا رجال! حلوم الأطفال، وعقول ربات الخجال، لوددت إنني لم أركم، ولم اعرفكم معرفة والله جرت ندماً، واعقبت سدماً. قاتلكم الله لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً، وجرعتموني نغب التهمام أنفاساً وأفسدتم علي رأبي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب»<sup>(١)</sup>.

بالإضافة إلى ما ذكرناه انفاً، كانت هناك مؤثرات وعوامل أخرى ساهمت ومهدت لخلق حالة الشك (الذاتي) اللاموضوعي في شخص الإمام (ع) نذكر بعض منها:

أولاً: الصحابة الذين كانوا يعرفون بالسورع والتقوى، في نظر الناس والمتلبسين بلباس الأتقياء العقائديين المثاليين «وكان بعض هؤلاء يتمتعون باحترام محدود في قواعدهم القبلية، وهذا الاحترام لم ينبع من ولاء فكري بل من ولاء قبلي، كما كانوا يتمتعون باحترام محدود من جماهير المسلمين تابع من صحبتهم للنبي (ص) ومن غموض موقفهم من الخيارات المطروحة على الساحة السياسية»<sup>(٢)</sup>.

هؤلاء الصحابة لم يبلغوا من الصفاء والوعي درجة تحملهم على الانضواء تحت قيادة الإمام علي (ع)، وكانت مصالحتهم من جهة وأثارة من التقوى في أنفس

(١) نهج البلاغة: رقم الخطبة: ٢٧.

(٢) حركة التاريخ عند الإمام علي (ع)/محمد مهدي شمس الدين ص: ١٤٨.



بعضهم من جهة أخرى، قد حملنا هؤلاء على التزام جانب الحيطة والحذر من نهج معاوية (الجاهلي)، فلم ينحازوا إليه في هذه المرحلة، وإن كان بعضهم قد والى النهج في النهاية

وتمثلت هذه القيادات بأمثال، سعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن عمر، وأنس بن مالك، وزيد بن أرقم، والحسن البصري، وسعيد بن مالك وغيرهم من الذين اعتزلوا السياسة العامة، بعد مقتل عثمان بن عفان، تحت شعار البعد عن الفتنة، وكانوا يوصون الجماهير بأن المعركة ليست صحيحة، ويقولهم:

«القاعد فيها خير من القائم، والنائم فيها خير من القاعد، والماشي فيها خير من الساعي».

وكان هؤلاء في موقفهم هذا قد خدموا معاوية خدمة كبرى حينما جعلوا من أنفسهم فريقاً يعطل عمل الطاقات الثورية في مجتمع الإمام علي (ع)، تحت شعار الورع والبعد عن الفتنة

هؤلاء عبر عنهم الإمام علي (ع) بقوله:

«خذلوا الحق، ولم ينصروا الباطل»<sup>(١)</sup>.

ولما قال له الحارث بن حوطة: أتراني أظن أصحاب الجمل كانوا على ضلالة؟ قال له الإمام (ع):

«يا حارث إنك نظرت تحتك، ولم تنظر فوقك فحرت، إنك لم تعرف الحق فتعرف من أتاه».

فقال له الحارث: فأني اعتزل مع سعيد بن مالك وعبدالله بن عمرو.. فأجابه الإمام (ع) قائلاً:

«وان سعيداً وعبدالله بن عمرو، لم ينصروا الحق، ولم يخذلوا الباطل»<sup>(٢)</sup>.

(٢) نهج البلاغة: باب الحكم، رقم: ٢٦٢.

(١) نهج البلاغة، باب الحكم رقم: ١٨.

ثانياً: الإيحاء الذي جاء من قبل الصحابي، أبي موسى الأشعري، كان له أثر كبير أكبر بكثير من الإيحاء الذي جاء به الصحابي عمار بن ياسر، فإيحاء الأخير يكلف الموت، ومواصلة الجهاد، والتنازل عن الحياة وملاذها.

أما أبو موسى الأشعري، فإيحاؤه كان يعطي الحياة ويمنح السلام، ولسان حاله يقول لهم: حافظ على حياتك وابتعد عن الأخطار، وأجلس في بيتك، ودع الإسلام مع أخطاره واعدائه.

عمار بن ياسر صحابي كبير، وأيضاً أبو موسى الأشعري صحابي كبير، ولكن أحدهما يكلفك بالموت، والآخر يمنحك الحياة.

الإنسان الاعتيادي البسيط، حتماً سوف يختار ويفضل إيحاء أبي موسى الأشعري، على إيحاء عمار بن ياسر، لأنه يريد الاحتفاظ بحياته ولو كانت حياة رخيصة، تحت ظلال معاوية وظلال جاهليته وأحكامها.

ثالثاً: وهناك عامل النزاع التقليدي القائم بين بني أمية، وبني هاشم وقد امتد هذا النزاع إلى ما بعد الإسلام، مساهماً هو الآخر، بتعميق الشك، حيث بدأت الأذهان والنفوس الشاكة تفتش عن نقطة ضعف في المعركة، فأخذوا يثيرون هذا النزاع كنقطة ضعف وتبرير للانهازم من واقع المعركة، مشيحين حول معركة الإمام (ع) مع معاوية بأنها ليست إلا استمراراً لذلك الصراع التقليدي التاريخي بين بني أمية وبني هاشم سعياً وراء الحكم بما هو سلطان سياسي يوطد سيطرة أسرة قرشية على مقدرات المسلمين بدلاً من سيطرة أسرة قرشية أخرى، واخذوا يصورون المعركة بهذا (البعد الذاتي) ولسان حالهم يقول، مالنا نحن وهذا الصراع، ليكون أيا منهم زعيماً أما نحن لنقف على التل ونفزع على نهاية الصراع.

كل هذه العوامل، وعوامل أخرى، ساعدت أن يكون الإمام (ع) موضع شك من قبل الجماهير وأن يكون الطامع المثالي والرسالي للصراع غير واضح عند الجماهير، حتى أن الإمام (ع) كان يصعد المنبر مراراً، يدعو الناس فلا يستجيب له أحد ويقول لهم:

ويا أهل الكوفة كلما سمعتم بجمع من أهل الشام أظلمكم انجحر كل

امرئ منكم في بيته، وأغلق عليه بابيه اتججار الضب في جحره  
والضبيع في وجارها المغرور من غررتموه، ومن فاز بكم فاز بالسهم  
الأخيبي لا أحرار عند النداء، ولا أخوان عند النجاء، أنا لله وإنا إليه  
راجعون، ماذا منيت به منكم، عمي لا يبصرون وبكم لا ينطقون وصم  
لا يسمعون، إنا لله وإنا إليه راجعون»<sup>(١)</sup>.

ويقول في موقف آخر:

«لله أنتم أمسا دين يجمعكم، ولا حمية تشحذكم أو ليس عجباً أن  
معاوية، يدعو الجفساء الطغام فيتبعونه على غير معونة ولا عطاء وأنا  
أدعوكم وأنتم تريقة الإسلام وبقية الناس، إلى المعونة أو طائفة من  
العطاء فتفرقون عني وتختلفون عني»<sup>(٢)</sup>.

«أف لكم لقد سئمت عتابكم، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً،  
وبالذل من العز خلعاً إذا دعوتكم إلى جهاد عدوكم دارت أعينكم كأنكم  
من الموت في غمرة، ومن الذهول في سكرة ما أنتم لي بثقة سجين  
الليالي، وما أنتم بركن يمال بكم. وأيم الله، إني لأظن أن لرحمي  
الوغي واستحمر الموت، قد انفرجت عن ابن أبي طالب انفرج  
الرأس»<sup>(٣)</sup>.

وهكذا كان الإمام يستثير همهم وعزائمهم، فلا تنبض لهم همّة، ولا تنهض  
لهم عزيمة... لأنهم بدأوا يشكون بالإمام (ع)، والشك في القائد، هو أفسى ما  
يمنى به القائد، هو أفسى ما يمنى به القائد المخلص وهو أخطر وألعب ما تمنى به  
الأمة التي يتزعمها هذا القائد البار.

وحرارة الشك وألامها العميقة الواضحة كل الوضوح في كلام الإمام (ع)  
حيث يقول:

(١) الكامل/ ابن الأثير ج ٢/ ص: ١٨٨.  
(٢) شرح النهج/ ابن أبي الحديد ص: ٦٧ ج ١٠  
(٣) شرح النهج/ ابن أبي الحديد ج ٢ ص: ١٨٩.

«اللهم إني مللتهم، وملوني، وسئمتهم وسئمونني فأبدلني بهم خيراً  
منهم وأبدلهم بي شراً لهم مني، اللهم مث قلوبهم، كما يماث الملح  
في الماء»<sup>(١)</sup>

وفي خطبته الشقشقية يقول:

«فلما نهضت بالأمر نكحت طائفة، ومرقت أخرى، وقسط آخرون،  
كأنهم لم يسمعوا الله سبحانه وتعالى يقول (تلك الدار الآخرة نجعلها  
للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين)، أما  
والذي، فلق الحبة، وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة  
بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء لا يقرأوا على كظة ظالم ولا  
سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، وسقيت آخرها بكأس أولها  
ولألقيتم دنياكم هذه ازهد عندي من عفة عترة»<sup>(٢)</sup>.

أن الإمام علي (ع) «قبل الحكم، اذن بمزيج من التشاؤم والأمل، ولكن  
سرعان ما تسرب الذبول إلى شعلة الأمل، فان القوى المترددة والمتمظهرة بمظهر  
التقوى وأصحاب رسول الله (ص) سرعان ما أخذت تنحاز رويداً رويداً نحو  
المعسكر المناهض للإمام (ع)، إن لم يكن في العلن ففي السر هذا من جهة ومن  
جهة أخرى راحت الجماهير الغاضبة، المترعة قلوبها بآمال التغيير تضغط في سبيل  
التغيير دون أن تقدر ظروف المرحلة، وكان اتباع سياسة متوازنة ضرورة حيوية لئلا  
يتفجر المجتمع من الداخل بانحياز قوي موالية للإمام (ع) ولكنها غير واعية وغير  
ناضجة، نحو معسكر الثورة المضادة.

وهكذا، فبعد الصدمة التي شلت قوى الثورة المضادة، وبعد فترة الإنتظار التي  
مرت بها الفئات الأخرى من الأمة، تفجّر الموقف من جديد، وعاد الغليان إلى  
المجتمع، وعادت حالة الإختلاط والإضطراب المحمومة . .  
وظهرت للإمام علي (ع) في هذه المرحلة التي بلغت فيها أزمة الحكم وأزمة

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن أبي حديد ج ١ ص: ٣٣٢.

(٢) نهج البلاغة: /صبيح الصالح ص: ٥٠ .

الفكر الذرورة - بفعل حالة الشك اللاموضوعي - ظهرت له بوضوح تام موجع ومدم للقلب معالم تأريخ المستقبل للأمة الإسلامية، حافلاً بالأهوال والمآسي، ويكفل ما فيه من ظلام ودماء، وتمزقات وانهيارات، تتخللها هنا وهناك، في بعض الأحيان، لمعات نور وحالات سلام عارضة، وآمال مضيئة ملهمة وخيبات أمل قاسية.

لقد رأى بحدس بضيئه نور نبوي، وعقل مستوعب لحركة التأريخ، رأى الفريضة آتية بكل ظلامها وحيلها، وتلبسها الحق بالباطل.

ورأى بعدها انتصار حركة الردة بقيمها الجاهلية، بلبسها للإسلام (لبس الفرو مقلوباً)

ورأى بعد ذلك معاناة الأمة: فسمع بقلبه الكبير أنين المظلومين الذين تسحقهم أنيابها الوحشية، ورأى بقلبه الكبير نزيف الدماء من ضحاياها، وأحسر بأعماق كرامته الإنسانية ذل الإنسان المسلم في مجتمع الردة، ويكسى بحرار ومراة لكل ما سيصيب الناس بعده<sup>(١)</sup>.

وبالرغم من ملابسات الشك (الثاني) ومرارتها في قلب الإمام (ع)، لم يضعف ولم يتراجع، بل بقي في خطه يواصل عملية التعبئة لجهاد معاوية، وضرب الانشقاق إلى آخر سنة من حياته، بل آخر يوم من حياته الشريفة، عندما خرّ صريعاً مضرجاً بدمه الطاهر في مسجد الكوفة وهو في قمة محاولاته لتصفية الانشقاق، وقد كانت بدايات جيش مجهز للخروج إلى الشام للقضاء على المعسكر المنفصل<sup>(٢)</sup>، وقد استشهد الإمام (ع) ولكن الصراع استمر بقيادة ولده الحسن (ع).

ولكن باستشهاده (ع) قضت قوى الردة على آخر أمل في إعادة خط التجربة

(١) قال الشريف الرضي في نهج البلاغة، روى عن نوف البكالي: قال خطبنا أمير المؤمنين (ع) بالكوفة، وهو قائم على حجارة وكان جبينه تهنه بعير فقال (ع) . . . قال: وعقد للحسين (ع) في عشرة آلاف ولقيس بن سعد في عشرة آلاف، ولأبي أيوب الأنصاري في عشرة آلاف، ولغيرهم على أعداد آخر وهو يريد الرجعة إلى صفين، فما دارت الجمعة، حتى ضربه الملعون ابن ملجم لعنه الله فتراجعت المسائر فكانت كأغنام فقدت راعيها تختطفها الذئاب من كل مكان

(١) راجع حركة التاريخ/محمد مهدي شمس الدين/ص: [١٥٠]

الصحيحة وذلك الأمل الذي اختلج في نفوس المسلمين الواعين، متجسداً في شخص الإمام العظيم. الذي عاش منذ اللحظة الأولى، هموم الدعوة وآلامها وشارك في بناء تجربتها الرائدة لبنة لبنة، وأقام صرحها مع الرسول (ص) ورافق معه كل مراحل الدعوة بكل همومها ومشاكلها وآلامها فكان (ع) الأمل الوحيد في نظر المسلمين الواعين لاسترجاع التجربة خطتها الصحيح وأسلوبها النبوي المستقيم، بعد أن استفحل الانحراف وتعمق داخل إطار التجربة الإسلامية ولم يكن هناك أمل يقهر الانحراف وتحديه إلا بشخص الإمام (ع).

ولهذا جاء اغتياله الغادر (ع) تقويضاً حقيقياً لآخر أمل حقيقي لقيام مجتمع إسلامي صحيح.

يقول المفكر الإسلامي (الجزائري) مالك بن نبي:

«لقد عرف العالم الإسلامي، أول انفصال في تاريخه في معركة (صقين) عام ٢٨ هـ، إذ كان يحمل بين جنبيه بعد قليل من سنوات ميلاده، تناقضاً داخلياً حيث كانت «حمية الجاهلية» تصطرع مع «الروح القرآنية»، فجاء معاوية فحطم ذلك البناء الذي قام لكي يعيش، ربما إلى الأبد بفضل ما تضمنته من توازن بين عنصر الروح وعنصر الزمن ومنذ ذلك الانفصال الأول، فقد العالم الإسلامي توازنه الأولي على الرغم من بقاء الفرد المسلم متمسكاً في قرارة نفسه بعقيدته التي ينبض بها قلبه المؤمن»<sup>(١)</sup>.

«ولم تكن صقين تاريخاً عادياً، بل كانت تاريخاً فاصلاً بين الكيان الاجتماعي والسياسي النبوي العظيم، الذي حمل الدفعة القرآنية الفلدة، وبين كل ما سيأتي بعدها حتى سقوط نظام الخلافة.

وبالتأكيد لم يكن ذلك الانفصال الذي شق وحدة الأمة يعني نهايتها، ذلك لأن تواصلها الإسلامي استمر أكثر من ثلاثة عشر قرناً فيما بعد، ولكنه كان يعني أن

(١) مالك بن نبي/ وجهه العالم الإسلامي ص: ٢٥



التوازن الإسلامي الذي صاغ دولة رسول الله (ص) ومبجتمعه، قد أصابه خلل خطير<sup>(١)</sup>.

ولذا فقد كانت صفتين مرحلة بين حكم الإسلام وبين الانحراف وقد كان هذا هو جوهر كلمات عبد الرحمن بن أبي بكر، حين وقف مروان بن الحكم يدعو إلى أخذ البيعة ليزيد ليخلف أياه بعد وفاته ويؤكد على أن في ذلك خير للمسلمين ودرء لأنفسهم، فقام عبد الرحمن صارخاً في وجهه، كذبت والله وكذب معاوية ما الخيار أردتما لأمة محمد ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما هرقل قام هرقل<sup>(٢)</sup>.

وكان أن بدأت منذ يوم صفتين، عملية تفاعل وتآكل لا تتوقف، بين بنية المجتمع الإسلامي، والنظام الإسلامي الصحيح فلكن كانت نهاية دولة الخلافة، إشارة هامة على عودة بعض النوازع الجاهلية إلى العمل، فإن تحول الخلافة إلى ملك قد أثر تأثيراً كبيراً في إستمرار الضرورة الرائعة التي عاشها المسلمون في السنوات الأولى وما أن جاء النظام الجديد حتى - أصبح للطبقة الحاكمة امتيازات ولأذيلها منافع ولحاشيتها رسوم وانقلبت الخلافة ملكاً، وملكاً عضوضاً، كما قال عنه رسول الله (ص) في وثبة من وثبات الاستشفاف الروحي العميق<sup>(٣)</sup>.

وهكذا تكاثرت المتفعون من حول النظام بدلاً من أهل الرأي والنصيحة، وبدأ أن الحق العام تتسلل إليه أيدي من لا حق لهم، ورغم اتساع رقعة الإسلام، إلا أن «روحه انحسرت بلا جدال»<sup>(٤)</sup>.

فقد كانت عوامل القوة التي سكنت المجتمع الإسلامي كآثر من آثار (الدفعة القرآنية الأولى) هي التي تقدمت بالإسلام لترفع رايته فوق نصف المعمورة ولتنشيء تلك النهضة العالمية الكبرى، ولكن ظهور النوازع الجاهلية، وانحراف

(١) راجع مجلة المختار الإسلامي / العدد ١٩ / السنة الثانية / ١٥ صفر ١٤٠١ يناير ١٩٨١

(٢) ابن الأثير / ج ٣ ص : ١٩٩ نقلاً عن كتاب النظريات السياسية الإسلامية ضياء الدين الريس ص ١٥ .

(٣) راجع العدالة الاجتماعية / سيد قطب ص : ٢١٧ - ٢١٨

(٤) راجع العدالة الاجتماعية / سيد قطب ص : ٢١٧



الحكم عن جوهر النظام الإسلامي، ثم تلك الشوائب التي شابت صفاء المنبع هي التي أدت بمجموعها إلى انحسار الروح الإسلامية<sup>(١)</sup>.

وكانت تلك النقلة في الفكر الإسلامي اتجاهاً نحو أقرار ما بعد صفين، لم تعد الأمة الإسلامية كمصدر للسلطة تحت حاكمية الله، هي التي تحدد منظور البحث والممارسة وسيطر قبول عام بالأمر الواقع، فمن مفهوم الخلافة إلى الملك العام القوي ومن الملك العام إلى عصبية الطوائف والدويلات.

وترى أن هذا الواقع المنحرف انعكس بشكل واضح وذا صبغة تبريرية لواقع الحكام، في كثير من كتابات المفكرين السنة كابن تيمية في كتابه «السياسة الشرعية» وذلك في قبوله بالفكرة القائلة:

«أن السلطان ظل الله في الأرض، وإن ستون سنة من امام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان»<sup>(٢)</sup>.

\*\*\*

الإمام علي يختار الكوفة مركزاً لخلافته:

المعلوم - تاريخياً - من أن الإمام (ع) بعد أن فرغ من حرب الجمل، انتقل بحكومته من المدينة إلى الكوفة واتخذ الكوفة قاعدة لحكمه، والكوفة يومئذ مركز الثقل في المجتمع الإسلامي الناشئ، ولوجود الاتباع والقواعد الشعبية الموالية لحكم الإمام (ع) روحياً وعاطفياً، وإن كانت هذه القواعد لم تع رسالة الإمام (ع) وعياً حقيقياً كاملاً.

وكانت المدينة المنورة تمثل مركز القيادة السياسية والروحية للأمة الإسلامية، إذ كان فيها أغلب المهاجرين والأنصار.

والسؤال هنا لماذا تغيير مركز الخلافة؟ وخصوصاً أن المدينة كانت تتمتع

(١) مجلة المختار الإسلامي ص: ٥٠.

(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص: ٢١٠ نقلاً عن مجلة المختار الإسلامي.

بقدرسية خاصة في نفوس المسلمين، وقد استطاعت أن تثبت عملياً صلاحيتها لذلك ما يقرب من خمسة وثلاثين سنة فهل كان هذا التغيير أمراً عفويماً من الإمام (ع) أم انه امر مدروس؟ في نطلق خطة ذات ابعاد استراتيجية واعتبارات عسكرية وقيادية؟

ويمكن لنا أن نتعرف على ملامح هذه الخطة، من ملاحظة الظروف والاحداث القاسية التي واجهت الامام (ع)، فقد كان يواجه تحدياً سافراً من تلك الفئات التي كانت تحلم بالحصول على امتيازات اكبر على حساب الدين والأمة وعلى حساب الشرعية فبعد معركة الجمل، وبعد أن تفرق المتمردون وأرجعت عائشة الى بيتها، وجدد الناس بيعتهم له (ع) في البصرة واستتب الأمن، ولاها ابن عمه عبدالله بن العباس، وخرج منها بعد شهر أو شهرين من انتهاء المعركة متجهاً نحو الكوفة ليتخذها مقراً له<sup>(١)</sup> لأن الإمام (ع) قبل وقوع العصيان المسلح الذي قام به الحلف الثلاثي (طلحة، والزبير، وعائشة) كان يعد العدة لارسال جيش قوي إلى الشام يتولى قيادته بنفسه لاقضاء معاوية عنها، مما دعاه إلى أن يرجيء أمر معاوية ريثما يسوي حسابه مع هذا الحلف، ويفوت عليهم الفرصة التي كانوا يحلمون بها، وبالطبع خلال تلك المدة كان معاوية قد استعد استعداداً كاملاً، ووجد في تمرد المنشقين عنه في الحجاز، فرصة لانجاح خطته. فانقاد إليه أهل الشام، وأظهروا غضبهم لمقتل عثمان، وحرصهم على الطلب بدمه من علي وأصحابه وألحوا عليه في ذلك وهو مع ذلك يتأني ويتخذ التدابير الكافية لكل الاحتمالات، وكان مع ذلك يطمع في العراق ويرسل الى زعمائها وقادة الجيوش من يمنيهم ويغريهم حتى انقاد إليه جماعة منهم، كل ذلك لم يغيب عن علي (ع)، وقد وضعه في حسابه فأثر ان يكون على مقربة من معاوية فأختار الكوفة، ليكون في مركز القوة عسكرياً وسياسياً<sup>(٢)</sup>.

وواضح من اختيار الامام (ع) ان المدينة لا تتوفر فيها عوامل النجاح

(١) سيرة الأئمة/الحسني ج ٢ ص: ٤٦٤ .

(٢) راجع سيرة الأئمة/الحسني ص: ٤٦٥ - ٤٦٦ .

العسكري والسياسي إذا ما أخذ حجم التحدي بنظر الاعتبار، ومهما يكن من أمر فإننا نستطيع ان نجعل وضع المدينة في مجال تقييم قدرتها على تحمل المواجهة في الأمور التالية<sup>(١)</sup>:

أولاً: ان المدينة لم تكن تتوفر فيها كثافة سكانية كافية تستطيع ان تتحمل اعباء المواجهة للتحديات التي تنتظر هذا الحكم الجديد إذا ما أخذ حجم هذا التحدي بعين الاعتبار، فلقد كانت تلوح في الأفق رايات العصيان والتمرد على الشرعية، فلقد استغل أهل الأطماع فئات كبيرة من الناس وضللوها بالشبهات واستغلوا فيها بساطتها وعدم نضجها الرسالي، لأنها منذ البداية لم تتح لها فرصة التعرف على الإسلام الصحيح، وإنما عاشت الإسلام المتمثل بالسقيفة وما أفرزته من اسلام منحرف تربت ونشأت عليه وكلنا يعرف أن الاسلام الأموي، ما هو إلا اسلام اطماع ومآرب ولا يمكن أن يقاس باصالة اسلام الامام علي (ع) وعمقه ووعيه للرسالة.

وإذا كانت كل هذه الفئات لم تتفاعل مع الإسلام الحقيقي تفاعلاً يسمح لها بالرؤية الصحيحة لأنها لم تعرف غير الاسلام الأموي ولا سيما بلاد الشام التي افتتحها يزيد ومعاوية ابن أبي سفيان عسكرياً في عهد أبي بكر، وظلت تعيش في ظل حكمهم باستمرار فمن الطبيعي ان لا تتورع عن مناهضة الشرعية والتمرد عليها.

ومن أين للمدينة أن تؤمن لعلي (ع) الجيش الذي يقدر به على المواجهة والاحتفاظ بالموقع، فضلاً عن انزال الضربة القاصمة والنصر؟ وبديهي ان الاستعانة بالاعراب حول المدينة، ان لم تكن مضرّة، فلا أقل من انها سوف لا تكون كافية لتحقيق كامل الاهداف وبشكل مرضي ودقيق.

أما الاعتماد على النجدات من سائر الاقطار الأخرى كالعراق وفارس مثلاً، فربما يكون من السهل جداً على اعداء علي (ع) عرقلة ومنع وصول من يريد

(١) راجع للاستفادة/ مجلة الحكمة/ العدد السنة/ استراتيجية الامام/ للعالمي ص: ٣٣.

الوصول إليه منهم بشكل طبيعي وسليم .

ثانياً: لا تتوفر في المدينة الموارد الاقتصادية الضخمة التي تستطيع تأمين احتياجات جيش يعدّ بعشرات الألوف، لأنها ارض صحراوية قاحلة، ليس بها زرع ولا ضرع . وهي بعيدة عن مناطق التموين .

ثالثاً: إن المدينة لم تكن شديدة الولاء للشرعية المتمثلة بعلي (ع) حيث مركز ثقل الأمويين ومحبيهم من التميميين، والزييريين، ومن يسمي اليهم من أهل الاطماع، وبالتالي كل من وترهم الاسلام على يد الإمام علي (ع) . . . ومعنى اعتماد المدينة كقاعدة للخلافة وعاصمة لها هو ان تكون الاسرار العسكرية، متوفرة لدى الجهة المنوالة، وان تكون جبهة الامام (ع) امام تحدي الانهيار من الداخل وعرضة للأعمال الخيانية لصالح الناصحين والقاسطين . وذلك لوجود اعوانهم ومحبيهم بين ظهرائي السلطة الحاكمة التي يستحيل ان تقدم على اي اجراء ضد أي شخص ما دام ذلك الشخص لم يثبت اي اتهام ضده، حتى تثبت ادانته بالطرق الشرعية .

رابعاً: ان الجيل الجديد الذي تربى في المدينة لم يكن قد اعتاد الحياة الصعبة التي تتطلبها الحروب الطويلة الطاحنة التي خاضها الامام علي (ع) لأن شباب المدينة كانوا قد اعتادوا حياة الرخاء والدعة، لأنهم صاروا يعيشون على العطاءات السخية التي كان يقدحها عليهم الخلفاء الذين سبقوا علياً (ع) حتى أصبح من الصعب عليه التخلص من اجواء الرفاه التي يعيشونها ثم التضحية بأنفسهم والتعرض للمصاعب والمشاق التي تتطلبها الحروب .

خامساً: لقد كان الاسلام جديداً على العراق، وكانت العادات القبلية والجاهلية، لا تزال تتحكم في روابطه وعلاقته الاجتماعية وكانت الحروب فيه محكومة لزعماء القبائل عموماً، لا للإيمان والمقيدة، وكانت المدينة ابعد عن ذلك ولو بشكل محدود، فكان اغواء اهل العراق من قبل معاوية اقرب احتمالاً واسهل منالاً، وإذا صار العراق مع معاوية، فان وضع المدينة العسكري والاقتصادي، سوف يصير حرجاً جديداً، ولهذا فلا بد من تدارك الأمر وحفظ العراق أولاً، ثم

استغلال روح التنافس التي كانت قائمة بين القطرين العراق والشام، وحتى الروح القبلية أيضاً وتوظيفها في صالح الاسلام والامة بدلاً من ان يستغلها معاوية في غير هذا السبيل.

وهكذا نجد أن المدينة لا تستطيع في هذه الظروف بالذات ان تكون عاصمة للخلافة، ومنطلقاً لتحركاتها بحرية، وإنما نجد الكوفة على الضد، فهي بالإضافة إلى قربها من الشام والبصرة، وموقعها الوسط في قلب العالم الاسلامي، مضافاً إليها المميزات التالية:

١ - امتلاكها للطبقات البشرية، والتي تمكنها من مواجهة التحدي مهما كان كبيراً.

٢ - قدرتها الاقتصادية، على التمكن المستمر للجيش التي سوف تواجه الحرب. لما تملكه هي والمناطق القريبة اليها من ثروات زراعية وموقع تجاري حيوي في المنطقة سواء بالنسبة للفرس أو العرب على حد سواء.

٣ - ضآلة قدرة الأخطبوط الأموي، والتميمي، والزييري ومن ترههم الاسلام على يد علي (ع)، على التحرك والمناورة فيها.

٤ - لم يكن أهل الكوفة قد تعودوا على لذائذ الحياة وزبارجها، فكان سهل عليهم التضحية وخوض غمار الحروب وتحمل الصعاب.

ولهذه الاسباب جميعاً، جاء اختيار الامام (ع) للكوفة، وذلك لاعتبارات استراتيجية وعسكرية فرضت عليه ذلك، ولم يكن نقل العاصمة ضرباً من العفوية والارتجال<sup>(١)</sup>.

رفض الامام (ع) للمساومات، هل كان عناداً؟

بقيت ظاهرة مهمة في حياة الإمام (ع) عندما كان حاكماً متصرفاً ومصرفاً

(١) راجع للاستفادة مجلة الحكمة/العدد الرابع/ السنة ١٤٠٠ هـ مقالة استراتيجية الكوفة في خلافة الامام علي (ع) للعالمي/ص: ٢٩ - ٣٣.

لشؤون المسلمين نود مناقشتها والقاء الضوء عليها، ألا وهي اصرار الامام (ع) وتأكيد الواعي منذ أن مارس الحكم الى أن خرّ صريعاً، على رفض كل الصيغ وانصاف الحلول التي واجهته في تصفية الانحراف، ولم يفكر مطلقاً بمساومة الانحراف ومهادنته على حساب الأمة بأي شكل من الأشكال.

هذه الظاهرة من حياة الإمام (ع) السياسية - رفض انصاف الحلول او قبول المساومات - استرعت انتباه واقلام اغلب المؤرخين، قديماً وحديثاً، وقد جاءت تحليلاتهم وكتاباتهم فجة بعيدة عن واقع التاريخ وعن فهم صحيح لحقيقة مرقف الامام (ع).

أما الإمام علي (ع) فقد كان حريصاً كل الحرص في معالجة مشاكل عصره، وعلى اعطاء العناوين الأولية الأصيلة للصيغة الإسلامية للحياة، والوقوف على التكليف الواقعي - الأولي كما يسميه الأصوليون - دون ان يتجاوزها الى ضرورات استثنائية تساووية تفرضها طبيعة الملابس والظروف الأنية العاجلة.

وسوف نتناول هذه الظاهرة، ونناقشها على مستويين: المستوى السياسي والمستوى الفقهي<sup>(١)</sup>.

## الدوافع والاسباب:

١ - المستوى السياسي: وعلى الصعيد السياسي، نرى أن هناك اشخاصاً عاصروا الإمام (ع) وكان رأيهم في الإمام (ع) ومعالجته لمسائل الحكم واصرارهم على استبعاد أو رفض كل اشكال المساومات وانصاف الحلول لوناً من ألوان العناد، وهو بالتالي يعقد الموقف ويشير الصعاب في دولته، ومعناه ترسيخ تلك المشاكل، وبالنهاية عجز الإمام (ع) عن مواجهة حلها، وسوف تشغله عن مهامه الرئيسية في ادارة الحكم والمضي بتجربته الى حيث يريد، وخصوصاً ان الاصرار والالحاح على التمسك بالمواقف المبدئية سيجعل القضية في طريق مسدود ولا

(١) استفدنا في هذا البحث على ما جاء في محاضرة للسيد الشهيد الصدر على طلبته في النجف الأشرف.

بأس ان يعتبر كلا الطرفين المتنازعين ان هذا الأمر تنازلاً مرحلياً من قبله ليخطط على ضوئه للمرحلة المقبلة من المفاوضات مثلاً<sup>(١)</sup>.

وقد جاءه المغيرة بن شعبة مقترحاً ابقاء معاوية والياً على الشام ريثما تستتب الأمور وبعد ذلك سوف لا يبايع، وبالإمكان استبداله وتغييره بعد ان تتم البيعة في كل اطراف الدولة للإمام (ع).

ونفس القول قاله جرير بن عبدالله للإمام (ع) طالباً منه أن يوسطه للأمر «ابعثني يا أمير المؤمنين الى معاوية فآتيه فادعوه علي ان يسلم لك هذا الأمر، ويجامعك على الحق علي ان يكون اميراً من أمرائك وعاملاً من عمالك»<sup>(٢)</sup>.

ولكن الامام (ع) رفض عرض جرير بن عبدالله ورد عليه قائلاً:

«اذهب إلى معاوية بكتابي، فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون والا فأنبذ إليه وأعلمه أنني لا أرضى به اميراً، وان العامة لا ترضى به خليفة»<sup>(٣)</sup>.

أما معاوية فيزور جرير بمتزله مساوماً اياه بقوله:

«يا جرير اني قد رأيت رأياً، قال: هاته. قال: اكتب إلى صاحبك (علي) يجعل لي الشام ومصرأ جباية فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده بيعة في عنقي وأسلم له هذا الأمر، وأكتب إليه الخلافة».

ويكتب جرير ناقلاً مضمون الرسالة للإمام (ع) ويجيبه الامام

(ع):

«أما بعد إنما أراد معاوية ألا يكون لي في عنقه بيعة وان يختار من أمره ما يحب، وأراد أن يرثك حتى يذوق الشام، وأن المغيرة بن شعبة قد كان

(١) من حياة اهل البيت/ التسخيري ص: ٢٦.

(٢) كتاب صفين ٢٧ - ٢٨ لتصرفين مزاحم.

(٣) ن. م ص: ٢٨.



أشار عليّ أن استعمل معاوية على الشام، وأنا بالمدينة فأبيت ذلك عليه، ولم يكن الله ليراني اتخذ المضللين عضداً، فإن بايعك الرجل، والا فأقبل».

فالإمام (ع) في جواب هذا الشخص رفض كل هذه المساومات وانصاف الحلول، واستمر في خطه السياسي الرافض، مؤكداً سياسته في رفض هذه التنازلات بقوله (ع):

«ولكنني آسى أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها فيتخذوا مال الله دولا، وعباده خولاً، والصالحين حرباً، والفاسقين حزباً، فإن منهم الذي قد شرب فيكم المحرام، وجلد حدا في الاسلام، وإن منهم من لم يسلم الا بعد ان رضخت له على الاسلام الرضائح»<sup>(١)</sup>.

وقال بصدد الأموال المغصوبة وردها إلى بيت المال:

«وكل مال اعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال فإن الحق لا يطله شيء، ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق»<sup>(٢)</sup>.

ومن هنا بالذات، جاء قول بعض معاصريه، ويرده عندنا بعض المؤرخين والكتاب بأن الامام (ع) كان بإمكانه أن يسجل نجاحاً أكيداً ونصراً محققاً من الناحية السياسية على اعدائه لو قبل انصاف الحلول ومارس هذا اللون من المساومات ولو بشكل مؤقت.

٢ - المستوى الفقهي: وتناوله من خلال مفهوم فقهي شائع يدعى (بقانون التزاحم) أو ما يسمى في البحوث السنية (بالاستحسان)، ويعنون به أن الواجب الأهم إذا توقف على مقدمة محرمة، لا يجوز تركه بحجة حرمة المقدمة بل يجب المحافظة على الواجب الأهم، فمثلاً عندما يتوقف انقاذ انسان من الغرق على اجتياز أرض لا يرضى صاحبها باجتيازها ففي هذه الحالة، يجيز لنا الشارع

(١) نهج البلاغة ج ١ ص: ٥٩ وشرح النهج ج ١ ص: ٢٦٩ - ٢٧٠.

(٢) نهج البلاغة ج ١ ص: ٥٩ وشرح النهج ج ١ ص: ٢٦٩ - ٢٧٠.

المقدس اجتياز الأرض حتى ولو بدون رضى المالك، وتسقط حرمة هذه الملكية لأن عملية الانقاذ أهم من المقدمة المحرمة، وهي اجتياز الأرض دون رضى المالك. وكذلك «إذا ترس الكفار المحاربون اثناء الحرب بالمسلمين الأسرى واضعين ايهم امامهم ليتقوا هجوم المسلمين، ولم يكن للمسلمين سبيل بالوصول إلى العدو الا باختراق صفوف المسلمين الاسرى، ويسفك دمايهم، فيكون جائزاً سفك دمايهم إذا كانوا يشكلون عقبة في انتشار الرسالة الاسلامية وبهذا المعنى كتب الشهيد الأول في اللمعة الدمشقية يقول:

«وهكذا يجوز قتل الترس ممن لا يقتل، ولو ترسوا بالمسلمين كف ما أمكن ومع التعذر فلا قود ولا دية»<sup>(١)</sup>.

وكذلك عندما كان الرسول (ص) في بعض غزواته مضطراً إلى الخروج من المدينة عن طريق معين. تعترضه مزارع مملوكة لأصحابها. وكان الجيش بطبيعة مروره يتلف كثيراً من محاصيل هذه المزارع، مما دعا أصحابها ان يطالبوا الرسول (ص) بالتعويض عما أصابهم من ضرر فلم يجبهم الرسول (ص) كل ذلك لأن النتيجة كانت أهم من المقدمة، لأن هذا الجيش الفاتح كان يسير لأجل ان يغيّر وجه الدنيا، ويخرج أهلها من الظلمات إلى النور، فما قيمة تلف مزرعة صغيرة، إذا كان الجيش الاسلامي بأهدافه العظيمة سوف يحفظ لنا المبدأ الاسلامي العادل في توزيع الثروات في العالم على الخط الطويل.

وهذا أمر معقول من الناحية الفقهية، لأن القاعدة تقرر بأن الواجب اذا توقف على مقدمة محرمة، وكان ملاك الوجوب أقوى من ملاك المحرمة، فلا بد من تقديم الواجب على الحرام.

ومن خلال هذا المفهوم الفقهي، وذاك الاجتهاد السياسي، يثار هذا السؤال حول الظاهرة التي نحن بصدد مناقشتها وتحليلها هو:

(١) نهج البلاغة، ج ١، ص: ٢١٧، راجع للتوسع / ثورة الحسين / شمس الدين، ص: ٥٤.

لماذا لم يطبق الإمام (ع) هذه القاعدة الفقهية في تصرفاته ومواقفه السياسية؟

ومن هنا يقرر المعارضون لسياسة الامام (ع)، لو أن علياً استفاد من تطبيق هذه القاعدة الفقهية، واتجهت جهوده الى الواجب الأكبر في تملك زمام قيادة المجتمع الاسلامي والعمل على احراز المكاسب الاسلامية الكبيرة من خلالها، ولا بأس أن تبقى بعض المحرمات في سبيل الحفاظ على الواجب الأكبر ما دامت مبرراتها الشرعية (الفقهية) موجودة، ولا سيما ان تملك الامام (ع) لزمام القيادة سوف يفتح على المسلمين ابواب الخير والسعادة ويقوم فيهم حكومة الله على الأرض.

فالسؤال بشكل أدق، هو لماذا لم يتجه الامام (ع) الى تحقيق الهدف الأكبر ويترك معاوية ولاية الشام ولو إلى حين، ويصرف نظره عن الأموال المسروقة التي نهبها بنو أمية من بيت مال المسلمين مؤقتاً، ولماذا لا يكون عمله هذا تطبيقاً حياً لمفهوم التزاحم الذي تكلمنا عنه، وذلك بتقديم الأهم على المهم، كما يريد هؤلاء؟! حيث صرحوا للإمام في معرض اقتاعه بضرورة المساومة، من ان بقاء معاوية وان كان له ضرره وخطره على الأمة الاسلامية، الا ان بقاء وديمومة دولة الامام (ع) وانتشار نفوذه، وفرصة بناء القاعدة الشعبية لحكم الامام (ع) واجلاء الأطروحة الاسلامية الصحيحة مما علق بها من المسخ والتشويه وتأكيد معالمها في الحياة الاجتماعية بالاضافة للجوانب الحياتية الأخرى، وبعد ان يتمكن من كل هذا ويتقوى على عدوه فإنه (ع) يبادر حينذاك بتصفية البؤر المضادة لحكمه واحداً بعد الآخر ومن موقع القوة.

فهؤلاء المعارضون تصوروا قيام (تزاحم) بين أهم ومهم فجاء اقتراحهم هذا لابقاء معاوية على ولاية الشام لكي تبقى دولة الامام (ع) ومن ثم التحرك على الفتنة والقضاء عليها.

ونحاول الاجابة على كل هذه التساؤلات، ونقول بأن القاعدة الفقهية التي تحدثنا عنها سابقاً، ليست صالحة للأطباق على مواقف الامام (ع)، ولم يكن الامام كقائد رسالي يمثل الاسلام وأهدافه، ان يقبل هذه المساومات وانصاف

الحلول وذلك لملاحظة النقاط التالية واتخاذها بنظر الاعتبار.

### التعقطة الأولى:

كانت من أهم أهداف الامام (ع) التي رسمها منهجاً لسلوكه السياسي: هو توطيد وترسيخ قاعدة حكمه في قطر من أقطار العالم الاسلامي، الا وهو العراق، وذلك لوجود الاتباع والقواعد الشعبية الموالية لحكمه روحياً وعاطفياً، وان كان العراقيون لا يعون رسالته وعياً حقيقياً كاملاً.

ولهذا كان الإمام (ع) بحاجة ملحة لبناء طليعة واعية في دولته الجديدة التي كان يخطط لانشائها في العراق تلك الطليعة الواعية التي تكون امينة على الرسالة وأهدافها، وساعداً ومنطلقاً له على ترسيخ هذه الاهداف في كل أرجاء العالم الإسلامي.

فالإمام (ع) منذ تسلمه للحكم، كان يشعر بوجوب بناء هذه الكوادر الطليعية المؤمنة والتي سوف تشرف على القاعدة الشعبية والتي ستكون سنده في تسيير الحكم.

فالإمام لم يكن يملك هذه الطليعة الواعية، بل كان بحاجة الى أن يبنها. وكيف تواتيه فرصة البناء العقائدي وهو في جوارٍ من المساومات وانصاف الحلول، حتى ولو كانت (المساومة) جائزة شرعاً، ومستوفية لشروط قانون التزاحم الفقهي وذلك لأن التربية الروحية والفكرية والعاطفية التي استهدفها الامام في طليعته الواعية لا يمكن ان تنمو بذورها في اوساط قواعد الشعبية، والامام (ع) يعيش جو المساومات وانصاف الحلول، فالمساومات حتى ولو كانت جائزة من الوجهة الشرعية، فإن جوازها لا يغير من مدلولها التربوي في التأثير على نفسيات وبناء الطلائع الواعية من حوله شيئاً.

فالإمام (ع) يشعر شعوراً قوياً وملحاً بأن دولته والامة من بعد دولته لا بد لهما من طليعة وقاعدة واعية تعتمد في حمل الأهداف الرسالية وترسيخها في واقع الامة وارجاء عالمها المترامي، كانت هذه القاعدة الواعية قدرة في ممارسة الحكم الاسلامي الصحيح.

هذه القاعدة الشعبية الواعية لم تكن جاهزة عند استلامه الحكم، حتى يستطيع الاتفاق معها أو أن يقنعها بوجهة نظره في المساومات وتبرير ضرورتها الاستثنائية.

بل ان الظروف وملابسات الواقع آنذاك، تطلبت منه بذل كل الجهود لبناء جيش عقائدي واع بروحه وفكره وعاطفته امثال عمار بن ياسر وأبي ذر ومالك الاشر وغيرهم من طليعة الامام الواعية.

فبناء هذه الطليعة وتلك القاعدة، ليس سهلاً ولا ممكناً لو ان الامام (ع) اتجه لسلوك سبيل المساومات، وانصاف الحلول، فهي تتناقض وعمله التربوي في بناء الجيش العقائدي الواعي، فافتقاده (ع) لهذا الجيش معناه فقدان القوة الحقيقية التي يعتمد عليها في بناء الدولة الاسلامية والخط الطبيعي في الأمة على مدى الأجيال.

والمعروف ان اي دولة عقائدية لا بد ان تعتمد على طليعة مؤمنة تستشعر بشكل واعى ومحقق أهداف تلك الدولة وواقع أهميتها وضرورتها التاريخية.

ومن هنا كانت قناعة الامام (ع) وحرصه على ان يحتفظ بطهر وصفاء عملية التربية في بناء جيشه العقائدي الواعي، فجاهت ممارساته ابحاثه ابحاث تربوية تغييرية يكون فيها القدوة تتعلم فيها القواعد وتتزود بها الطليعة الواعية، فكان عليه ان يظهر امامهم قائداً لا تزغزعه المغريات، ولا يتنازل لأي نوع من المساومات، حتى يعين (ع) تلك الطلائع من خلال هذه المواقف الثابتة أن يبنوا المدلول الرسالي لا طروحه بأبعادها الواسعة للحياة.

ومن هنا نفهم موقف الامام (ع) في رفضه لكل المساومات والحلول الوسط من أجل اتمام هدفه في بناء جيش عقائدي وخلق جو نفسي وفكري وعاطفي ليكون ذلك الجيل مواكباً للأهداف العظيمة في حياته وبعد مماته.

وكان يعني ان قبول الامام (ع) لأي شكل من اشكال التنازل معناه فشله في تربية الفئة الواعية المدركة لمبادئها وأهدافها، وضياح لأهم ضمان للنجاح، وهو

اطمئنان اصحابه وقواعده بقائدهم والشعور بالثقة الكاملة بصلاحيته واخلاصه، ولا يمكن ان يتصور هؤلاء امامهم (ع) الذي قال بحق معاوية وامثاله من بني أمية :

والا وان أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية فإنها فتنة عمياء مظلمة عمت خطتها وخصت بليتها، وأصاب البلاء من ابصر فيها، واخطأ البلاء من عمي عنها، ترد عليكم فتنتهم شوهاء مخشية وقطعاً جاهلية، ليس فيها منار هدى ولا علم يرى»<sup>(١)</sup>.

ويصف رايتهم بأنها :

«راية ضلال، قد قامت على قطبها وتفرقت بشعبها تكيلكم بصاعها وتخبطكم بباعها قائدها خارج من الملة. قائم على الظلمة»<sup>(٢)</sup> «وانهم مطايا الخطيئات وزوامل الأثام»<sup>(٣)</sup>.

ومن هنا نخلص إلى نتيجة مؤداها، أن جو المساومة لا يخلق الجو الرفيع نفسياً وفكرياً وروحياً، ولا يتلائم مع خططة التربوية في بناء جيل عقائدي واعي.

النقطة الثانية :

ان استلام الامام (ع) للحكم، جاء أعقاب الثورة على خليفة المسلمين عثمان أي على أثر ارتفاع وانفجار العواطف التي وصلت ذروتها في مقتل عثمان والاطاحة بحكمه لانحرافه عن كتاب الله وسنة نبيه (ص)، حيث ان مجيء الامام (ع) لم يكن مجيئاً اعتيادياً يقول الامام (ع) بهذا الصدد «فأقبلتم اليّ اقبال العوذ المطافيل على اولادها تقولون: البيعة البيعة قبضت كفي فبسطتموها وسازعتكم يدي فجادبتموها»<sup>(٤)</sup>. بل جاء في لحظة الثورة وهي تركيز وتعبئة وتجميع كل الطاقات العاطفية والنفسية في الأمة الاسلامية، فكان لا بد للامام (ع) ان يفتنم هذه اللحظة المليئة بكل ما استبظته من زخم وطاقات عاطفية ونفسية وفكرية،

(٣) ن . م . ص : ٢٢٤ .

(٤) نهج البلاغة رقم النص : ١٣٧ .

(١) نهج البلاغة ص : ١٣٨ .

(٢) ن . م . ص : ١٥٦ .



وماذا ينتظر القائد الرسالي، غير لحظة ارتفاع في حياة أمة، لكي يستطيع ان يشتمر هذه اللحظة في سبيل إعادة هذه الأمة الى مسيرها الطبيعي.

وهذا الارتفاع العاطفي المتأجج، الذي وجد في حياة الأمة الاسلامية، لم يكن من الهين اعادته الى مساره، بل كان قدر الامام (ع) بعد استلامه لمسؤولية الخلافة، أن يعمل على تركيز وتعميق هذه الحالة العاطفية واستثمارها لصالح الأمة عن طريق تمرير الاجراءات الثورية والجزرية التي قام بها فيما بعد خلال مواجهته لمشاكل المجتمع المعقد.

ووقد كان لهذه السرعة في تطبيق الاصلاحات الجزرية اثرها المزدوج في الوصول نحو الهدف، فهو من جهة: يستفيد من الطاقات المتأججة فعلاً، والتي تسترخص البذل في سبيل تحقيق النتيجة، ومن جهة اخرى: يشارك في ابقاء الجذوة متقدة لفترة اطول مما يساعد على امكانية التقدم بعملية الاصلاح وترسيخها في المجتمع، وهذه السرعة بالتالي ستفاجيء القوى المنحرفة فلا تدع لها مجالاً للتخطيط والمؤامرة<sup>(١)</sup>.

ومن هنا نواجه سؤالاً مهماً، ونقول ماذا يكون مصير الامام (ع)، وهو في هذا الجو المشحون عاطفته وثورة؟ لو ابقى الباطل يصول ويجول، دون ان يبسه باجراء اصلاحي؟ أو أن يعتمد (ع) الى جانب الصمت والسكوت عن تلك التصرفات الكيفية التي قام بها الحكام من قبل ويسكت عن معاوية بالذات؟ وهل يكون موقف الامام صحيحاً لو انتظر لتهدأ العاطفة وينكمش التيار النفسي والعاطفي المتأجج للشوار؟ ولو اننا افترضنا ذلك فمن ذا الذي يضمن أو يقبل أن يرجع الظرف للإمام مرة أخرى ليقوم بمثل هذه الاجراءات؟ فإن افضل ظرف مؤات للإمام (ع) لتمسير اجراءاته التغييرية، هو هذا الظرف الثوري الذي عاشته الأمة الاسلامية ابان ثورتها على عثمان ولم يكن بالامكان، وتحت اي مبرر، تأجيل هذه الاجراءات الى ظرف آخر تنطفئ فيها الشعلة الثورية المستعرة، وتبرد فيها العواطف وتتميع من خلالها المشاعر وتدوب.

(١) من حياة اهل البيت/التسخيري ص: ٧٧.



### النتيجة الثالثة :

أراد الامام (ع) أن تدرك الأمة آنذاك وتفهم بأن واقع المعركة بينه وبين خصومه ليست معركة ذاتية بينه وبين معاوية أو بين قبيلتين (بني هاشم وبني أمية)، وإنما هي معركة الاسلام مع الجاهلية، وقد بوقد حرص (ع) ككل الحرص في توعية الناس بأن واقع المعركة هي عين معركة رسول الله (ص) مع الجاهلية التي حاربه في بدر وأحد.

ومن الطبيعي الآن ان نفهم، بأن هذا الحرص الذي بذله الإمام (ع) سوف يمني بنكسة، وتصادر آثاره، لو أن الإمام (ع) أقر معاوية وأبقى مخلفات عثمان السياسية والمالية (اللاشرعية) طليقة في حياة الناس.

فاقرار الامام (ع) كان يعني شيئاً واحداً، هو ترسيخ فكرة (اقرار الانحراف واللاشرعية) في اذهان الناس، ولعرف الناس بأن القضية المختلف عليها ليست قضية رسالية، وإنما هو اختلاف على سلطان وجاه، وخصوصاً عندما يلحظ الناس انسجام هذه الاهداف مع واقع هذه المخلفات (اللاشرعية) وهذا مما يوسع الشك بقيادة الامام (ع)، ذلك الشك المصطنع الذي نَمي عند الأمة في شخص الامام (ع). بالرغم من انه لم يكن يوجد له اي مبرر موضوعي، بل كانت بواعثه تبريرية (ذاتية)، مع كل ذلك نرى أن ظاهرة الشك بالامام تكبر وتوسع ويمتحن الامام (ع) بهذا الشك، ويلتحق بالرقيق الأعلى، والأمة شاكّة، ثم تستسلم الامة بعد استشهاده (ع) لتتحول الامة الى كتلة هامدة بين يدي الامام الحسن (ع)، فالأمة وصلت إلى هذه الحالة (المؤسفة)، بالرغم من ان الشك لم يكن له اي مبرر موضوعي على الاطلاق. فكيف اذا افترضنا ان ظاهرة الشك وجدت ولها مبررات موضوعية من ناحية الشكل؟

كيف لو أن المسلمين رأوا امامهم (ع)، الذي هو رمز الاطروحة ورمز لاهداف معينة، تراه يساوم، ويبادر لبيع الأمة - ولو مؤقتاً مع (خيار الفسخ)!. . . ولكن نسأل من أين يأتي للأمة ان تدرك الفرق بين ان يبيع الامام (ع) بلا خيار الفسخ أو مع خيار الفسخ ولكن البيع في نظر الأمة، مهما تكن طبيعته هو البيع لا يغير من مدلولها النفسي والايحائي شيء!

والامام علي (ع) كانت مهمته الرسالية الكبرى، هي ان يحافظ على وجود الأمة دون ان تنازل الأمة الاسلامية عن كيانها وكرامتها ووجودها.

فهذه الأمة التي خاطبت يوماً خليفتها عمر بن الخطاب بأنها ستقومه بحد السيف لو انحرف عما تعرفه من احكام الله وسنة رسوله (ص) . . ولكن نفس هذه الأمة الشجاعة وأينها بعد ذلك، تنازل راضية، عن جودها وكرامتها، وعملية التنازل هذه كانت ممثلة برمز معاوية بن ابي سفيان، وجذوره في تاريخ الاسلام، والذي حاول تغيير الاسلام وتوجيهه الى حكم هرقلي وكسروي وتحويل الأمة عن تجربتها الاسلامية في الحكم، من امة تحمل رسالة إلهية إلى ملك وسلطان يحمل هذه الرسالة، وذلك بمستوى وعيه لهذه الرسالة واخلاصه لها سلباً وإيجاباً.

هذه المؤامرة الكبيرة التي اثمرت نتائجها الخبيثة على شكل تنازل الأمة عن وجودها وكيانها، والتي كانت أساس المآسي والمحن والكوارث، والتي جاءت نتيجة خداع الأمة وتزييف وعيها وضميرها والضغط عليها، حتى تنازلت عن وجودها واصالتها في عقد لا يقبل الفسخ.

الامام (ع) ادرك الأمة في اللحظات الأخيرة من وجودها المستقل وقد حاول جاهداً في الحفاظ على وجودها المستقل، وحاول ان يشعرها بأنها ليست سلعة تباع وتشتري، وليست شيئاً يساوم عليها.

ولكن كيف يتأتى للإمام (ع) ان يشعر امته بهذا المعنى، بأنها ليست سلعة تباع وتشتري وفقاً لرغبات الحكام اذا كان هو (ع) يبيعها ويشتريها، ولو في عقد مؤقت قابل للفسخ وكيف يمكن له أن يفهم الأمة ويشعرها بأنها امة تمثل خلافة الله في الأرض، لأجل ان تحقق اهداف هذه الخلافة، وهو يبيع قطاعات من هذه الأمة لحكام فجرة من قبيل معاوية بن أبي سفيان، في سبيل ان يسترجع ويكسب هذه القطاعات، ولو بعد حين.

ولا يمكن تفسير عمل الامام (ع) الا انه راض وقابل بمواكبة المؤامرة، التي كانت روح العصر كله آنذاك، والتي كان الامام (ع) يقف ضدها ويتصدى

لاحباطها، لكي يتخذ الامة من شرورها، ولا يمكن نفترض بأن لسلامام (ع) ان يساهم في هذه المؤامرة.

ولو ان الامام (ع) هادن معاوية، فإن موقفه المساوم هذا يعني امرين: -

الأول: منح معاوية فرصة ثمينة، ليحكم قبضته، ويستفيد من الموقف، ويكسب الشرعية، وهذا يعني في ادراك الامام (ع) التفريط في مستقبل الامة، ولمستقبل تجربتها الاسلامية ككل.

وهذا يعني أن تباع الامة بعقد يقبل الفسخ، لأناس أرادوا أن يبيعوها بعقد لا يقبل الفسخ.

الثاني: تفاقم ظاهرة الشك (المصطنع) وفقدان الثقة بالقائد، وشرط الثقة بالقائد، من الشروط المهمة لحصول التأثير المطلوب في الامة.

وكان الإمام (ع) يمثل رمز القيادة الواعية، التي تريد ان تربي الامة على المدى الطويل، فإذا وجدته الامة وهو يساوم عليها وبيعها لحكام ظلمة، فقدت بالضرورة ثقتها وولائها به.

ومن الملاحظ - تاريخياً - في أواخر حياته (ع) ان روح الشك، قد مسرت في بعض قطاعات الامة، (الشك في واقع معركته مع معاوية)، رغم ان عوامل ذلك الشك كانت عوامل تبريرية (ذاتية) للشاك، دون ان يكون لها مبرر موضوعي (خارجي).

فإذا كان الشك قد سرى في هذه القطاعات، مع اتخاذ الامام (ع) كل تلك الضمانات والمواقف الحازمة غير المسداهنة، فما ظننا بهذه القطاعات وهي ترى إمامها يساوم بأبقاء الولاة المنحرفين ويطلق أيديهم في حياة الناس، ومن ثم يرجع ليعزلهم بعد ذلك، فإن هذا العمل، بلا شك سيكون مبرراً موضوعياً كبيراً للشك، مما يفقد الامام (ع) القدرة وامكانية المضي في تطبيق تجربته الكبرى.

ولهذا كان تصميم الامام (ع) على ان يجابه المؤامرة ويفضحها قبل أن تتجذر في واقع الامة، فأعلن الحرب دون هواده على كل هذه البؤر بعد ان اعلن

لمن طلبوا منه قبول انصاف الحلول، انه قد قلب هذا الأمر، ظهره وبعثه فلم يجد الا القتال او الكفر بما أنزل الله على محمد (ص) (١).

#### النقطة الرابعة:

لم يركز الامام (ع) في طريقة تعامله مع مشكلة الانحراف، وابتعاد حل لها، بالفترة الزمنية القصيرة التي عاشها فقط، وانما كان يحمل طموحاً وهدفاً أكبر من ذلك، كان يتعامل مع التاريخ اكثر مما كان يتعامل مع فترة حكمه القصيرة.

فقدّم منهجه للتاريخ فخلده التاريخ، كأعظم انسان بعد النبي (ص) وأكمل خطاه وسار على منهجه اروع سيرة، فكان اسلاماً مجسداً حقاً.

الإمام علي (ع)، كان قد وعى مشكلته آنذاك، بأنه قد أدرك المريض، وهو في آخر مرضه، حيث لا ينفع العلاج.

هذه الحقيقة الجليّة، دفعت امامنا (ع) ان يفكر بأشواط اطول وأوسع لخوض معركة الرسالية، ولم يدر في خلدّه يوماً، ان يركز، على الفترة الزمنية القصيرة من سني حكمه التي عاشها، بل كان يتلخص ايمانه بأن الاسلام بحاجة إلى أن تقدم له في خضم تعقيدات الانحراف اطروحة واضحة نقية لا شائبة فيها ولا غموض، ولا التواء ولا تعقيد، ولا مساومة فيها، ولا نفاق.

هذه الاطروحة، هي التي كانت تحتاجها الأمة آنذاك لأن الأمة الاسلامية، كتب عليها ان تعيش الحكم الاسلامي المنحرف، منذ ان نجحت - مؤامرة السقيفة - والاسلام الذي اعطته (السقيفة) للأمة، بامتدادها التاريخي الطويل، اسلام مشوه ممسوخ، لا يحفظ الصلة العاطفية والفكرية بين الأمة ككل، وبين اشرف رسالات السماء.

وهذه الأمة - والتي هي اشرف أمم الأرض (برسالتها) - لا يمكن لها أن تحفظ هذه العلاقة بينها وبين الاسلام على أساس معطيات (اسلام السقيفة)،

(١) صفين/ص: ٤٧٤.

الذي انتج للأمة الإسلامية قادة منحرفين امثال - معاوية بن أبي سفيان، وميزيد، وعبد الملك بن مروان، وهارون الرشيد. ولكي تحفظ هذه الصلة، بين الأمة ورسالتها العظيمة، لا بد من اعطاء صورة واضحة محدّدة للإسلام، وهذه الصورة اعطيت نظرياً: على مستوى ثقافة أهل البيت (ع) واعطيت عملياً: على مستوى تجربة حكم الامام علي (ع).

ولهذا كان الامام (ع) يستغل كل الفرص، ليعمل على تعميق وعي الاسلام في الأمة ويربي الطليعة المؤمنة التي تشكل على المدى الطويل، الرابط الحقيقي بين الاسلام والأمة، وليضع المنهج الذي يبقى في وعي الأمة منهجاً اسلامياً حقيقياً، وتبقى تقارن بينه وبين منهج اي حكم يأتي من بعده، فتعيدها هذه المقارنة إلى صحتها وتبرق في ضميرها بوارق العودة إلى الاسلام من جديد<sup>(1)</sup>.

ومن هنا جاء تأكيد الامام (ع) على العناوين الأولية في التشريع الاسلامي وعلى خطوطه الرئيسية، لكي يقوم المنهج الاسلامي واضحاً، غير ملوث بلوثة الانحراف التي كتبت على تاريخ الاسلام مدة طويلة من الزمن.

ولكي يحقق الامام (ع) هذا الهدف، كان قدره في طرح هذه التجربة بهذا النوع من الطهر والنقاء والوضوح دون ان يعمل بما اسميناه - بقانون التزاحم - الذي أشرنا اليه آنفاً.

وقد استمر الامام (ع) في صموده ومواجهته لكل المؤامرات التي ساهمت في صنعها الأمة - المضللة والغافلة - على اساس جهلها، وعدم وعيها وادراكها وشعورها بالدور الحقيقي الذي يمارسه الامام (ع) في سبيل حماية وجودها من الضياع، وحماية كرامتها من ان تتحول إلى سلعة تباع وتشتري.

ولهذا كان يحرص الامام (ع) كل الحرص على طرح الصيغة الاسلامية الكاملة للحياة والوقوف على التكليف الواقعي، دون القفز عليه او تجاوزه الى

(1) راجع للاستفادة/ص: ١٣٣ من حياة اهل البيت/التسخيري.

ضرورات استثنائية تفرضها طبيعة الملابس والظروف المعقدة<sup>(١)</sup>.

ونخلص الحديث ونقول، ان قبول انصاف الحلول او المساومة في حل قضية الانحراف كانت في الواقع اشتراكاً في المؤامرة من قبل الامام (ع) ولم تكن تعبيراً عن الاعداد لاحباط المؤامرة، لأن المؤامرة لم تكن يوماً مؤامرة على شخص او حاكمية الامام علي (ع) بالذات، حتى يقال بأن الإمام علي (ع) يمهّد لهذه الحاكمية بشيء من هذه الحلول الوسط، وإنما المؤامرة كانت تستهدف وجود الأمة الاسلامية وشخصيتها، وان نقول كلمتها في الميدان بكل قوة وجراة وشجاعة على أن تسليخ عن شخصيتها ووجودها وينصب عليها قيم من اعلى يعيش معها عيش الاكاسرة والقياصرة هذه هي المؤامرة بكل خيوطها وهي ما سعت اليه (السقيفة) بالتدرّج - بوعي او بغير وعي الى تعميقها وانجاحها في المجتمع الاسلامي.

ولو ان الإمام (ع) كان قد مارس قبول انصاف الحلول وباع الأمة عن ارادتها - مع خيار الفسخ - اذن لكان بهذا قد اشترك في انجاح هذه المؤامرة وسليخ الأمة عن ارادتها وشخصيتها - وكانت الأمة آنذاك بحاجة كبيرة لكي تستطيع ان تكون على مستوى المسؤولية والمقدرة لكي تتخلص من تبعات هذه المؤامرة، فكان لا بد لها ان تشعر بكرامتها وارادتها وحرمتها واصالتها وهي تعيش الصراع مع الجاهلية، وهذا كله مما لا يتفق مع ممارسة الامام (ع) لانصاف الحلول.

#### النقطة الخامسة :

تحدثنا الروايات التاريخية، بما لا مزيد عليه، عن صور وألوان مخزية من الانحرافات والفساد بكل معنى الكلمة فقد كان وضعاً يشهد سابقاً الى اللهو والمجون والفجور.

«ولم يكن ولاة عثمان هؤلاء من ذوي السابقة في الدين والجهاد في الاسلام، وانما كانوا متهمين في دينهم، بل كان فيهم من أمره في الفسق، ورقة الدين معروف مشهور: كان فيهم عبدالله بن سعد الذي

(١) راجع نفس المصدر/ص: ١٤٦.



بالغ في ايذاء النبي (ص) والسخر منه وبالغ في الهزء بالقرآن حتى نزل القرآن بكفره، والوليد بن عقبة ممن امرهم في الفسق معروف مشهور، وقد نزل فيه قرآن يعلن فسقه»<sup>(١)</sup>.

أما سعيد بن العاص الذي خلف الوليد فقد استقبله الكوفيون بالكراهية وعدم الرضا لأنه كان شاباً مترفاً لا يتخرج من الائم ولا يتورع من الافك.

روى ابن سعد: أن قال مرة في رمضان - بعد أن ولي مصر-: من رأى منكم الهلال؟ فقال له هاشم بن عتبة الصحابي العظيم: «أنا رأيته».

فوجه اليه لاذع القول وأقساء قائلاً:

بعينك العوراء رأيته؟! فالتاع هاشم وأجابه على الفور: تعيرني بعيني وإنما فقتت في سبيل الله؟ وكانت عينه أصيبت يوم اليرموك. وأصبح هاشم في داره مفطراً عملاً بقول رسول الله (ص): «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته» وفطر الناس لافطاره وبلغ ذلك سعيداً فأرسل اليه وضربه وحرق داره»<sup>(٢)</sup>.

وكذلك عبد الله بن عامر بن كريز، إذ ولي البصرة وهو ابن أربع وعشرين سنة وقد سار سيرة البذخ والترف. وقد قام بعد مقتل عثمان بنهب ما في بيت مال المسلمين في البصرة وسار الى مكة وانضم الى المتمردين على الامام علي (ع)<sup>(٣)</sup> وناهيك عن الحديث عن معاوية وترفه.

فإذا كان ولاية الامصار الهامة هم بهذه المعتزلة فماذا نتوقع من الجهاز الاداري الأصغر من هؤلاء والذي كان يضحج بالترف والفساد<sup>(٤)</sup>.

(١) عن ثورة الحسين/شمس الدين/ص: ٣٨.

(٢) عن كتاب حياة الامام الحسن/ص: ٢٦٣.

(٣) أسد الغاية ج ٣/ص: ١٩٢.

(٤) راجع للاستفادة من حياة أهل البيت (ع)/التسخيري/ص: ١٤٣.



من خلال هذه الحقيقة، نفترض ونقول: لو ان الامام علي (ع) كان قد أمضى هذه الاجهزة الفاسدة، بكل فسقها وفجورها، فليس من المعقول - بمقتضى طبيعة الأشياء - ان يتمكن الامام (ع) من ممارسة عملية التغيير الحقيقي في تجربته السياسية التي يترجم قيادتها.

الواقع أن هذا الفهم لموقف الامام (ع) مرتبط بشكل عضوي بحقيقة بديهية مطلقة تشمل كل المواقف الرسالية والعقائدية المشابهة لموقف الامام (ع).

والحقيقة هي: ان اي موقف رسالي يستهدف تغييراً جذرياً واصلاحاً حقيقياً في بيئة أو أي مجتمع من المجتمعات تشمله هذه الحقيقة المطلقة وهي «ان كل اصلاح وتغيير، لا يمكن ان ينشأ أو ان ينبثق من خلال الأوضاع والأجهزة الفاسدة نفسها، بل لا بد من نسف وازالة هذه الأوضاع ومؤسساتها المعطلة لمهمة التغيير والاصلاح.

فلو افترضنا ان القائد، المسؤول عن التغيير والاصلاح أقر الاجهزة الفاسدة التي يتوقف التغيير والاصلاح على ازالتها وتعاون معها وأمضاها - ولو مؤقتاً - بمنطق ما يسمى اليوم «بمبدأ الانحاء للمعاصرة» أو «خطوة الى الخلف وخطوتين الى الامام»، حتى يكتسب المزيد من القوة والقدرة على امل الامتداد افقياً وعمودياً، في ابعاد تجربته السياسية الحاكمة، وبعدها يعمل على استبدال الركائز الفاسدة بأخرى صالحة.

هذا المنطق - الأنف الذكر - كان لا يتفق (يوم ذلك) مع طبيعة عمل الامام الاجتماعية وذلك لمنافاته مع طبيعة الأشياء والوضع الاجتماعي والسياسي - آنذاك - وذلك لأن هذا القائد من اين يستمد قوته؟ وكيف تتسع قدرته افقياً وعمودياً؟ هل تهبط عليه كل هذه القدرات بليلة وضحاها، بمعجزة من السماء؟

الجواب: لا، بل ان القائد، يستمد قوته وقدرته (من أسباب النصر الطبيعية اي من تلك الركائز نفسها، بعد ان تتعمق وتنمو هذه القدرات عنده باستمرار، من خلال اجهزته ومؤسساته التي هي قوته التنفيذية، والتي هي واجهته وتعبيره وتخطيطه الى الأمة.

فإذا افترضنا، ان هذه الاجهزة، كانت هي الاجهزة الفاسدة التي يريد المخطط (الاصلاحي) ازالتها وتبديلها بأجهزة بديلة اخرى.. فليس من المنطقي ان تعتمد المقولة التي نصح بها الامام (ع) والقائلة: «دع هذه الاجهزة معك، تعمل من خلالها، حتى تمتد وتتجذر فيها، وبعد، حاول ان تقضي عليها وتصلحها».

ولكننا نقول، ان هذا التجذر والامتداد الناتج من هذه الاجهزة الفاسدة، لا يمكن القضاء عليها، لأن النتيجة - كما يقول المناطقة - ترتبط بمقدماتها، وركائزها واسسها فهذا التجذر والامتداد، المستمد من ركائز وأجهزة فاسدة لا تمكن القائد المصلح من ان يعود إليها ثانية، فيتمرد عليها، لأن هذا القائد، حتى ولو كان حسن النية، وصادقاً في تصوره، وسلك سلوك الفرد المواكب للأجهزة الفاسدة، دون استبدالها وتغييرها، فسيجد نفسه في نهاية الطريق، بأنه عاجز عن مواصلة مهمة التغيير وتحقيق اهدافه المنشودة لان القائد مهما كان حكمه وسلطانه مهيمناً، لا يتمكن من تغيير مجتمعه، بجرة قلم او اصدار امر (فوقي) وانما لا بد لعملية التغيير من أجهزة ومؤسسات تخطط وتنفذ لإرادة هذا القائد.

فطبيعة الأشياء، وواقع العمل التغييرى، في أي بيئة او مجتمع تفرض على أي قائد يبدأ هذا العمل هو أن يفكر ببناء زعامته، بصورة منفصلة عن تلك الاجهزة الفاسدة، وهذه الحقيقة هي التي دعت الامام علي (ع) ان يتوقف دون امضاء لمخلفات عثمان الادارية والسياسية والاقتصادية.

وهنا يتضح بشكل جلي، لا مجال لأن يطلب من الإمام (ع) أن يمضي هذا الجهاز طليقاً في حياة الناس، ثم يشرع بعملية التغيير، ويقوم بعد ذلك، بطرد العناصر الفاسدة من أجهزته التنفيذية فهذا العمل يتنافى مع المنطق السياسي للتأريخ كما يتنافى مع المنطق الرسالي الذي كان فوق كل شيء عند الامام علي (ع).

النقطة السادسة:

إن الإمام (ع)، لو كان قد أمضى - ولو مؤقتاً - الأجهزة الفاسدة التي خلفها

عثمان بن عفان، وعلى رأسها، انشاء حاكمة معاوية بن أبي سفيان، وتعتبر اخر، لوباع الامام (ع) الامة لمعاوية بيعاً مرحلياً مؤقتاً (مع خيار الفسخ)، لحصل (كل ما في الأمر) على نقطة قوة - مؤقتة - (وفقاً للنصائح التي اسديت للإمام في هذا المجال)، ونقطة القوة هنا، هي ان معاوية سوف يبايعه، ومعه اهل الشام. هذه القوة التي سيكسبها الامام (ع) في حساب عملية التغيير، تقابلها نقطة قوة سوف يحصل عليها معاوية، الا وهو اعتراف الامام (ع) بشرعية معاوية في الحكم، ويأن معاوية رجل - على اقل تقدير - سيوصف بأنه عامل قدير على تسيير مهام الدولة، وحماية مصالح المسلمين ورعاية شؤونهم.

فهناك اذن اعتراف من قبل الامام (ع)، يعطي نقطة قوة لمعاوية، في مقابلها نقطة قوة يأخذها الامام عن طريق الامضاء المؤقت لسولاية معاوية، ورضوخه لسلطان الامام الشكلي وتحييده من مخالفته للاسلام والامام، وهذا الامضاء المؤقت سيتيح للإمام الفرصة للقضاء على اعدائه بالتدريج وتصفية بؤرهم، وتنفيذ اطروحاته في نهاية الأمر.

وإذا أردنا ان نقارن بين هاتين النقطتين فسوف لن ينتهي الباحث الى نتيجة مطمئنة، تؤكد ان نقطة القوة التي يحصل عليها الامام (ع) هي أهم في حساب عملية التغيير الاجتماعية التي يمارسها (ع)، من نقطة القوة التي يحصل عليها معاوية وخصوصاً - اذا علمنا - ان مهمة تغيير الولاة داخل الدولة الاسلامية - وقتئذ - لم تكن عملية سهلة ويسيرة، بالشكل الذي نتصوره في دولة مركزية، سيطرت حكومتها (المركزية) على كل اجزاء الدولة وقطاعاتها.

ولا يعني هذا ان معاوية عندما يبايع أو يأخذ البيعة لمخليفة في المدينة، ان جيشاً في الحكومة المركزية سوف يدخل الشام وان هناك ارتباطاً عسكرياً حقيقياً سوف يوجد بين الشام وبين الحكومة المركزية وانما يبقى - بعد - اخذ البيعة أيضاً - هذا الوالي، همزة الوصل الحقيقية والفعالة بين هذا البلد وبين الحكومة المركزية.

فضعف الحكومة المركزية من ناحية. وترسخ معاوية وقدم ولايته في الشام من ناحية اخرى، وخصوصاً ان الشاميين لم يعرفوا حاكماً مسلماً قبل معاوية واخيه

يزيد، منذ دشن الشام حياته الاسلامية الاستثنائية، والتي اعطيت له من قبل عمر بن الخطاب، واعطيت معه له الصلاحيات الاستثنائية، في ان ينشئ له سلطنة ومملكة في الشام، بدعوى ان هذه السلطنة ستكون مظهر عز وجلال للاسلام، في مقابل دولة القياصرة.

هذه الصلاحيات - الاستثنائية - التي أخذها معاوية من عمر، لاجل انشاء مظاهر ملكية مستقلة في الشام، لا تشبه الوضع السياسي في الدولة الاسلامية، ثم الصلاحيات الواسعة التي أخذها بعد ذلك من عثمان بن عفان، بحيث لم يبق طيلة مدة خلافة عثمان اي ارتباط حقيقي بين الشام والمدينة وانما كان معاوية - كل شيء في الشام - حيث كانت الشام تعيش حالة شبه - انفصالية - في الواقع، وان لم تكن منفصلة من ناحية الشكل الدستوري للدولة الاسلامية.

ونستنتج مما سبق ذكره، ان هذه الحقيقة تعقد علي الامام (ع) موقفه، وتجعل من نقطة القوة التي يحصل عليها - وهي مجرد البيعة، في الأيام الأولى من حكمه - هي نقطة غير حاسمة.

بينما الامام (ع) إذا أراد - بعد هذا الموقف - أن يعزل معاوية، من ولاية الشام كان باستطاعة معاوية، ان يثير في وجه الامام (ع) - بالاضافة الى جانب وجوده المادي المترسخ منذ زمن طويل في الشام - الشبهات على المستوى التشريعي والاسلامي متسائلًا امام الناس.

لماذا يعزلني الامام علي؟! وخصوصاً بعد ان اعترف بانني حاكم كفو صالح لادارة شؤون المسلمين؟!

مثل هذه الاسئلة كان بإمكان معاوية ان يلقيها في وجه الامام (ع) ولم يكن للإمام (ع) أي جواب مقنع، يتقدم به امام الرأي العام الاسلامي. بينما لو بادر الامام (ع) منذ البداية بعزله وتنحيته، وعلى أساس انه يؤمن بعدم صلاحيته وبأنه شخص لا تتوفر فيه شروط الحاكم الاسلامي ولأنه والي منحرف، وهو بريء ولا يتحمل مسؤولية وجود معاوية كحاكم في الفترة السابقة اثناء خلافة عمر بن الخطاب او عثمان بن عفان لكان جوابه مقنعاً امام الرأي العام الاسلامي!

### النقطة السابعة :

وهنا نفترض ، ان الامام علي ( ع ) لو كان قد أمضى حاكمية ولاية معاوية بن أبي سفيان ، لبايعه ولمنح الامام (ع) نقطة القوة . .

ولكن كل المؤشرات والقرائن التي كانت تكتنف موقف الامام (ع) تنبئ عن انه لم يكن ليبايع الامام (ع) لو أبقاه في ولاية الحكم ، وكل الملابس التاريخية كانت لا توحى بصحة هذا الافتراض ، القائل «بأن امضاء حاكمية معاوية كاسلوب وكمرحلة ، يعني ان معاوية سوف يمضي خلافة الامام (ع) ويعطيه البيعة فإن معاوية لم يعص الامام (ع) لأن الأخير عزله عن الولاية وانما كان ذلك - في أكبر الظن - جزءاً من مخطط لمؤامرة طويلة الأمد (للأموية) الحاكمة على الاسلام . الاموية التي كانت تخطط لنهب مكاسب الاسلام بالتدريج .

ومعاوية كان عارفاً بالمعادلة القائمة حيثئذ . ومدركاً ان الفرصة الآن هي اسنح له من أي وقت آخر ، وكان يعلم ان الامام اذا هادنه ، فإنما ذلك لضرورة استثنائية ، ولا بد ان الامام سينهي هذه الهدنة عندما يتمكن منه وسيعمل لتصفيته وافناء قواعده ، لأنه يعرف الامام جيداً وقد خيره في كثير من المواقف الحاسمة ، ويعي مدى نظره واخلاصه .

وكانت تصريحات معاوية وتصرفاته كلها توحى بأنه لم يكن ليبايع للإمام (ع) وكان يطالب بدم عثمان ، وقتل قتلته ، ويتهم أكثر اصحاب الامام (ع) وقادته بذلك .

وكان يوهم العامة من الناس ، ان المقام الذي يمتلكه انما هو حق طبيعي وكرامة إلهية من الله بها عليه .

فهو يقول في خطبة له بحضور مندوب الامام (ع) الذي جاء يأخذ البيعة :

«غير أن الله الحميد كسانا من الكرامة ثوباً ، لن نزرعه طوعاً ما جاوب الصدى وسقط الندى وعرف الهدى حملهم على خلاقنا البغي والحسد فالله نستعين عليهم ثم يمضي يقول : «ايها الناس اني خليفة امير

المؤمنين عمر بن الخطاب واني خليفة عثمان بن عفان عليكم»<sup>(١)</sup> «وقتل مظلوماً وتعلمون اني وليه»<sup>(٢)</sup>.

وهو بهذا يمهد ليعلم نفسه خليفة للمسلمين، بعد أن يجعل نفسه امتداداً للخلافة وكانت اطماع معاوية في الخلافة لم تكن لتخفى على أحد، ولم يكن الجيش الذي أعده وهباً الا ليحارب من يتولى الخلافة كائناً من كان، لقد كان يضلل بدعوته الى اعادة الأمر شورى بين المسلمين بعد ان يقتصر من قتلة عثمان .

وكتب للإمام (ع) يقول:

«وقد ابى الناس الا قتالك حتى تدفع لهم قتله عثمان فان فعلت كانت شورى بين المسلمين وإنما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم فلما فارقه كان الحكام على الناس أهل الشام»<sup>(٣)</sup>.

وهكذا قَدَّر للمؤامرة (الاموية) ان تنفذ على مراحل كانت المرحلة الاولى منها، هو ترسيخ وجود الاخوين في الشام يزيد بن أبي سفيان ومن بعده أخيه معاوية ومن ثم استقطاب أهل الشام عن طريق معاوية بتكريس بقائه هذه المدة الطويلة .

لقد كان معاوية يتحين الفرص لمقتل الخليفة عثمان، لأن مقتله سيمكنه من سلاح غير منظور يستطيع به الدخول إلى ميدان الصراع مع الإمام (ع)، وعين هذه الحقيقة، تفسر تباطؤه عن نصرة عثمان، وبعد ان استنصره واستصرخه، وكتب له مبيناً بأنه يعيش لحظات الخطر الأخيرة. ولكن معاوية يجيبه وكان معاوية - على أقل تقدير - قادراً أن يؤخر هذا المصير المحتوم (بخليفة عثمان) إلى مدة أطول، لو انه بادر لنصرته، ولكن معاوية بالعكس كان يخطط يبقى هذا التيار - الثوري - ليمهد لسقوط عثمان على يد الثوار المسلمين قتيلاً، وبعدها يأتي ويطالب مدعياً بأنه ابن عم الخليفة المقتول وولي دمه<sup>(٤)</sup>.

(١) صفين/لنصر بن مزاحم ج ١ ص ٣٢.

(٢) ن. م/ص: ٨١.

(٣) نقلًا عن سيرة الائمة الاثني عشر ج ١/ص: ٤٦٨.

(٤) صفين/ نصر بن مزاحم ج ٨١.



ومن المعلوم أن معاوية لم تكن تتاح له هذه الفرصة الشميئة كل يوم، فهي فرصة تلبى الآمال والاطماع الاموية التي كان يحلم بها منذ ان دخل الإسلام معترك الحياة، وذلك لكي ينهب مكاسبه ومنجزاته.

هذه الفرصة الذهبية لم يكن من المضمون - ان معاوية سوف يغيرها عن طريق الاكتفاء بولاية الشام، بل ان ولاية الشام كانت مرحلة في تزعم ونهب كل الوجود الإسلامي وتجيده لاطماع بني أمية.

وهذا يعني أن تعيين وإبقاء معاوية والياً على الشام، سوف لن يكون على مستوى اطماعه في المرحلة الاولى التي بدأت بمقتل عثمان بن عفان من مراحل المؤامرة الاموية على الإسلام.

نستج ما سبق أن فرضية ركون معاوية إلى البيعة لواقره الإمام (ع) افتراض غير منطقي لا ينسجم مع طبيعة الأحداث والأشياء. أما أسلوب المساومة وقبول انصاف الحلول فلم تكن إلا أسلوباً من أساليب معاوية لكسب الوقت، واتخاذ جانب المظلوم ورفع شعاره لاغراء الناس به.

ويمكن ان نشير إلى كثير من الخسائر التي كان يمكن ان تمنى بها حركة الإمام (ع) وذلك بقبوله للمساومات.

تلخيصها بالآتي:

١ - امضاء الظلم واتخاذ المضلين عضداً، وامضاء الأطروحة الاموية اللااسلامية.

٢ - إضاعة فرصة التثريية القيادية، وذلك عن طريق لعب أوراق انصاف الحلول والمساومات.

٣ - إضاعة الفرصة المؤاتبة للقضاء على ألد أعداء الإسلام وذلك بالتفريط بحالة الصحوة الثورية للجماهير الإسلامية. عقيب مقتل عثمان.

٤ - ان المواقف المساومة وانصاف الحلول تؤدي إلى غياب وفقدان الرؤية الواضحة للأطروحة الصحيحة التي ينشدها الإمام (ع) لأمته التي ابتليت (بإسلام



السقيفة) المشوه الممسوخ إلى غير ذلك من الخسائر والمضار التي اعتبرها الإمام (ع) الكفر بعينه<sup>(١)</sup>.

النقطة الثامنة :

الوضع الذي كان يعيشه الإمام (ع) - مع ملاحظة طبيعة الأمة في ذلك الوضع لم يكن ليوحي بالاعتقاد بأن الإمام عاجز عن إمكان تحقيق النجاح في عملياته التغييرية دون اللجوء إلى حل وسط . لأن المفهوم الفقهي ( لقانون التزاحم) إنما يتحقق فيما إذا كان هناك توقف بالفعل وهو توقف الواجب الأهم على المقدمة المحرمة، فإذا توقف هذا الواجب الأهم، وتأكد انه لا يمكن التوصل إليه إلا عن طريق هذه المقدمة المحرمة، ولكن كل الظروف انذاك لم تكن توجي أو تؤدي إلى اليقين بمثل هذا التوقف .

وذلك لأن المؤامرة التي اضطلع بمسؤولية احباطها الإمام (ع) لم تكن قد نجحت بعد بل كانت الأمة في يوم قريب سابق عن يوم مصرع عثمان، كانت قد عبرت تعبيراً معاكساً ومضاداً لواقع هذه المؤامرة ولمضمونها .

صحيح ان المؤامرة على وجود الأمة واصالتها تمتد بجذورها تاريخياً إلى امد طويل إلى أيام الجاهلية، لكن الأمة التي سهر عليها الرسول (ص) لكي يمنحها اصالتها وكرامتها وشخصيتها ووجودها الحضاري، نرى حتى ان الرسول (ص) نفسه الزم نفسه، وقد الزمه ربه في الكتاب الكريم بضرورة التشاور مع المسلمين، وذلك من أجل تربيتهم نفسياً واعدادهم لتحمل مسؤولياتهم واشعارهم بأنهم الأمة الجديرة بتحمل مسؤوليات هذه الرسالة العظيمة التي انزلت رحمة للعالمين .

ولكن المؤامرة ومخططيها بدأوا يعملون بالتدرج للقضاء على وجود الأمة واصالتها وتحويل وجودها إلى سلطنة وملك عضوض، حيث تمت مصادرة الوجود الإسلامي الاصيل للأمة، واعطي هذا الوجود للحاكم والسلطان . حيث نشاهد اول بادرة من بذور المؤامرة بذرت يوم السقيفة، واعطيت على شكل مفهوم جاهلي

(١) راجع للاستزادة / من حياة أهل البيت / التسخيري / ص: ١٦٢ - ١٦٣ .

عندما قال قائلهم في اجتماع السقيفة متحدياً «من ينازعنا سلطان محمد» .

وهذا هو أول شعار رفعتها المؤامرة، يوم قامت السقيفة، والسقيفة وإن كانت بمظهرها الخارجي اعترافاً بوجود الأمة، وكانت الأمة تتشاور في أمر تعيينها للخليفة بعد رسول الله (ص) . . ولكن المفهوم الذي طرحته السقيفة، ونجح بعد ذلك وامتد بآثره في التاريخ الإسلامي، هذا المفهوم السقيفي، كان يحد ذاته ينكر وجود الأمة وينظر إلى النبوة على أنها سلطان قريش، وهذه العشيرة هي التي يجب أن تحكم وتسود.

هذه النظرية السياسية للحكم التي تحدثت وجود الأمة وانكرت على الأمة اصلتها ووجودها وشخصيتها، طرحت كمفهوم في اجتماع السقيفة، ثم امتدت بعدها واتسعت عملياً ونظرياً في التاريخ الإسلامي.

فقد كان الخليفة عمر بن الخطاب، يعمق هذا المفهوم في وسط الأمة، وذلك عندما سمع يوماً وهو يمر على جمع من المسلمين، وهم يتحلقون حلقاً حلقاً، يتحدثون في مستقبل الحكم بعد حياته، ويتساءلون من الذي يحكم المسلمين بعده؟ . . فالمسلمون في تطلعهم هذا كانوا يحملون هم التجربة، وهم المجتمع والأمة، فهم يبحثون عن مستقبلهم بعد موت الخليفة عمر . . وهذا اللون من التفكير . هو تعبير واضح عن حضور الأمة في الساحة السياسية . . ولكن الخليفة عمر اظهر انزعاجه وقلقه من هذا الحضور، لأنه يعرف ان وجود الأمة في الميدان معناه وجود علي (ع) . وجود خط المعارضة في الساحة، وكلما نعت الأمة وتواصل وجودها واكتسبت ارادتها ووعيها بدرجة اعمق . كلما كان علي (ع) المرشح الاقدر والاكفأ لممارسة التجربة السياسية .

ولهذا نرى للخليفة عمر يصعد المنبر ويخاطب المسلمين بقوله:

«مالي اسمع قوماً يقولون: من يحكم بعد امير المؤمنين؟ الا ان بيعة ابي بكر كانت فلتته وفي الله المسلمين شرهاء» .

والخليفة عمر أراد بقوله هذا ان يقول، بأن المسلمين لا يجوز، ان يعودوا مرة أخرى، إلى التفكير المستقل في انتخاب (خليفة) وإنما الخليفة يجب ان يعين

من أعلى ولكنه لم يجزأ في الافصاح عن رغبته ، ولكن في داخله وقرارة نفسه كان يرى ان الأمة يجب ان ترجع إليه وهو يعين لها الحاكم (الخلف)، دون ان يسمح للأمة ان تفكر في تعيين حاكمها، كما فكرت مثلاً عقيب وفاة رسول الله (ص) لأن ذلك كان فلتة وشرأ . . والأمة يجب ان لا تعود أو تكرر أخطاءها مرة أخرى .  
 إذا ما هو البديل الذي كان يراه عمر؟ .

هذا البديل لم يبرزه عمر في زمانه، بل أسرها في نفسه، ولكنه عبّر عن هذا البديل بكل صراحة، حينما اغتيل، وحينما طلب منه حاشيته المتملقون، ان يوصي بعده، والا يهمل أمة محمد (ص) بدون تعيين، وقد قال عمر حين طلب منه الناس الاستخلاف:

«لو أدركني أحد رجلين لجعلت هذا الأمر إليه، لوثقت به، سالم مولى أبي حذيفة، وأبي عبيدة الجراح، ولو كان حياً ما جعلتها شورى»<sup>(١)</sup>.

واضح من هذا النص «أن الخليفة لم يكن يفكر بعقلية نظام الشورى ، وانه كان يرى من حقه تعيين الخليفة وأن هذا التعيين يفرض على المسلمين الطاعة، ولهذا يأمرهم بالسمع والطاعة، فليس هو مجرد ترشيح أو تنبيه، بل هو الزام ونصب.

ولذا نرى ان عمر، يسند الأمر إلى ستة اشخاص ويوكل أمر التعيين إلى الستة انفسهم دون ان يجعل لسائر المسلمين أي دور حقيقي في الانتخاب .

والخليفة عمر بعمله هذا كان متحفظاً، لانه لم يعين واحداً بعينه، وإنما وضعها في ستة انفار، وكأنه يريد ان يوحى للأمة ، بأنه قد منحها درجة من المشاركة في اختيار خليفته، وتعيين واحد من هؤلاء المرشحين للخلافة .

وهكذا نرى ان الخليفة عمر، أراد ان يمرر (رغبته) على الأمة بالتدريج وعلى مراحل متدرجة .

أما عبد الرحمن بن عوف، فقد كان قطب الرّحى في هؤلاء الستة، لم

(١) طبقات ابن سعد: ٣/٢٤٨ .

يستطع ، هو الآخر، في تلك المرحلة أن يظفرء دور الأمة، لم يستطع ان يحل المشكلة عن طريق التفاوض فيما بين هؤلاء الستة في اجتماع مغلق، وإنما ذهب يستشير المسلمين، بمرشحهم المفضل - من هؤلاء الستة - وراح يسألهم، من يريدون من هؤلاء الستة؟.

ويقول ابن عوف معقياً على نتائج استبيانه للأمة بقوله :  
 «ما سألت عربياً، إلا وكان علي بن أبي طالب مرشحاً، إلا عشيرة واحدة كانت تريد عثمان بن عفان، لأنها كانت تعلم بأن مجيئه إلى الخلافة معناه تكريساً لعملية النهب، وتطميناً لمصالحها الذاتية».

وحينما جاء عثمان إلى الحكم، بمساعدة - اللعبة المعروفة التي اجاد أخراجها ابن عوف في استبعاد مرشح الجماهير الإمام علي (ع) - تكشفت المؤامرة، وأسفرت عن وجهها الكالح، أكثر فأكثر حتى أصبحت العشيبة هي التي تحكم، تبعثر الأموال، وتعطل الحدود، وتجمد الأحكام ، وتتلاعب بمقدرات الناس، حتى أصبح القيء والسواد بستاناً لقريش، والخلافة كرة يتلاعب بها صبيان بني أمية .

وصار المسلمون لأول مرة ، يسمعون ادعاءات بطانة الحكم العثماني، متحدّين مشاعر المسلمين «بأن المال مالنا، والمخراج خراجنا، والأرض هي ملكنا ان شئنا اعطينا وان شئنا حرمتنا الآخرين» .

هذه الإدعاءات كانت تقال خارج نطاق، دستور الدولة . . اما في نطاق الدستور، كانت لا تزال الصيغة الإسلامية الصيغة المعتمدة التي تنص على :

«إن المال مال الله، والناس موامية والمسلمون كلهم عبيد الله لا فرق بين قرشيم، وعربيم، واعجميتهم، أو بين مسلم وآخر» .

هذه الصيغة الدستورية، استمرت حتى في عهد عثمان . . ولكن ولاته والأمويين بتغلر سهم وعجرفتهم وتهورهم، كانوا يترجمون الواقع السيء وينطقون به

والواقع هو غير الدستور المكتوب، الذي يعترف نظرياً بأن الأمة، هي صاحبة الرأي وسيدة الموقف وإن أرض السواد هي ملك لها..

هكذا كان الأمر.. وهذا يعني أن عناصر المؤامرة المخطط لها لم تستكمل شروط نجاحها بعد، بالرغم من كل هذه المقدمات والارهاصات، النظرية والعملية.

فالأمة كانت بخير، تحتفظ بإصالتها ووجودها، هذه الأمة كانت تأتي إلى خليفتها عثمان بن عفان وتقول له: «لا نريد هذا الوالي، لأنه منحرف لا يطبق كتاب الله وسنة نبيه (ص)..» ولم يكن يستطيع عثمان أن يجيب الأمة بصراحة، أو أن يمنحها من هذا الطلب أو أن يتحداها في إرادتها الصلبة، أو أن يرد عليهم بأنه ليس لكم هذا.. أنا الخليفة وأنا الحاكم المطلق وهذا الوالي يمثلني شخصياً.. لم يستطيع أن يقول كل هذا، بل كان يضطر إلى الاعتذار، ويقبل ويرجع ويتاور مع الأمة.. نفس هذه الأمة عندما أحست بتفاقم الخطر على وجودها وكرامتها، عبرت تعبيراً ثورياً عن وجودها وكرامتها، فقتلت خليفتها لتتجه بعد مقتله إلى الإمام علي (ع) التي رأت فيه رمزاً ثورياً، يعبر من جديد عن وجودها وكرامتها المستباحتين.. استجذبت بالإمام (ع) لكي يقضي على كل إنحراف خرج به الحكام عن الدستور وعن الصيغة الإسلامية التي جاء بها القرآن للحياة.

فمن هنا كانت القضية لا تزال في بدايتها، تحتاج إلى الكثير لتميع إرادتها، فالأمة.. ولو بحسب مظهرها على أقل تقدير.. كانت تحتفظ بروحها (القرآنية) روح صدر الإسلام، التي اندفعت بها لتقتل خليفتها (المنحرف) في سبيل أن تحتفظ بوجودها وكرامتها، وقد اتجهت صوب أملها الإمام علي (ع)، لأنها كانت ترى فيه الشخص الوحيد الذي يؤمل فيه أن يصفي عملية الانحراف عن كتاب الله وسنة نبيه (ص)

فالظروف والملابسات التي أحاطت بالأمة آنذاك، لم تكن لتؤدي إلى يأس، بل كانت تؤدي إلى أمل بقهر الانحراف.

وما حدث من خلال سني حكم الإمام (ع) الأربعة، كان يؤكد هذا الأمل، فالإمام (ع) استطاع أن يسيطر على الموقف بسهولة، ولولا مسألة التحكيم ولولا

شعاراً - ميكافيلياً - طرح من قبل معاوية (رفع المصاحف) ينعكس بشكل خاطيء لدى جماعة معينة من جيش الإمام (ع) وتشق صفوفه . . ولولا هذا لكان بينه وبين معاوية وتصفيته إلى الأبد بضعة امتار وقليل من الزمن! .

وبعد ان ادركنا كل هذه الحقائق، نرى أن أمل الأمة واعتقادها في ان علياً (ع) يمكنه ان يحقق الهدف ويعيد للأمة وجودها وكرامتها، من دون حاجة إلى المساومات وانصاف الحلول، يكون أمل الأمة هذا املاً معقولاً وراجحاً . . ومن هنا كانت نظرية الإمام (ع) بأنه لم يكن هناك أي مجوز يقوده لمزالق المساومات وانصاف الحلول . . .

وهكذا كان (ع) وظل إمامنا العظيم صامداً مواجهاً لكل المؤامرات التي كانت الأمة المغفلة تساهم في صنعها وحياتها على أساس جهلها وعدم وعيها وشعورها بالدور الحقيقي الذي يمارسه الإمام (ع) في سبيل حماية وجودها من الضياع وحفظ كرامتها من ان تتحول إلى سلعة يساوم عليها بالبيع والشراء، حتى خرّ صريعاً في مسجده، ونخاب باستشهاده الأمل الذي اعتمل في نفوس الواعين . . وانتهى آخر امل حقيقي في قهر الانحراف وقدر للمؤامرة ان تنضج وأن تؤتي مفعولها في التاريخ الإسلامي .

وان نجاح المؤامرة في فهم الإمام علي (ع) لم يكن يعني الفناء السلاح، بل يتحدث إلى ولديه ليقول لهما «نعم يا ولدي لقد نجحت المؤامرة باغتيالتي، ولهذا سوف تشردون وتقتلون انتم وشيعتكم . . ولكن هذا يجب ان لا يفت في عضدكم، لأن المعركة لم تنتهي بعد يجب ان تقاوم حتى تقتل مسموماً، ويجب ان يقاوم اخوك الحسين حتى يقتل بالسيف، ولا بد ان يستمر الخط، حتى بعد ان سرق من الأمة وجودها، لأن محاولة استرجاع الوجود إذا بقيت حية في اذهان الأمة فسوف يبقى نفس الجهاد فيها، ويبقى هناك ما يحصن الأمة ضد التميع وفقدان الإرادة . . لأن الأمة حينما تتنازل عن إرادتها وشخصيتها للطاغوت حيثذ تكون عرضة للتميع والذوبان في اتون هذا الطاغية وذلك الجبار . . ولكن إذا بقي لدى الأمة محاولة استرجاع هذا الوجود باستمرار، فهناك أمل في ان تتمكن الأمة من استرجاع وجودها، وعلى اقل تقدير، سوف تحقق هذه المحاولة كسباً أنياً



باستمرار، وهو تحصين الأمة ضد التميع والذوبان المطلق في إرادة وإطار الحاكم الطاغية . . وهذا ما وقع لأهل البيت (ع) .

وفي نصف القرن الأول بعد وفاة النبي (ص) كانت القيادة الشعبية - بعد اقصائها عن الحكم - تحاول باستمرار استرجاع الحكم بالطرق التي تؤمن بها، لأنها كانت تؤمن بوجود قواعد شعبية واعية أو في طريق التوعية من المهاجرين والانصار والتابعين باحسان ولكن بعد نصف قرن - وبعد ان لم يبق من هذه القواعد الشعبية الشيء المذكور ونشأت اجيال مائعة في ظل الانحراف - لم يعد تسلّم الحركة الشعبية بقيادة أهل البيت (ع) للسلطة محققاً للهدف الكبير لعدم وجود القواعد الشعبية المساندة بوعي وتضحية .

وأمام هذا الواقع كان لا بد من عمليتين : -  
أحدهما: العمل من أجل بناء هذه القواعد الشعبية الواعية التي تهيء أرضية صالحة لتسلّم السلطة .

والأخرى: تحويل ضمير الأمة الإسلامية وإرادتها، والاحتفاظ بالضمير الإسلامي والإرادة الإسلامية بدرجة من الحياة والصلابة تحصن الأمة ضد التنازل المطلق عن شخصيتها وكرامتها للحكام المنحرفين .

والعمل الأول، هو الذي الذي مارسه الأئمة (ع) بأنفسهم والعمل الثاني، هو الذي مارسه ناثرون علويون، كانوا يحاولون بتضحياتهم الباسلة أن يحافظوا على الضمير الإسلامي والإرادة الإسلامية، وكان الأئمة (ع) يستندون المخلصين منهم<sup>(١)</sup> .

شهادة الإمام علي (ع) في الميزان :

وباستشهاد الإمام (ع) قضت قوى الردة على آخر أمل في إعادة خط التجربة الصحيحة، ذلك الأمل الذي اختلج في نفوس المسلمين الواعين متجسداً بإمامهم العظيم (ع)، الذي عاش منذ اللحظة الأولى من تسلّمه لزام الخلافة

(١) بحث حول الولاية/ الشهيد الصدر/ ص: ٩٤ - ٩٥ .



هموم الدعوة وآلامها وشارك في بنائها لبنة لبنة، وأقام صرحها مع الرسول (ص)، ورافقه معه كل مراحل الدعوة بكل مشاكلها وهمومها وآلامها.

ولهذا كانت حادثة اغتياله الفادر، تقويضاً حقيقياً لأخر أمل حقيقي لقيام مجتمع اسلامي صحيح .

فقد خَرَّ الإمام (ع) صريعاً مضرجاً بدماء الشهادة الطاهرة وهو في محراب الصلاة، فقال: فزت ورب الكعبة!

لنضع علياً في الميزان وهو في آخر لحظة من لحظات حياته (ع) حينما صرخ: فزت ورب الكعبة.. هل كان (ع) اسعد انسان أو كان اتعس انسان؟

لكي نجيب على هذا السؤال، هناك مقياسان في هذا المجال، فتارة نقيس الإمام (ع) بمقياس مادي (دنيوي) صرف وآخر نقيس الإمام بمقياس - قرآني - الهوي .

فلو كان الإمام (ع) قد عمل للدنيا ولزعامة الدنيوية، فهو ولا شك اتعس انسان، وليس هناك اتعس حظاً منه، لأنه (ع) بنى كل ما بنى، وأقام كل ما أقام من صرح، حيث شارك رسول الله (ص) في بنائها لبنة لبنة، ورافقه في كل مراحل الدعوة للإسلام، ثم يحرم (ع) من كل هذا الجهد والبناء، ومن كل هذه الصروح؟ هذا الإسلام الشامخ العظيم الذي امتد شرقاً وغرباً بني بدم علي (ع) وبخفقات قلبه وآلامه، لقد كان (ع) شريك البناء بكل محنته وكوارثه وآلامه...

أي لحظة محرجة وجدت بتاريخ هذا البناء، لم يكن علي (ع) حاضراً. فيها وهو القائد الشجاع الذي توجه إليه انظار المسلمين جميعاً، من أجل ان ينقذ عملية البناء، ولم لا، وهو الإمام الحق الذي خبرته الجماهير في توضيحاته من أجل الإسلام، حيث لم يتردد أن يضع دمه على كفه في كل غزوة ومعركة، وكل تصعيد جديد لهذا العمل الإسلامي العظيم.

وقد كان لجهاد علي (ع) الأثر الكبير لقيام دولة مترامية الأطراف، حيث اتسعت دولة الإسلام بسيفه وأرسيت دعائمها بدمه الطاهر الشريف.

ولكن ماذا استفاد علي (ع) من كل هذه الجهود والتوضيحات المضنية، بمقاييس (الدنيا)؟ ماذا حصل إمامنا من كل هذه التوضيحات والبطولات، غير الحرمان والاقصاء عن حقه الطبيعي . وإذا أردنا ان نقطع النظر عن تعيين الله تعالى له وحيث النصوص المتدفقة في إمامته، فإن حقه الطبيعي ، ان يحكم بعد موت النبي (ص) لأنه الشخص الثاني عطاء للدعوة وتوضيحية في سبيلها . ولكنه اقصي من حقه الطبيعي والشرعي (بمؤامرة السقيفة) وقاس الوان الحرمان، وانكرت عليه كل امتيازاته، حتى أن معاوية بن أبي سفيان يقول محدثاً محمد بن أبي بكر عن علي (ع):

«بأنه كالنجم في السماء أيام رسول الله (ص) ولكن ابالك والفاروق ابتزا حقه وأخذوا أمره، وبعد هذا نحن شعرنا أن بإمكاننا ان ندخل في ميدان المساومة مع هذا الرجل» .

فعلي (ع) حينما واجهه عبد الرحمن بن ملجم بتلك الضربة القاتلة على رأسه كان ماضيه ماضي حرمان وألم وخسارة لم يكن قد حصل على شيء منه . ولكن الذين حصلوا على المكاسب هم أولئك الذين لم يساهموا في بنائه (كمعاو مثلاً) والذين كانوا على استعداد دائم للتنازل عن مستوى هذا البناء في أية لحظة من اللحظات . . أما علي (ع) فلم يفكر ان ينهزم لحظة أو أن يتلكأ في أي آن، ولم يتلعثم في قول أو عمل . ولكنه يحرم من هذا البناء ولم يحصل على أي مكسب منه .

ما أتعس إمامنا بمقاييس (الدنيا) فهو الذي بنى وغير الدنيا بعمله، ثم يمنع من ثمار هذا التغيير!

هذا هو ماضي الامام (ع) . . فماذا عن مستقبله؟ لنتظر إلى المستقبل الذي كان (ع) ينظره بعين الغيب، كان يرى أن عدوه اللدود سوف يظاً منبره ومسجده ويتتهك كل الحرمات والكرامات التي ضحى وجاهد في سبيلها . كان يرى عدوه يستقل هذه المنابر التي شيدت بجهاده ودمه، يستغلها في لعنه وسبه عشرات السنين، وهو القاتل (ع) لبعض خواصه من الصحابة:

«إنه سوف يعرض عليكم سبي ولعني والبراءة مني ، اما السب فسيوني ،  
 واما البراءة مني فلا تبرؤوا» .

كان الامام (ع) يرنو بعين الغيب الى المستقبل ، ولم يكن يرى في افق  
 المستقبل نوعاً من التكذيب ، يتدارك به هذا الحرمان . وبالرغم من هذا كله ، كان  
 يهتف فرحاً لحظة استشهاده : فزت ورب الكعبة ، وقد أدرك انها اللحظة الأخيرة من  
 حياته ، وأنه انتهى خط جهاده وهو في قمة هذا الجهاد ، وانتهى خط محنته وهو في  
 قمة صلته وعبادته بين يدي الله ، قال : فزت ورب الكعبة ، لأنه لم يكن انسان  
 الدنيا . ولو كان كذلك ، لكان أتعس انسان على الاطلاق ، لكان قلبه يتفجر  
 ويتمزق ألماً وحسرة . ولو كان انسان الدنيا ، لندم تدمماً لا يتفجع معه شيء . لأنه بنى  
 صرحاً شاهقاً ، ثم انقلب عليه ليحطمه .

ومع كل هذا هتف «فزت ورب الكعبة» . . لأنه كان اسعد انسان ، ولم يكن  
 اشقى انسان ، لأنه عاش من أجل اهداف نبيلة ولم يكن يعيش للدنيا الفانية ، عاش  
 لأهدافه ولم يعيش لمكاسبه ، ولم يتردد لحظة وهو في قمة هذه المآسي والمحن في  
 صحة ماضيه وحاضره وانه أدى دوره الذي كان يجب عليه .

وهنا تكمن العبرة . . لأننا يجب ان نستشعر دائماً ان السعادة والفوز في عمل  
 العامل لا تتبع من المكاسب التي تعود نتائجها لهذا العمل . . لا يمكن تقييم سعادة  
 العامل على هذا الاساس ، لأننا لو قيمناه على هذا الاساس ، فقد يكون حظنا كحظ  
 هذا الامام المسكين الذي بنى صرح الاسلام ووجه امة ، ثم بعد هذا انقلبت عليه  
 هذه الامة لتلعه على المنابر ألف شهراً !

وعليه لا يمكن ان نجعل مقياس سعادة العامل في عمله ، المكاسب والفوائد  
 العاجلة التي تنجم عن هذا العمل وانما المقياس الحقيقي لتقييم العمل هو ، رضی  
 الله سبحانه وتعالى .

وحيثذ سوف نكون سعداء ، سواء أثر عملنا أو لم يؤثر وسواء قدر الناس  
 عملنا ام لم يقدروا ، وسواء ان رمونا باللمن والحجارة . . نحن سعداء لأننا أدبنا  
 الواجب وتلك هي السعادة الحقيقية .

هنيئاً لك أيها الإمام المعلم العظيم وسلام عليك يوم ولدت ويوم تبعث حياً .

## الفصل الرابع

- ١ -

### تمهيد

تعريف بشخصية الامام ونشأته :

هو الحسن بن علي بن أبي طالب .

ولد في اليوم الخامس عشر من شهر رمضان المبارك للسنة الثالثة للهجرة ،  
بالمدينة المنورة ، عاش سبع وأربعون سنة ، وتوفي في السابع من شهر صفر ، وعلى  
رواية اخرى الخامس والعشرين من ربيع الأول ، من السنة ، التاسعة والاربعون  
للهجرة ، وقيل خمسين للهجرة متأثراً بالسم الذي دس له زوجته - جعدة بنت  
الأشعث بأمر من معاوية دفن في المدينة المنورة .

أمه : فاطمة الزهراء ( ع ) بنت الرسول (ص)

وقد عاصر الإمام الحسن ( ع ) جده الرسول (ص) سبع سنين وهي السنين  
الأولى من حياته ، وانتقل بعدها لأبيه علي (ع) .

وكان جده النبي (ص) يؤكد على الناس في كل مناسبة أن يحفظوه فيه ، وفي

اخيه الحسين (ع) ، ويقول مشيراً إليهما :

وهذان امامان قاما او قعدا اللهم اني أحبهما فأحبهما ، وأحب من  
يحبهما<sup>(١)</sup> .

(١) سيرة الأئمة الاثني عشر / القسم الاول / هاشم معروف الحسني ، ص : ٥١١ ، ٥٢٧ .

مكاته (ع) من خلال الكتاب والسنة:

١ - الكتاب: آية المودة «قل لا أسألكم عليه اجراً الا المودة في القربى» الشورى ٢٣، اجمع المفسرون، ان الآية نزلت في علي، وفاطمة، والحسن، والحسين (ع)<sup>(١)</sup>.

٢ - السنة:

أ - روى البخاري ومسلم عن البراء قال: رأيت رسول الله (ص) والحسن علي عاتقه وهو يقول «اللهم إني أحبه فأحبه».

ب - وروى الترمذي عن ابن عباس انه قال: كان رسول الله (ص) حاملاً الحسن (ع)، فقال رجل نعم المركب ركبت يا غلام، فقال (ص): نعم الراكب هو وقال فيه «ان هذا ريحانتي».

ج - عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله (ص): «من سره ان ينظر الى سيد شباب أهل الجنة، فليتنظر الى الحسن بن علي».

وقال: «حسن مني وأنا منه، أحب الله من أحبه» والحسن (ع) هو سيد شباب أهل الجنة باجماع المحدثين، وأحد اثنين انحصرت بهما ذرية رسول الله (ص) وأحد الأربعة الذين باهى بهم رسول الله نصارى نجران، ومن أصحاب الطهر والذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». ومن القريبى الذين أمر الله عودتهم وجعلها أجراً لرسالته «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى». وأحد الثقلين اللذين من تمسك بهما نجا ومن تخلف عنهما ضل، وغوى، ومن أهل البيت الذين شبههم الله بسفينه نوح وقال فيه الرسول (ص) وفي أخيه الحسين عشرات المرات:

«هذا ريحانتي من الدنيا من أحبني فليحبهما ومن أبغضهما أبغضني».

(١) ذخائر المعنى / الطبري، ص: ٢٥! وسند احمد بن حنبل وتفسير الثعلبي وتفسير الطبرسي.  
(٢) راجع آية التطهير وآية المباهلة ص ٦٢ - ٦٣ من هذا الكتاب.

ومن ابغضني ابغضه الله وادخله النار، وأنهما سيذا شباب أهل الجنة،  
 وإن أباهما خير منهما»<sup>(١)</sup>.

د- وعن الغزالي في الاحياء، جاء أن النبي (ص) قال: للحسن أشبهت  
 خلقي وخلقي»<sup>(٢)</sup>.

### شخصية الامام الاخلاقية :

تروى كتب السيرة: أنه (ع) مرّ على جماعة من الفقراء قد وضعوا على وجه  
 الأرض كسيرات من الخبز كانوا قد التقطوها من الطريق وهم يأكلون منها فدعوه  
 لمشاركتهم في أكلها فأجاب دعوتهم قائلاً:

«إن الله لا يحب المتكبرين»، ولما فرغ من مشاركتهم دعاهم لضيافته،  
 فأجزل عليهم المال، وأطعمهم وكساهم.

وروي عنه (ع) مرّ على صبية يتناولون طعاماً فدعوه لمشاركتهم فأجاب  
 الدعوة ثم دعاهم إلى داره وأجزل لهم العطاء.

### أخلاقه مع معارضيه :

روي أن شامياً ممن غنّوا بالحقّد على آل البيت (ع) رأى الإمام راكباً،  
 فجعل يلعنه والحسن لا يرد عليه، فلما فرغ الرجل أقبل عليه الحسن ضاحكاً،  
 وقال: «أيها الشيخ اظنك غريباً ولعلك شبهت، فلو استعنتنا أعتيناك، ولو سألتنا  
 أعطيناك، ولو استرشدتنا ارشدناك وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت محتاجاً  
 أغنيناك وإن كنت طريداً آويناك... الخ».

فلما سمع الرجل كلامه بكى ثم قال:

«أشهد أنك خليفة الله في أرضه، الله أعلم حيث يجعل رسالته كنت

(١) راجع سيرة الأئمة الاثني عشر / الحسيني / ص: ٥١٤.

(٢) الفصول المهمة / ابن الصباغ المالكي واعلام الورى / للطبرسي .

انت وأبوك أبغض خلق الله إليّ، والآن أنت وأبوك احب خلق الله إليّ<sup>(١)</sup>.

سناؤه:

سئل مرة (ع): لأي شيء لا تراك ترد سائلاً؟ قال (ع):  
«إني لله سائل وفيه راغب وأنا استحي ان أكون سائلاً وأرد سائلاً وان الله  
عودني عادة أن يفيض نعمة عليّ وعودته ان أفيض نعمة على الناس  
فأخشى ان قطعت العادة أن يمنعي العادة»<sup>(٢)</sup>.

- ٤ -

الحسن (ع) في عهد الخلفاء:

لم يحدثنا التاريخ بشيء، عن حياة الامام (ع) في عهد الخليفة أبي بكر،  
لأنه لم يتجاوز سن الطفولة، فقد كان في سن العاشرة من عمره يوم توفي أبو بكر.

وأما في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وبعد بلوغه العشرين من عمره، وهو  
سن يخوله الاشتراك في الحروب والغزوات، انظم (ع) الى جنود المسلمين الذين  
اتجهوا إلى أفريقيا بقيادة عبدالله بن نافع وأخيه عقبة<sup>(٣)</sup> في جيش بلغ عشرة آلاف  
مجاهد، وتطلع المسلمون إلى النصر والفتح متفائلين بوجود حفيد الرسول وحبيبه  
يجاهد معهم.

«وجاء في الفتوحات الاسلامية، وغيرها من المصادر، ان سعيد بن العاص  
غزا طبرستان سنة ثلاثين من الهجرة، وكان الأجد، قد صالح سويد بن مقرن،  
على مال بذله في عهد عمر بن الخطاب، وفي عهد عثمان بن عفان، جهز اليهم  
جيشاً بقيادة سعيد بن العاص كان فيه الحسن والحسين وعبدالله بن العباس وغيرهم  
من المهاجرين والانصار وتم لهم الاستيلاء على تلك المناطق والتغلب عليها»<sup>(٤)</sup>.

(١) سيرة الائمة / الحسن / ص: ٥١٨.

(٢) أهل البيت / توفيق أبو علم.

(٣) كتاب العبر / ابن خلدون نقلًا عن سيرة الائمة الحسن / ص: ٥٣٥.

(٤) تاريخ الأمم والملوك / ج ٥ / ص: ٥٧، والمجلد (١) من الفتوحات الاسلامية / ص: ١٧٥.



وهناك العديد من المرويات التي تؤكد بأن الحسن والحسين قد اشتركا في كثير من الفتوحات الاسلامية، وكان لهما دور بارز في سير تلك المعارك.

أما في عهد أبيه، فقد اشترك في جميع حروبه في البصرة والنهروان، مقاتلاً الناكثين والقاسطين والمارقين. ولكن اياه كان شديد الحرص عليه وعلى أخيه الحسين فلم يسمح لهما بمواصلة القتال، مخافة ان يصيبهما سوء فتقطع بقتلهما ذرية رسول الله (ص)، وكان يقول (ع) عنهما:

«انهما عيناى، ومحمد بن الحنفية ساعدي ويدي والمرء يدفع عن عينيه بيديه وساعديه»<sup>(١)</sup>.

وقد تميز دور الإمام (ع) في عهد أبيه بالخضوع التام لأبيه قدوة واماماً مفترض الطاعة، وتجلى دوره في تجسيد مفهوم الانقياد لامامة أبيه (ع) فعندما تعرض معسكر الامام علي (ع) الى العدوان بتمرد طلحة والزبير في البصرة وحركة المنشقين البغاة بقيادة معاوية في الشام، نرى ان الامام (ع) يرسل على الفور نجله الحسن (ع) برفقة عمار بن ياسر الى الكوفة وذلك بسبب تخاذل أبو موسى الأشعري، وتحريضه جماهير الكوفة على القعود عن نصره الامام علي (ع)، وما ان وصل الحسن (ع) الكوفة، الا واحتشدت عليه الجماهير معلنة ولاءها ونصرتها فألقى فيهم خطاباً أيقظ فيهم الهمم وحفز نفوسهم على مواصلة حمل راية الجهاد<sup>(٢)</sup>.

وكذلك انتدب الإمام الحسن من قبل أبيه بعد مهزلة التحكيم التي انتهت بخذلان أبي موسى الأشعري للإمام علي (ع) حيث سار الاضطراب في معسكر الإمام (ع) فقرر الإمام علي ان يشرح للقوم حقيقة الموقف، وقد اسند مهمة ذلك للحسن فقام (ع) خطيباً ليبين حقيقة الموقف :-

«أيها الناس قد اكرتتم في هذين الرجلين (عبدالله بن القيس) (أبو

(١) شرح نهج البلاغة / ج ٣ ص: ٩ نقلاً عن الحسني / ج ١ ص: ٢٨٣.

(٢) حياة الإمام الحسن / القرشي ج ١ / ص: ٣٨٧.

موسى الأشعري)، وعمر بن العاص، إنما بعثنا ليحكمنا بالكتاب على الهلدي، فحكمنا بالهوى على الكتاب، ومن كان هكذا لم يسم ولكنّه محكوم عليه، وقد اخطأ (الأشعري) إذ جعلها لعبد الله بن عمر، فأعطاه في ثلاث خصال: واحدة، انه خالف آياه إذ لم يرضه لها، ولا جعله في أهل الشورى، وأخرى انه لم يستأمره في نفسه وثالثها: انه لم يجتمع عليه المهاجرون والانصار الذين يعتقدون الإمارة ويحكمون بها على الناس، وأما الحكومة فقد حكم النبي (ص) سعد بن معاذ فحكم بما يرضي الله به ولا شك لو خالف لم يرضه رسول الله (ص) (١).

لقد اشترك الإمام الحسن مع أبيه في حياته السياسية والعسكرية وكان بجانبه في كل حروبه وكان له دور حاسم فيها، حيث خاض تلك المعارك وأخذ تلك الفتن مجرداً من كل دافع سوى دافع الحرص على نقاء الإسلام.

- ٥ -

الإمام الحسن بعد استشهاد أبيه:

قبل استشهاد الإمام علي (ع)، وفي أيام جرحه أوصى الإمام الراحل إلى ولده الحسن (ع): قائلاً له:

ويا بني انه امرني رسول الله (ص) أن أوصي إليك وأدفع إليك كتيبي وسلاحي، كما أوصى إليّ ودفع إليّ كتيبه وسلاحه وأمرني أن أمرك إذا حضرك الموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين.. الخ (٢)

وبعد ان أمر الحسن (ع) بقتل «ابن ملجم» وبعد الفراغ من أمره، والانتهاه من مراسم دفن الإمام الراحل (ع).. اتجه الإمام الحسن (ع) لتوه في صبيحة

(١) حياة الإمام الحسن/ القرشي/ ص: ٤٧٩.

(٢) اعلام الوري/ للطبرسي ص: ٢٠٦، وكشف الغمة في معرفة الأئمة ج٢/ ص: ١٥٥ والبخاري ج٤٢/ ص: ٢٥٠.

ذلك اليوم إلى مسجد الكوفة، وقد سبقته الجماهير في حشود هائلة إلى الجامع، وهي تعيش صدمة هول المصاب، باستشهاد قائدها وإمامها الإمام علي (ع) وقد غص بهم الجامع على سعة فوقف الحسن (ع) خطيباً، وحوله من بقي من وجوه المهاجرين والانصار، وهو يوجه أول بيان له بعد رحيل القائد العظيم (ع) مؤثناً أباه ومعرفاً بنفسه للجماهير قائلاً:

«لقد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل ولم يدركه الآخرون بعمل، لقد كان يجاهد مع رسول الله (ص) فيقيه بنفسه وإينما وجهه رسول الله كان جبرائيل عن يمينه، وميكائيل عن يساره فلا يرجع حتى يفتح الله عليه». ثم تمثل له أبوه وما عاناه في حياته من الآلام والمتاعب، ليتوقف عن الاسترسال بخطبته حتى يكي ويكي معه الناس.

ثم استأنف بيانه معرفاً بنفسه وطارحاً مواصفات القائد الراحل كما طرح مؤهلاته هو ومكانته في دنيا الاسلام والمسلمين وكونه الاولي بقيادة المسلمين، قائلاً: ..

«أيها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي وانا ابن النبي والوصي وانا ابن البشير النذير والداعي إلى الله بإذنه وانا ابن السراج المنير، وانا من أهل البيت الذين كان جبريل ينزل الينا ويصعد من عندنا، وانا من اهل البيت الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وافترض مودتهم على كل مسلم»<sup>(١)</sup>.

وبعد الفراغ من قراءة بيانه نهض ابن عباس يطلب من الناس البيعة للحسن (ع) بقوله «معاشر الناس، هذا ابن نبيكم ووصي إمامكم فبايعوه».

وقد تمت البيعة للحسن (ع) خليفة واميراً للمؤمنين في الكوفة وفي امصار

(١) سيرة الائمة/الحسني ج١/ص: ٥٢٦، وحياة الإمام الحسن/القرشي ج٢/ص: ٢٢.

آخري كالحجاز واليمن وفارس، وسائر المناطق الإسلامية الأخرى، وكان اول متقدم لمبايعة الإمام هو قيس بن سعد بن عبادة الانصاري،<sup>(١)</sup>.

### رد فعل معاوية على بيعة الإمام الحسن (ع) :-

اول رد فعل أظهره معاوية بعد وفاة الإمام علي (ع) شماتته بوفاته (ع) واحتفال عاصمته، وإظهار الفرح والبهجة بهذا الحدث الجلل. . وقد اغتاض معاوية لبيعة الإمام الحسن (ع) فطلب اجتماعاً موسعاً، ضم كل مستشاريه وقادته في مؤتمر طارئ لرسم خطوط سياسته الجديدة التي يريد من خلالها مواجهة الإمام الحسن (ع).

فقد جاء في شرح النهج، ومقاتل الطالبين وغيرهما من المصادر التاريخية، ان معاوية ومستشاريه قرروا بمؤتمرهم هذا، بث شبكة من الجواسيس والمغلام داخل مجتمع الإمام (ع) لبث الارهاب.. وإشاعة الدعايات والاختبار الكاذبة ضد حكم الإمام ولصالح الفتنة في الشام، ومحاولة كسب الزعامات والوجوه الاجتماعية المؤثرة في سير الاحداث في العراق، وذلك من خلال ارشائها واغرائها بالوعود وإلى غير ذلك من الاساليب الدنيئة.

وتحرك معاوية فوراً ليضع قراراته موضع التنفيذ وارسل للغرض نفسه رجلين احدهما (حميري) ارسله للكوفة وآخر (قيني) ارسله للبصرة فاخذوا وقتلاً<sup>(٢)</sup>.

ولكن الإمام الحسن (ع) سرعان ما اظهر رد فعله باكتشاف خبث نوايا معاوية وأرسل له كتاباً يتوعده ويهدده باعلان الحرب، قائلاً له :-

«أما بعد فإنك دسست إلي الرجال، كأنك تحب اللقاء لا أشك في ذلك، فتوقعه ان شاء الله، وبلغني انك شمت بما لم يشمت به ذووي الحمجي»<sup>(٣)</sup>.

(١) ن. م/ص: ٥٥٧.

(٢) الفصول المهمة/لابن الصباغ المالكي ص: ١٣٥ نقلاً عن الحسيني ص: ٥٥٧.

(٣) الفصول المهمة /لابن الصباغ المالكي ص: ١٣٥ نقلاً عن الحسيني ص: ٥٥٨.

واعقبها معاوية برسالة جوابية، مراوفاً فيها، نافياً شماتته بموت الإمام علي (ع) وبعدها تبودلت رسائل كثيرة بينهما . وكان أهمها كتاب الإمام لمعاوية بوجوب التخلي عن انفصاله وضرورة اعلان ولاءه للحكم الشرعي . ولكن معاوية ابي الاستجابة لنداء الإمام، ومن ثم تصاعد الموقف بعدها ووصل الحال بمعاوية ان يكتب رسالة للإمام يطلب منه بيكل صلف ووقاحة ان يتنازل عن الحكم وينضوي تحت حكمه على ان تكون الخلافة له من بعده غير ان الإمام (ع) اجابه بكتاب مختصر يحمل روح الاصرار والحزم قائلاً له :-

وأما بعد فقد وصل كتابك تذكر فيها ما ذكرت وتركت جوابك . وبالله اعوذ من ذلك . فأتبع الحق تعلم اني من اهله وعليّ أتم ان أقول فأكذب . والسلام .

وبعد هذه الرسالة قرر الإمام عدم مراسلته بشيء، حتى أعلن معاوية من جانبه الحرب ويأمر الحسن (ع) إلى اعلان حالة الدفاع لمواجهة العدو الزاحف .

- ٦ -

## الإمام وظروف استلامه الحكم:

تمهيد:

تولى الإمام الحسن (ع) مسؤولية الخلافة في مناخ قلق غير مستقر وفي ظروف الشك والتعقيد التي برزت في أواخر حياة ابيه علي (ع) وذلك على شكل بذور - شك - في تجربته السياسية التي تزعم قيادتها في إعادة كامل الصيغة الإسلامية للحياة، حيث اخذت ظاهرة الشك بالتجذر والتوسع في عهد الإمام الحسن (ع) .

وقد سبق لنا القول في فصل الإمام علي (ع) . بأن ظاهرة الشك بالقائد ونظريته واطروحته التي كافح من أجلها المنحرفين والقاسطين والناكثين، لم يكن شكاً حقيقياً واقعياً بل كان شكاً ذاتياً مصطنعاً - خلقتها ظروف الحرب النفسية الطويلة القاسية والحرب الاسلامية - الإسلامية (الباغية)، ولن تكن اطلاقاً (ظاهرة

الشك) نتاجاً لسيرة الإمام (ع) بل جاء الشك تبريراً مستوحاً من ارهاق قاعدة الإمام وقصر نفسها في مواصلة خط الجهاد المضني الطويل.

والذي نريد أن نلقي الضوء عليه الآن، هو ان هذا الشك تضاعف وتصاعد (بحكم ظروف الإمام الحسن الجديدة والتي سيمر ذكرها)، من شك بسيط - ذي دوائر بسيطة (سلبية) إلى شك واسع ذي دوائر متنامية (إيجابية). . . كان شكاً (سلبياً بسيطاً) انعكس في زمن الإمام علي على مستوى التخاذل والتمنع، والتناقل لنداء الجهاد، والتلكؤ في تلبية الأوامر العسكرية للإمام (ع) . . . بينما نرى هذا الشك يأخذ - مدى اوسع - يتعكس انعكاساً (إيجابياً متنامياً) ليشمل قطاعات عريضة من المجتمع، وتشتد حالتها بالتدرج وتعمد إلى قواعد الشعبية، التي كان يفترض بها ان تساهم في مواصلة العمل والجهاد لدعم التجربة السياسية التي يقودها الإمام الحسن (ع).

ونود بعد هذا التمهيد أن نناقش ونحلل بشكل اعمق ظاهرة الشك واسباب تناميها في مجتمع الإمام، بأن نتبع بداياتها الأولية في عهد الإمام علي، حيث اكتسبت مضمونها ومحتواها من موقف الإمام من معاوية في معركة الإسلام مع مع الجاهلية المقنعة (بإسلام السقيفة) - حيث ان معركة الإمام (ع) مع معاوية كانت معركة الصيغة الإسلامية الكاملة للحياة مع منهج الجاهلية واطروحتها الكسروية والهرقلية للحياة، هذه الجاهلية التي لم تكن تؤمن يوماً بالنبوة وبافكار الإسلام في الحياة، إيماناً حقيقياً بل خضعت لسلطان الإسلام، بعد ان أكمل سيطرته التامة على مقاليد كسرى وقيصر، واصبحوا بإزاء حكم الإسلام أمام الامر الواقع، فكانت مبادرتها إلى تعديل موقفها فبدلاً من ان ترفض الإسلام وتنكره ككل بدأت تتأمر وتحاول ان تنكره على المبدأ القائل «خطوة إلى الوراء من أجل خطوتين إلى الأمام» فانكرت بعضاً أو جزءاً منه وخصوصاً تلك الاجزاء التي تتعارض صراحة مع واقع مصالحها السياسية ومكاسبها الاجتماعية، تمهيداً للقضاء على الإسلام.

هذه المعركة كان يدرك خطورة ابعادها الإمام (ع) وقد اعطاها كل وجوده ومشاعره، ولم يكتف (ع) بالقول والشعارات، بل عاش المعركة بكل سلوكه

وعمله المتواصل موعياً قواعده الشعبية على أهداف وطبيعة المعركة، ليجعلهم مواكبين لأهداف الإسلام في مسيرته المظفرة.

وقد أكد الإمام علي (ع) إهتمامه على شعب العراق، لأنه كان حديث العهد بالإسلام، ولم يكن قد عاش الكثير من أيام الإسلام الأولى (أيام الوحي)، حيث نجح الإمام علي في كسب قواعده - بدرجة ما - إلى قناعاته، ولكن سرعان ما أخذت هذه القناعة (المتزينة) بالتميع والنزول، وذلك بظهور حالة الشك التي ترافقت مع صراع الإمام علي ومعاوية، حيث تم تصوير هذا الصراع في نظر الأمة على أنه صراع بين شخصين أو اتجاهين متحاربين قبل الإسلام، واستثفا صراعهما وخلافتهما بعد الإسلام، وما هي - في نظرهم - إلا استمرار لذلك الاتجاه التاريخي من الصراع، وهي نتاج لعلاقة تاريخية متأخرة بين قبيلتي بني هاشم وبني أمية.

هذه الحالة من الشك (الذاتي) - الذي كان سببه انقطاع نفس خط الجهاد عند اصحاب الإمام علي (ع) ورغبتهم الجامحة لايقاف النزيف وموادعتهم وحبهم ورغبتهم في حياة السلامة والدعة - بدأت تستفحل وتشتد - كما وكيفا، بعد عهد الإمام علي، وباستسلام الحسن (ع) لمسؤولية الحكم، وذلك بتأثير عوامل عديدة نذكر منها ما يلي :-

### صراع بين كيانين :

أولاً : عندما تسلم الحسن (ع) مقاليد الحكم، تسلمها وهناك كيان سياسي (منشق) قائم وحاكم في جزء من العالم الإسلامي، متمثلاً بحكم معاوية في الشام، وقد اكتسب هذا الكيان (المنشق) في نظر كثير من أهل الشام، وحاكمها معاوية بن أبي سفيان شرعية الخلافة على أثر حادثة التحكيم المشهورة في معركة صفين، ومن هذه الواقعة بالذات رأينا ان معاوية أخذ يسلك ويعيش مع قاعدته كما يعيش الخليفة مع رعيته.

وعندما خلت الساحة السياسية من الإمام، وجاء ابنه الحسن (ع) بعده، كان احساس العامة من الناس بضرورة ملء الفراغ السياسي، وكانوا أمام خيارين :



أما الشروع ببناء كيان سياسي جديد، أو الالتحاق بهذا الكيان القائم .  
هذا الاحساس أو اللون من التفكير لم يكن موجوداً أيام حكم الإمام علي ،  
لأن الكيان السياسي (المنشق) في الشام بزعامة معاوية كان كياناً طارئاً (لا شرعي)  
بينما الآن أصبح كيان الإمام الحسن (ع) يعتبر غي ذهن الانسان المسلم العادي  
هو الطارئ .

هذا الواقع النفسي ، استغله معاوية بمكر ودهاء ، وضمناها في رسالة مطولة  
أرسلها للإمام (ع) ، استخدم فيها كل ادوات الخداع والتضليل ، وحاول فيها ان  
يضع لنفسه فيها مخرجاً مما خطط له تجاه الرأي العام الإسلامي ، وان يحتمل  
الحسن (ع) تبعه كل خلاف وشقاق كما يبدو ذلك من رسالته التالية ، نقتطف منها  
ما يلي : -

«لقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت به محمداً رسول الله من الفضل . .  
وقد والله بلغ وأدى ونصح وهدى حتى انتقل الله به من الهلكة وأنا ربه من  
العمى وهدى به من الجهالة والضلالة فجزاه الله أفضل ما جزى نبياً عن  
أمته . . . وقد ذكرت وفاة النبي وتنازع المسلمين الأمر من بعده وتغلبهم  
على أبيك فصرحت بتهمة أبي بكر الصديق ، وعمر الفاروق ، وأبي  
عبدة الأمين وحواري رسول الله وصلحاء المهاجرين والانصار فكرهت  
ذلك لك ، أنك أمرىء عندنا وعند الناس غير الظنين ولا المسيء ولا  
اللثيم ، وأنا أحب لك القول السديد والذكر الجميل .

ومضى يقول : أن هذه الأمة لما اختلفت بينها لم تجهل فضلكم ولا  
سابقتمكم ولا قرابتكم من نبيكم ولا مكاتكم من الإسلام ، قرأت الأمة  
أن تخرج هذا الأمر لقريش لمكاتها من نبيها ورأى صلحاء الناس من  
قريش والانصار وغيرهم وسائر الناس وعوامهم ان يولوا هذا الأمر من  
قريش أقدمها اسلاماً واعلمها بالله وأحبها إليه وأقواها على أمر الله  
فاختاروا أبا بكر وكان ذلك رأي ذوي الدين والفضل ، فأوقع ذلك في  
صدوركم لهم التهمة ولم يكونوا متهمين ولا فيما اتوا بالمخطئين ، ولو  
رأى المسلمون ان فيكم من يغني غناه ويقوم مقامه ويذب عن حريم

الإسلام ذبه ما عدلوا بالأمر إلى غيره رغبة عنه ولكنهم عملوا في ذلك بما رأوا صلاحاً للإسلام وأهله والله يجزيهم عن الإسلام وأهله خيراً . . . وقد فهمت الذي دعوتني إليه من الصلح والحال فيما بيني وبينك اليوم مثل الحال الذي كنتم عليها انتم وأبو بكر بعد وفاة النبي (ص) فلو علمت أنك اضبط مني للرعية واحوط على هذه الأمة وأحسن سياسة وأقوى على جميع الأموال وأكيد للعدو لأجبتك إلى ما دعوتني إليه ورأيتك لذلك أهلاً ولكني قد علمت أنني أطول منك ولاية وأقدم منك بهذه الأمة تجربة وأكبر منك سناً، فأنت أحق أن تجيبني إلى هذه المترلة التي سألتني فأدخل في طاعتي ولك الأمر من بعدي ولك ما في بيت مال العراق من مال بالغاً ما بلغ معونة لك على نفقتك . . . ولك أن لا يستولى عليك بالاساءة ولا تقض دونك الأمور ولا تعصى في امر أردت به طاعة الله، اعانتنا الله وإياك على طاعته انه سميع مجيب الدعاء .

وكتب معاوية رسالة ثانية بعد تلك الرسالة، والتي لم يتلق ردها، مما أثار الحسن (ع) بإهماله له اخلاقيته الدينية، فجاءت رسالته متوعدة الإمام ومهددة إياه قائلاً فيها:

«أما بعد: فإن الله يفعل بعباده ما يشاء، ولا محقب لحكمه وهو سريع الحساب، فاحذر أن تكون منيشك على أيدي رعاك الناس، وإن أنت أعرضت عما أنت فيه وبإيعتني وفيت لك بما وعدت، وأجريت لك ما شرطت . . . ولك المخلافة من بعدي فأنت أولى الناس بها»<sup>(١)</sup>.

هذا الأسلوب الاستعماري الماكر لم يكن يستعمله أو يجرأ عليه مع الإمام علي (ع) من قبل ولم يخاطبه بمثله، أما في عهد الحسن (ع) فلقد كان يتكلم لغة الخليفة المهيمن على الكيان السياسي للدولة الإسلامية، وقد اطمان معاوية على

(١) راجع سيرة الأئمة / الحسن / ص: ٥٦٤.

مصيرهم، وعلاقته المتينة مع أكثر القادة الذين التمسوا الأمان لأنفسهم وعشائرهم»<sup>(١)</sup>.

هذا الواقع الذي تحدثنا عنه أصبح مثار شك لدى المسلمين العاديين (غير الواعين) وأثار تساؤلهم فيما إذا كان من الضروري الحفاظ على هذا الكيان القائم بزعامة معاوية الوالي القديم والحاكم المجرب، أو بناء كيان جديد إلى جانب ذلك الكيان الذي سيكلفهم حرباً ونزيفاً جديداً من الدماء أم بالامكان الانسحاب من ذلك الكيان؟!

«وخصوصاً بعد ان تعود المسلمون تدريجاً من خلال حكم الخلفاء الثلاثة على النظر إلى أهل البيت (ع) بوصفهم اشخاصاً اعتياديين، أمكن الاستغناء عن مرجعيتهم أساساً واسنادها إلى بديل معقول، وهذا البديل ليس هو شخص الخليفة بل الصحابة وهو بديل يستسيغه النظر بعد تجاوز المرجعية المنصوصة لأن هؤلاء هم الجيل الذي رافق النبي (ص) وعاش حياته وتجربته ووفى حديثه وستته»<sup>(٢)</sup>. وهذا المعنى واضح من خلال رسالة معاوية الاتفة للإمام (ع).

- ٢ -

### الإمام (ع) يترئث في معالنة معاوية بالحرب

ثانياً: بدأ الحسن (ع) حكمه مع جماهير شاكّة مترددة لا تؤمن إيماناً واضحاً وكاملاً برسالية المعركة وبأهدافها، ولا تتجاوب دينياً وإسلامياً مع متطلبات هذه المعركة.

ومن الاسباب التي عمقت (الشك) بأهداف المعركة هو ان الإمام الحسن (ع) (وذلك طبقاً لظروفه الموضوعية) لم يبادر بالاسراع، باعلان عزمه لمواصلة القتال ضد معاوية مع معرفته التامة بنوايا معاوية، وما ينطوي عليه من الكفر

(١) ن. م / ص: ٥٦٦.

(٢) بحث حول الولاية / الشهيد الصدر/ ص: ٨٨.

والألحاد والعداء لمحمد ورسالته مع إدراكه لهذه الحقائق، فقد تهرث باعلان الحرب عليه، إلا بعد ان كتب إليه أكثر من مرة يدعوه إلى جمع الكلمة وتوحيد الصف. حتى لا يبقى لأحد عذر أو حجة في التخلف عن نصرته.

فكتب الإمام (ع) إلى معاوية رسالة يقول فيها :-

«أما بعد فإن الله جل جلاله، بعث محمداً رحمة للعالمين . . ينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فبلغ رسالات الله وقام بأمر الله حتى توفاه الله غير مقصر، وبعد ان اظهر الله به الحق وسحق به الشرك وخص قريشاً به خاصة، فقال له، وانه لذكر لك ولقومك، فلما توفي تنازعت سلطانه العرب، فقالت قريش نحن قبيلته واسرته وأوليائه، ولا يحل لكم ان تنازعونا سلطان محمد وحقه، فرأت العرب ان القول ما قالت قريش، وان الحجة لهم في ذلك على من نازعهم أمر محمد فأنعمت لهم وسلمت إليهم، ثم حاججنا نحن قريشاً بمثل ما حاججت به العرب، فلم تصفنا قريش انصاف العرب لها، إنهم اخذوا هذا الأمر دون العرب بالانصاف والاحتجاج، فلما صرنا آل بيت محمد وأولياؤه إلى محاججتهم وطلب النصف منهم باعدونا واستولوا على المخلافة بالاجتماع على ظلمنا. لقد كنا تعجبنا لتوثب المتوثبين علينا في حقنا وسلطان نبينا، وان كانوا ذوي فضيلة وسابقة في الإسلام، وامسكنا عن منازعتهم مخافة ان يتجد المنافقون والاحزاب في ذلك مغمراً يثلمونه به أو يكون لهم بذلك سبباً إلى ما أرادوا من افساده واليوم فليتعجب المتعجب من توثبك يا معاوية على أمر لست من أهله لا بفضل في الدين ولا أثر في الإسلام محمود وانت ابن حزب من الاحزاب وابن اعدى قريش لرسول الله (ص) ولكتابه الكريم . - والله حسيك فسترد وتعلم لمن عقى الدار، وبالله لتلقين عن قليل ربك ثم ليجزيتك بما قدمت يداك وما الله بظلام للعبيده .

«إن علياً لما مضى لسبيله . . ويوم من الله عليه بالإسلام، ولأنني المسلمون الأمر من بعده، فأسأل الله ان لا يؤتينا من هذه الدنيا الزائلة

شيئاً ينقصناه في الآخرة بما عنده من كرامة، وإنما حملني على الكتابة إليك الاعتذار فيما بيني وبين الله عز وجل في أمرك، ولك في ذلك ان فعلته المحظ الجسيم والصلاح للمسلمين فدع التمادي في الباطل وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي، فأنت تعلم أني أحق بهذا الأمر منك عند الله وعند كل أواب حفيظ ومن له قلب منيب واتفق الله ودع البيغي واحقن دماء المسلمين وادخل في السلم والطاعة ولا تنازع الأمر أهله ومن هو أحق له منك ليطفىء الله الثائرة ويجمع الكلمة ويصلح ذات البين، وإن أنت ابيت إلا التمادي في غيك سرت إليك بالمسلمين فحاكمتك حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين<sup>(١)</sup>.

فترث الإمام (ع) في اعلان الحرب على معاوية كانت من المسائل التي استغلها معاوية بدهائه ومكره (الميكافيلي) الخبيث، حيث خطط لاشاعة دسها بين اصحاب الإمام (ع)، بأن الحسن (ع) يفكر بالصلح معه مما ادت هذه الاشاعة دوراً مخرباً ومعيقاً لحالة الشك عند المسلمين (غير الواعين) وترددهم في محاربة معاوية.

- ٣ -

### الفارق التاريخي بين شخصية الإمام علي والحسن (ع)

ثالثاً: الفارق التاريخي بين شخصية الإمام الحسن (ع) وشخصية أبيه الإمام علي (ع)، ونعني بالفارق التاريخي، هو رصيد كل واحد منهما في اذهان الناس، إذ ليس هناك فارق بينهما في حساب الله عز وجل، فإن كل واحد منهما معصوم، ولكن بمنطق وحساب الجماهير لم يكونا سواء، فالجماهير كانت تحمل وتعيش اعتبارات كثيرة عن الإمام علي (ع) دون ان تعيش نظيرها عن الإمام الحسن (ع). . فسوابق الإمام علي أيام رسول الله وصحبته الطويلة له ومواقفه العظيمة في أيام الرسالة الاولى للإسلام، وسلطته الروحية والعلمية على كثير من الصحابة، كل هذه الاعتبارات جعلت من الإمام علي (ع) في نظر الجماهير

(١) نقلاً عن سيرة الأئمة الأثنى عشر / الحسن ج ١ ص: ٥٦٢.

رجلاً عظيماً وقائداً مؤهلاً لتسلم مقاليد الحكم.

أما الحسن (ع) لصغر سنه، وعدم وجود تزيغ مماثل من هذا القبيل، وهو بعد لم يملك القدرة النفسية والتجربة التاريخية التي امتلكها أبوه (ع) في إخضاع المسلمين لقيادته.

والمسلمون ويمرور الزمن بعد وفاة النبي (ص)، وتعودهم تدريجاً على النظر إلى أهل البيت بوصفهم أشخاصاً اعتياديين، أمكن الاستغناء عن مرجعيتهم المنصوصة عليها في كثير من الأحاديث الواردة عن النبي (ص) وإسنادها إلى بديل معقول، حيث وضع بالتدريج مبدأ مرجعية الصحابة ككل بدلاً من مرجعية أهل البيت، والمسلمون آنذاك وبسبب - سياسة الخلفاء الثلاثة - لم يكونوا يؤمنون بفكرة النص على إمامة أهل البيت، سوى القلة منهم، ولذلك لم يعاملوا الإمام الحسن (ع) كإمام - مفترض الطاعة، منصوص عليه، وإنما عاملوه على أن إمامته إمامة عامة وامتداد (لخسط السقيفة) ومفهومها للخلافة.

وكذلك الفارق الذي جاء من البيعة التي حصل عليها الإمام علي (ع)، كانت أوضح شرعية في نظر الجماهير (هذه الجماهير التي آمنت - بحكم الواقع - بخط السقيفة ومفهومها للخلافة). من بيعة الإمام الحسن (ع)، وخصوصاً أن بيعة الإمام علي تمت في المدينة التي كانت مركز الكثير من الصحابة حيث لم يتخلف عن بيعة الإمام علي (ع) إلا القلائل أما الباقون فكلهم بايعوا، مما أعطى لخط الإمام علي من الشرعية والوضوح، القدرة على التأثير والنفوذ وإخضاع النفوس لسلطانه، وهذا الأمر ما لم يمتلك نظيره الإمام الحسن (ع) في نظر الجماهير.

- ٤ -

نفاقم «ظاهرة الشك» بعد استلامه للحكم

رابعاً: تسلم الإمام الحسن (ع) لمقاليد الحكم بعد استشهاد أبيه مباشرة، كان الدافع والسبب المباشر في تقوية وتعميق موجة الشك في رسالية المعركة التي يخوضها الإمام الحسن (ع) حتى أن إحياء الشك كان لديهم قوياً بأن المعركة هي معركة بيت مع بيت، أمويين مع هاشميين، وهي بالتالي ليست معركة رسالة مع رسالة.



هذه الحقيقة بالذات هي التي دعت الإمام علي (ع) بأن يكتم أمر معالنة الجماهير - رسمياً - بخلافته ولده الحسن (ع) واشغاره لمركزه السياسي حتى يتفادى أي حساسية أو شعور ذاتي، ولكنه عالن (ع) فقط ثلثة من جماعته المخلصين ممن يؤمنون بالنظرية الإسلامية الصحيحة لمفهوم الإمامة، حيث أوصى إليهم بإمامة ولده الحسن (ع) وعرفهم بأن الحسن هو الإمام والحجة من قبل الله من بعده، ولكن الإمام علي (ع) بوصفه حاكماً ورئيساً للدولة لم يعلن اعلاناً رسمياً بضرورة تسلّم الإمام الحسن (ع) الأمر من بعده<sup>(١)</sup>.

هذه العوامل هي التي أدت إلى توسيع نطاق الشك الذاتي (المصطنع) في عهد الإمام الحسن (ع) حيث توسع كما وكيفا، ليتحول من شك يعيشه بعض الافراد والجماعات إلى شك تعيشه قطاعات واسعة من المجتمع الإسلامي الذي حكمه الإمام (ع)، هذه الظاهرة اتضحت معالمها بشكل مكبر منذ اللحظة الأولى لتسلم الحسن (ع) لمقاليد الحكم وحتى اللحظة الأخيرة من صلحه مع معاوية. لماذا قبل الحسن البيعة؟!؟

وهنا نحن أمام هذا الحشد من الحقائق التاريخية تتساءل لماذا قبل الحسن (ع) عرض الخلافة والبيعة.. وهو يعيش كل هذا الوضوح (المتزايد) لحالة الشك المتنامي، وهي حالة سوف تعجزه بالضرورة عن تحقيق اهدافه ورسالته بنجاح؟ فالسؤال بشكل أدق، لماذا وافق الحسن (ع) باستلام الخلافة وهو في لحظة يائسة؟!؟

ويمكننا ان نجيب هذا السؤال وذلك بملاحظة بعض الحقائق وهي:  
لو ان الإمام (ع) لو لم يقبل ممارسة الحكم بعد استشهاده أبيه، رافضاً البيعة لقليل: ان ظاهرة الشك التي كان يعيشها المسلمون - بدرجة من الدرجات - قد تسربت إلى الإمام الحسن نفسه، واصبح كغيره من المسلمين يعيش حالة الشك في صحة وأهمية المعركة وضرورتها الرسالية.

(١) راجع نصين تعيين الإمام لولده ص: ١٣٣ من هذا الكتاب.



ومن هنا جاء قدر الإمام الحسن (ع) بضرورة التصدي للأمر وإن يحاول توعية المسلمين بأنه وأهل البيت (ع) ما زالوا يؤمنون بالقضية وأطروحتها، بنفس مستوى الإيمان بها منذ الساعة الأولى لنشوء الفتنة في حياة المسلمين، وهو مستعد لتحمل كامل المسؤولية في الحكم وتحمل تبعاتها في مواجهة المنحرفين والضالين، فقد تحمل امامنا (ع) مسؤلية الخلافة (بعد أبيه) بالرغم من حالة الشك - المترابدة - حتى لا يفهم أو يقال، بأن الإمام (ع) أيضاً كان شاكراً أو متردداً في صحة المعركة وأبعادها الرسالية .

ولكن الذي حدث ان الإمام الحسن (ع) بعد استلامه مسؤلية الحكم - بعد ابيه - قرر التريث وعدم الاسراع في خوض المعركة مع معاوية، بل اراد ان يتفرغ لمواجهة حالة الشك بالعلاج والتصفية، ومواجهة ظروفه الداخلية محاولاً التخفيف - بقدر الامكان - من حالة الشك الذاتية، بعد ان يقضي على مقدماته ويعالج بعض اسبابه، حتى يتمكن - آخر الشوط - من ان يكسب القواعد الشعبية الموالية ويقنعهم بصحة أطروحته، وبعدها يتفاهم معها بضرورة استئناف المعركة مع معاوية من موقع الوعي والقناعة التامة .

هذه الحقائق كانت خلفية دوافع كتمان الإمام (ع) وعزمه لأعلان الحرب في اللحظات الأولى من استلامه للحكم .

ولكن الإمام (ع) واجه انفعال وتسرع بعض اصحابه والحاحهم بضرورة معالنة معاوية بإرادة القتال دون ان يعطي معاوية فرصة اتخاذ قرار الحرب من جانبه .

«وقد كتب عبدالله بن عباس إلى الإمام الحسن (ع) من البصرة كتاباً يحرضه فيه على قتال معاوية ، وجاء في كتابه إليه : أما بعد فإن المسلمين ولوك أمرهم بعد ابيك فشمراً للحرب وجاهداً عدوك وقارب اصحابك واشتر من الظنين دينه بما يثلم دينك وول أهل البيوت والشرف تستصلح به عشائهم حتى يكون الناس جماعة . واعلم بانك تحارب من حارب الله ورسوله في ابتداء الإسلام حتى ظهر امر الله فلما وُحِّدَ الرَّبُّ ومعحق الشُّرك وعزَّ الدين اظهروا الإيمان وقرأوا القرآن مستهزئين

أبآياته وقاموا إلى الصلاة وهم كسالى وأدوا الفرائض وهم لها كارهون . .  
فجَاهِدُهُمْ وَلَا تَرْضَ دَنِيَّةً وَلَا تَقْبَلْ خَسْفًا ، فَإِنَّ عَلِيًّا أَبَاكَ لَمْ يَجِبْ إِلَى  
الحكومة حتى غلب على أمره ، وهم يعلمون انه أولى بالأمر ان حكموا  
بالعدل، فلما حكموا بالهوى رجع إلى ما كان عليه حتى أتى اجله ولا  
تخرجن من حق أنت أولى به حتى يحول المسوت دون ذلك  
والسلام»<sup>(١)</sup>.

ولكن الإمام ( ع ) أعلن رفضه لهذا العرض وغيره من العروض التي جاءت  
من اصحابه، وكان رفضه ( ع ) مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالظروف النفسية التي كان  
يعيشها المجتمع الإسلامي آنذاك .

لقد أدرك الإمام ( ع ) الظروف النفسية التي كان يمر بها المسلمون آنذاك،  
وكان شعوره بان الأمة كانت تحتاج إلى علاج وترواً أكثر مما هي بحاجة إلى قرار  
سريع ينقلها إلى ساحات الحرب والاقتتال، بل بحاجة إلى توعية على اهداف  
الحرب واطروحتها الرسالية وهم بحاجة إلى فرصة لكي يدرسوا ويتبينوا ملامح  
اطروحته واهدافها، ويدركوا بقناعة تامة خيراتها وبركاتها لهم، قبل ان يكلفوا  
مكرهين بقتال جديد.

هذه الاسباب هي التي جعلت الإمام ( ع ) يترى في موضوع اعلان الحرب  
مع معاوية، إلا ان معاوية لم يمهل، بل حاول ان يمسك زمام الأمر بيده، وكتب -  
معمماً إلى جميع عماله في بلاد الشام، يطلب منهم التجهز والاستعداد لغزو  
العراق، علّه يستفيد من الفراغات السياسية والفكرية والنفسية التي خلقتها تلك  
الظروف والملايسات وان يحقق من خلالها مكسبه السياسي في كسب نتائج  
المعركة لصالح اطماعه وشهوته . ففي رسالة بعثها إلى عماله في بلاد الشام يقول  
فيها - :

«أما بعد : فأني أحمد إليكم الله الذي لا إله غيره، والحمد لله الذي

(١) شرح النهج / ابن أبي الحديد نقلاً عن سيرة الأئمة / الحسيني ج ١ ص : ٥٥٨ .

كفأكم مؤنة عدوكم وقتلة خليفتمكم، ان الله بلطفه وحسن صنيعه اتاح  
لعلي بن ابي طالب رجلاً من عباده فاغتاله وقتله، وترك اصحابه متفرقين  
مختلفين، وقد جاءتنا كتب اشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم  
وعشائهم فأقبلوا إلى حين يأتيكم كتابي هذا بجهدكم وجندكم وحسن  
عدتكم فقد اصبتم بحمد الله الثأر وبلغتم الأمل، وأهلك الله أهل البغي  
والعدوان والسلام عليكم ورحمة الله»<sup>(١)</sup>.

فاجتمعت إليه الوفود من كل الجهات وسار بهم باتجاه العراق، وعندما سمع  
الإمام الحسن (ع) نبأ الحشود وخبر وصولها إلى جسر (منبج) تحرك فوراً، وكتب  
إلى عماله يدعوهم للتحرك السريع وطلب من مناديه ان يدعو المسلمين إلى  
اجتماع في المسجد فأقبل الناس حتى امتلأ لهم فناء المسجد، وخطب بهم الإمام  
(ع) قائلاً:

«لقد كتب الله الجهاد على خلقه وسماه كرهاً، واوصى المجاهدين  
بالصبر ووعدهم النصر وجزى الأجر... إلى ان قال: وقد بلغني ان  
معاوية كان قد بلغه أننا ازمعنا على المسير إليه فتحرك نحونا بجنوده  
فأخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم النخيلة حتى نظر وتظنون ونرى  
وترون».

بعد ان انهى الإمام خطابه، كان رد فعل الجمهور المحتشد هو الوجوم  
والسكوت المطبق دون ان يتكلم منهم أحد بحرف لأن حالة الشك وقفت حائلاً  
دون استجابة نداء امامهم (ع) لقرار قتال معاوية، حتى قام الصحابي الجليل  
عدي بن حاتم مخاطباً الحاضرين بقوله:

«انا ابي حاتم، سبحان الله ما أقيح هذا المقام، الا نجيبون إمامكم  
وابن بنت نبيكم، اين خطباء مضر الذين استتهم كالمخساريسق في  
الدعة فإذا جد الجدد فمراوغون كالثعالب، اما تخافون مقت الله وعبها  
وعارها؟ ثم استقبل عدي بن حاتم الإمام (ع) بوجهه مخاطباً إياه قائلاً:

(١) سيرة الائمة/ الحسيني ج ١/ ص: ٥٦٧.

ولقد أصاب الله بك المرشد وجنك المكاره ووفقك لما تحمد لقد سمعنا مقالتك وانتهينا إلى امرك، وأطعناك فيما قلت، وهذا وجهي إلى معسكري فمن أحب ان يوافقني فليواف. ثم خرج من المسجد وركب دابته متجهاً إلى معسكر النخيلة، وكان اول من خرج من جيش الإمام إلى الجهاد وتبعه الف من عشيرته.

ثم قام قيس بن سعد بن عيادة الانصاري، ومعقل بن قيس الرياحي، وزيد ابن صعصعة التميمي، فأتوا الناس ولا مومهم على تحاذلهم وحرصوهم على الخروج وكلموا الإمام (ع) بمثل كلام عدي بن حاتم، وقد اجابهم الإمام الحسن (ع) قائلاً - :

«صدقتكم ورحمكم الله ما زلت اعرفكم بصدق النية والوفاء والقبول والمودة والنصيحة فجزاكم الله خيراً»<sup>(١)</sup>.

وخرج الناس بعد ذلك إلى معسكر النخيلة، فلما تكامل عددهم لحق بهم الإمام (ع) واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل ابن عبد المطلب وهو (ابن عم الإمام) وطلب منه ان يعمل على تعبئة باقي القرى ويحثهم على الخروج والالتحاق بالجيش فلم يستجب له أحد، فاضطر (ع) ان يرجع بنفسه إلى الكوفة، وحاول ان يعي جيش آخر بلغ عدده - اثني عشر ألفاً - من فرسان العرب ودعا عبيدالله بن العباس وقال له :

«يا ابن العم اني باعث معك هذا الجيش فسر بهم على الشاطيء حتى تقطع الفرات وتنتهي إلى - مسكن - وامض منها حتى تستقبل معاوية فالن لهم جانبك وابسط لهم وجهك وافرش لهم جناحك وادنهم من مجلسك فانهم من ثقة امير المؤمنين ، فإن أنت لقيت معاوية فاحبسه حتى آتيك فاني على أترك وشيكاً، وليكن خيرك عندي كل يوم».

وارسل معه قائدين من خيرة المسلمين اخلاصاً وجهاداً وتضحية وهما قيس

(١) سيرة الأئمة/ الحسيني ج ١/ ص: ٥٦٨.

ابن سعد بن عبادة، وسعيد بن قيس الهمداني وأمره ان لا يقطع امرأ دونهما وان  
يستشيرهما في جميع الأمور وقال له :

«إذا انت لقيت معاوية فلا تقائله، حتى يكون هو الباديء في القتال فإن  
أصبت فقيس بن سعد على الناس، وإن أصيب فالقيادة من بعده لسعيد  
ابن قيس» .

وسار عبيدالله بالناس إلى الفلوجة ومنها إلى مسكن وكان معاوية قد نزل  
عليها وفي اليوم الثاني وجه معاوية بخيل اغارت على جيش عبيد الله، فوقفوا لها  
وردوها على اعقابها، وايقن معاوية بأن الحسن (ع) عازم على مواصلة القتال  
وتصفيته سياسياً بعد ان رفض كل عروضه السابقة. فحاول معاوية ان يسلك طريق  
الاغراء والترغيب والتخويف وكان شعاره قائلاً :-

«والله لاستميلن بالدنيا ثقةا علي ولأقسمن فيهم الاموال حتى تغلب  
دنياي آخرته» .

وفعلاً استطاع معاوية بأسلوبه الماكر ان يستميل إليه عدداً من جند الإمام  
وقادته .

ويذكر المؤرخون بهذا الصدد بأن عبيدالله بن العباس انسل من قاعدته ودخل  
معسكر معاوية ومعه بضعة آلاف ممن كانوا معه فوفى له بما وعده فاضطر قيس بن  
سعد ان يخطب فيهم آمراً جيشه بالصبر والثبات ومناهضة معاوية مهما كانت  
النتائج، فأجابوه لذلك ، ومضى لقتال معاوية ، وفي هذه الاثناء لجأ معاوية بخبثه  
ودهائه إلى بث اشاعة كاذبة مفادها ان اميرهم عبيدالله مع معاوية في خبائه وان  
الحسن (ع) قد وافق على الصلح فعلام تقتلون انفسكم، وهنا يدعي المؤرخون  
بان الانفعال قد استبد بقيس بن سعد مخاطباً جيشه، قائلاً:

«اختاروا إحدى اثنتين اما القتال بدون إمام، واما تباعوا بيعة ضلال  
فقالوا بأجمعهم، بل نقاتل بدون إمام، ثم اشتبك الفريقان، وكانت  
معركة ضارية وكانت نتائجها لصالحهم .

فالموقف الخياني الذي وقفه عبيدالله بن العباس، والاشاعة الكاذبة،  
وقمصرف قائد الجيش مع جنده، كل هذه المواقف كانت من العوامل المؤثرة التي  
تسببت بتفكك جيش الإمام وانهزامه نفسياً أمام معاوية، مما فتح أبواب الغدر  
والخيانة والتسلل الجماعي..

وقد تتالت مواقف خيانية أخرى في صفوف جيش الإمام (ع) وكان بطلها  
هذه المرة شخص (من قبيلة مرة) حيث اغراه معاوية بالمال وقد قرّ هو ومع صفوة  
من جنده، مما اضطر الإمام، أن يرسل، قائداً آخر على الفور مع أربعة آلاف مقاتل  
ليحل محله، ويضيف المؤرخون بأن هذا القائد الجديد هو الآخر، وقبل وصوله  
إلى مسكن حاول الفرار بمن معه إلى معاوية.

هذه المواقف الخيانية المتلاحقة المصحوبة بالاشاعة الكاذبة، ادت فعلها  
البليغ والمشؤوم في نفوس بقية جيش الإمام (ع)، وقد تستر بغدرهم وخبائثهم  
جميع الطامعين والخونة - من أهل العراق - ونشط انصار معاوية في نشر وبث  
الترهيب والترغيب في صفوف جيش الإمام (ع) محاولين استمالة رؤوسا ربيعة  
الذين كانوا حصناً للإمام علي (ع) في صفين وغيرها من المواقف، وقد راسله  
خالد بن معمر احد زعمائها البارزين. وبايعه نيابة عن ربيعة كلها، كما راسله  
وبايعه عثمان بن شرحبيل احد زعماء بني تميم، حتى شاعت الخيانة وتفاقت  
ظاهرتها بين جميع كتائب الجيش وقبائل الكوفة، وقد صارحهم الإمام (ع) بالواقع  
قائلاً:

ويا أهل الكوفة انتم الذين اكرهتم أبي على القتال والحكومة ثم اختلفتم  
عليه وقد اتاني أن أهل الشرف منكم قد اتوا معاوية وبايعوه، فحسي  
منكم لا تفروني في ديني ونفسي<sup>(١)</sup>.

وفي هذه اللحظات العصيبة والحاسمة، كان وفداً من ثلاثة أنفار يرأسه نويرة  
ابن شعبة يتقدم لمفاوضة الإمام (ع) بأسم معاوية لطلب الصلح - وقد حملوا معهم

(١) ن - م / ج ١ / ص : ٥٧٣.

برسالة من معاوية مرفقة بمجموعة من رسائل (الخيانة) التي وصلت معاوية من أصحابه (ع) يعلنون فيها استعدادهم للسمع والطاعة ويظهرون تعاونهم لتسليم الإمام الحسن (ع) في أي وقت يشاء.

وفي نفس الوقت، نشاهد ان معاوية يوجه رسالة مفتوحة إلى جيش الإمام (ع) يخاطب فيها الإمام (ع) بقوله :-

«إن شئت ان تحقن الدماء ، وتوقف القتال على أن يكون الامر لك من بعدي».

ولكن الإمام (ع) بعد اطلع على الرسائل وفرغ من قراءة مضمونها واطلع على مرفقاتها، اتجه إلى الوفد، محاولاً عظمتهم ونصحهم مذكراً إياهم بثواب الله وعقابه وأيام الله شارحاً لهم بأن هذه اللحظات التي يعيشونها هي امتحان للمؤمنين وهي جزء قصير جداً من عمرهم، الذي يجب ان يقيموه ويفهموه على أساس شوط - طويل - يعيشونه.

وبهذا الموقف الناصح، حاول ان يتجاهل (ع) مضمون الرسالة والرد عليها، ثم سكت برهة (ع) دون ان يعطي الوفد المفاوض أن جواب واضح، لأنه اراد ان يجرب آخر محاولة مع قواعده الموالية لكي يتبين قدرتها واستعدادها على مواصلة خط الجهاد الطويل.

وقد انتهى الاجتماع ، وقد غادر الوفد المكان، وكان جيش الإمام يتابع نتائجها بفارغ الصبر، وفي اثناء مغادرة الوفد مكان الاجتماع حاول ان يمرر اشاعة كاذبة في صفوف جيش الإمام مشيعين عن نتائج اجتماعهم بالإمام (ع) وبأن الله قد فرج عن هذه الأمة وقد حققت الدماء بابن بنت رسول الله ، وان الإمام قد استجاب لطلب معاوية في الصلح .

وما ان سرت هذه الاشاعة (اللعيبة) - حيث كان لها مفعول النار في الهشيم - إلا وعملت عملها في تخريب وثني العزائم ، وفي توسيع دفعة حالة الشك والتميع .



وعقيب هذه الإشاعة المدمرة مباشرة، خرج الإمام (ع) - دون أن يعرف عنها شيئاً - وقف خطيباً بين قواعده وجنده، محاولاً استبطن نواياهم في مواصلة الجهاد ضد معاوية، قائلاً لهم :-

«إن معاوية دعانا إلى ما لا يكون منه خيراً ولا خيراً لكم، فماذا انتم فاعلون، فصاحوا بصوت واحد، الصلح، الصلح وهم تحت تأثير الإشاعة.

وما ان سمع الإمام (ع) هذا الهتاف الجماعي؛ احس بأن بقاء التجربة السياسية بقيادته أصبحت شيئاً متعذراً، مع شعوره بالعجز الكامل على حسم المعركة عسكرياً، بجيش يعيش حالة الشك والتردد والرغبة الجامحة في مواصلة العدو ومهادنته.

ولقد ادرك الإمام بوعيه (المعصوم) بأن انحسار تجربته مؤقتاً عن الميدان السياسي أصبحت ضرورة اسلامية وتغييرية من أجل حماية مستقبل الإسلام، لأن التجربة السياسية للحكم لا يمكن لها ان تعيش وتستمر مع وجود حالة الشك المتنامية.

ومن هنا جاء تقدير الإمام (ع) بضرورة معالجة الاسباب والقضاء عليها، ومن ثم العمل على استئناف التجربة السياسية من جديد.

وكانت خطته العلاجية (ع) هو ان يتيح الفرصة لأن تتكشف اهداف واطروحة معاوية - الجاهلية - أمام الناس، ليحسها المسلمون بأمر أعينهم - ويدركوا بأن المعركة التي قادها الإمام علي (ع) مع معاوية هي معركة الإسلام مع الجاهلية (ابناء الطلقاء)، لا معركة شخص مع شخص.

فكان لابد - في منطق تجربة الإمام الحسن (ع) ان يعالج الشك بقوله الصلح - وبعدها يعمل على إعادة تجربته السياسية.

وبهذا الصدد يصرح الإمام الحسن (ع) بقوله :-  
«ان من ابتغاء الخير اتقاء الشر».

لأنه ليس بإمكان أي تجربة رسالية ان تنجح ما لم تكتسب مسبقاً قناعة الأمة بصحة أهداف الرسالة واطروحته ، ولم يكن من المتيسر لتجربة الإمام (ع) ان تكتسب هذه القناعة وهي تواصل القتال في ميدان الصراع الدامي .

خلاصة البحث: اصبح من الضروري ان يصلح الإمام (ع) معاوية وان ينحسر ظاهرياً عن ميدان الحكم حتى ينكشف معاوية بأطروحة الجاهلية، ليلمس المسلمون البسطاء ذلك بأنفسهم ، بأن الاطروحة التي جاهد في سبيلها الإمام علي (ع) هي اطروحة كرامتهم ووجودهم ومصالحهم الحقيقية ، وبعدها يكون ممكناً استئناف بناء الوجود السياسي من جديد، وذلك على أساس قناعات واعية تحملها القواعد الشعبية اتجاها قائدها وامامها .

\*\*\*

- ٧ -

هل كان صلح الحسن مع معاوية تخاذلاً؟!

الظروف الموضوعية التي احاطت بحكم الإمام الحسن (ع) وملابسات التعقيد والشك - والتي برزت على شكل معوقات وتناقضات في حياته السياسية (ع) والتي صارت فيما بعد سبباً في مضاعفة (حالة الشك) من طاقة سلبية ذات أثر محدود إلى طاقة ايجابية متنامية امتدت إلى نطاق واسع في وسط الأمة ، كل هذه العوامل والظروف عقدت موقف الإمام من مسألة الحكم وبيات الإمام (ع) امام خيارات اربع لا خامس لها .

١ - الخيار الأول: وهو اغراء الزعامات واصحاب النفوذ باعطائهم الاموال ووعدهم بمناصب لاستمالتهم إلى جانبه، وهذا الخيار اقترحه البعض من اصحابه (ع) ، لكنه رفضه رفضاً قاطعاً وبمبدئية حاسمة بقوله:

واتريدون ان اطلب النصر بالجور ، فوالله ما كان ذلك ابدأ .

٢ - الخيار الثاني: وهو ان يتجه الإمام إلى الصلح ، من أول الأمر ما دامت الأمة قد انست بحياة الدعة والاستسلام وما دامت زعاماتها قد بدأت تتصل بمعاوية

متعاونة معه إلى حد تسليمه حياً أو ميتاً، وإن يوقف العمل بالخيار العسكري، نزولاً للأمر الواقع ولكن الإمام (ع) استبعد العمل بأحد هذين الخيارين نهائياً لعدم جدواهما - كما سيأتي تحليله - وبقي عليه أن يفتش في الخيارين الأخيرين.

٣ - الخيار الثالث: وهو أن يواصل العمل في الساحة العسكرية حتى يستشهد، كما استشهد أخوه الحسين في ميدان القتال ب كربلاء، وإن يخوض معركة يائسة يستشهد فيها هو وجماعته.

٤ - الخيار الرابع: وهو أن يصالح معاوية بعد أن يستفد أطول وقت ممكن ليسجل المواقف وليبين للناس من يثبت ومن ينحرف.

كان لا بد للإمام (ع) وهو يدرس هذين الخيارين أن يضع في حسابه كل اعتباراته وما يتمثل بوجوده من الأمور التالية:

أولاً: باعتباره أميناً على أطروحة - النظرية الإسلامية - وعلى صيغتها الكاملة للحياة، بوصفها الخط الفكري والروحي الذي يجب أن يمتد متجذراً إلى أكبر قدر ممكن من قلوب الناس وعقولها.

ثانياً: باعتباره أميناً على التجربة السياسية، والتي جسدت تلك الأطروحة في واقع الحكم.

فهو أمين على النظرية والتطبيق معاً، ووارث للمفهوم والخط الفكري والتجسيد العملي للنظرية في واقع الحياة.

ثالثاً: باعتباره أميناً على (الوجود الشيعي) الذي بذره النبي (ص) للمحافظ على مستقبل الدعوة، ونمائه ورعاها قائد الدعوة الثاني الإمام علي (ع)، وكان من المفروض أن يواصل على يديه ويد خلفائه نموه الثوري وأن يواصل امتداداته عبر التاريخ الإسلامي.

هذه الاعتبارات وغيرها كانت موضع إهتمام وتقييم الإمام (ع) وهو يدرس ويوازن أفضل الخيارين، خيار التصحية والاستشهاد الفاجع أو خيار تجميد التجربة والحركة مؤقتاً.

الإمام يستبعد الاعتبارات العاطفية .

بقيت نقطة نود ان نتعرض إليها باختصار هو ان الإمام ( ع ) عندما كان ينظر إلى خياراته على ضوء تلك الاعتبارات الموضوعية، كان يدرك في نفس الوقت بأن هناك اعتبارات عاطفية، كان عليه ان لا يوجد لها طريقاً لحساباته وموازناته فهي لا ترتبط من بعيد أو قريب بمصالح الرسالة ومستقبلها، وذلك من قبيل تخوفه أو ملاحظته . لتقولات الناس، ان يقال له بأنه جبان «وغير مستعد لمصارعة اعدائه»<sup>(١)</sup> أو أنه لا يأبى الضيم كأخيه الحسين ( ع )<sup>(٢)</sup> «وانه لم يكن كفوّاً للموقف لميله إلى السلم»<sup>(٣)</sup> «وانه كانت تنقصه القوة المعنوية والقابلية القيادية»<sup>(٤)</sup> «وانه لم يكن رجل الموقف فانزوى عن الخلافة مكتفياً بهية سنوية منحه إياها معاوية»<sup>(٥)</sup> .

هذه المشاعر هي من قبيل الاعتبارات العاطفية التي من الممكن ان تؤثر على موقف بعض القادة، ولكن لا يمكن ان تأخذ طريقها إلى قلب القائد الذي يريد ان يرسم طريقه على اساس من الاعتبارات الموضوعية والرسالية فقط . فاعطاء صفة (أبي الضيم) عند المؤرخين للإمام الحسين ( ع ) وصفة مذل المؤمنين للحسن ( ع ) يمكن مناقشتها وردّها عندما نعرف بأن هذا الإباء يجب ان يراد به حينما ينسب لموقف الحسين ( ع ) بكر بلاء دون الحسن ( ع ) إباء ورفضاً عندما تنتهك حرمة الرسالة ويراد إذلالها، أو ان تفقد الرسالة مكسباً كان بالإمكان ان يتحقق بالنسبة لهذه الرسالة .

وأما المفهوم (العاطفي) الشائع بين الناس لاباء الضيم فهو مفهوم جاهلي لا يقره الإسلام، فإن موقف قبول الضيم يجب ان يكون عندما تقتضي الرسالة من

(١) راجع اقوال ثلثة من المؤرخين المستشرقين في هذا المجال في كتاب سيرة الائمة / الجسني / ج١ / ص: ٦٠٢ .

(٢) اليمين واليسار في الإسلام : أحمد عباس صالح / ص: ١٤٢ .

(٣) المستشرق هوكلي / سيرة الائمة / ص: ٦٠٣ .

(٤) رونلدنسن في كتابه عقيدة الشيعة الإمامية .

(٥) صانعو التلويخ العربي / فيليب حتى .

القائد ان يمتحن بتحمل هذا الضيم، فمثل هذا الالباء والرفض يكون موقفاً غير رسالي وغير انساني بل هو موقف اناني، كما ان العكس صحيح أيضاً.

فأي اعتبار عاطفي لا ينبع من اهداف وقيم الرسالة يجب ان لا يدخل في حساب الانسان (الرسالي) وأي انسان أحق بهذا الوصف من هؤلاء القادة العظام من أئمة أهل بيت الرسول (ص).

أما الحسن (ع) فكانت اعتباراته في اختيار الموقف ذات إبعاد رسالية قائمة على الاعتبارات الموضوعية الثلاثة الأنفة الذكر، والتي سنتناولها بالتحليل والنقاش فيما يلي :-

### مناقشة الاعتبارات الموضوعية :

أولاً: أما على الاعتبار الأول، بوصفه أميناً على الأطروحة النظرية بصيغتها الكاملة للحياة فقد برزت على هذا الصعيد بعض المفارقات في الحياة الاجتماعية عندما رأينا ان هذه الصيغة الإسلامية (الكاملة للحياة) وهي تعيش التطبيق العملي في تجربة سياسية حاكمة كيف انها اضطرت ان تغادر الساحة السياسية بعد ان انحسرت في قلوب واقتناع القواعد الشعبية بالتدرج، ولم يكن سبب الانحسار لأن وصول التجربة إلى المرحلة الحكمية كشف عن قصور أو انحراف أو سلوك غير منطبق على النظرية أو غير منسجم مع قيمها وأهدافها بل ان القاعدة الشعبية التي اعتمدها الإمام في تسيير دفة الحكم لم تكن تستطيع مواكبة حياة الكفاح والجهاد إلا إلى مرحلة قصيرة من شوط حياتها الجهادي.

ولذا نرى ان الإمام علي (ع) حينما مارس تطبيق نظريته على كل مستويات الحياة الإسلامية اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً واخلاقياً بدأت المتاعب والملايسات وبدأ الناس بالشك والتميع، لأنهم ارهقوا بتكاليف هذه النظرية وتميعت قناعاتها بالتدرج بصحة هذه النظرية.

ومن هنا جاء قرار الإمام (ع) بإعطاء الأولوية إلى استرجاع ثقة واقتناع الأمة بالنظرية لأنه ادرك بأن النظرية الكاملة لكي تعيش في نفوس الأمة، لا بد من اتخاذ قرار إخلاء الميدان السياسي لمعاوية وإفساح المجال (لإبناء الطلقاء) وقواها المتمثلة بخط السقيفة، تستولي على العالم الإسلامي لكي تتكشف بواقعها الجاهلي المقنع واطروحته المبرقة بالإسلام معرفة هؤلاء المسلمين - البسطاء - والذين لم يكونوا يعرفون إلا ما يرون بأعينهم وحواسهم من هو معاوية . . وما هو واقعه وواقع حكمه وأهدافه في الحياة، ومن كان علي بن أبي طالب، وماذا كانت تعني اطروحته العادلة .

وهنا يلح علينا سؤال يتطلب منا معالجته بعجالة ، هو هل ان كل نظرية صالحة، حينما تأخذ مجراها للتطبيق تفقد ثقة واقتناع قواعدها الشعبية بها بالتدريج وهي لكي تبدأ من جديد تضطر ان تتخلى عن تجربة الحكم مفسحة المجال لتجربة منافسة تمارس الحكم على اساس نظرية جاهلية منحرفة حتى يكون ذلك سبباً لتحريك الأمة ومنياً لها بصحة نظرتها الاولى؟ وهل ان هذا الحل هو قدر حتمي للنظرية الإسلامية دائماً؟ .

وجوابنا هو ان هذا الحل ليس هو قدر النظرية الإسلامية وإنما هذا قدر لازم على النظرية الإسلامية عندما تمنى بتلك الظروف والملابسات التي مر بها حكم الإمام علي (ع) فعندما بدأ الإمام (ع) حكمه وممارسته لتطبيق نظريته بشكل كامل غير منقوص ، جاء معتمداً على قواعد شعبية لم تتفاعل بوعي كامل وحقيقي مع اطروحته ولهذا لم توات هذه القواعد فرصة التفاعل بكل وجودها ولم تبذل معه جهداً كافياً في سبيل حماية هذا التطبيق .

ومن الجدير بالذكر أن قواعد الإمام علي (ع) الموالية لحكمه كانوا من شعب العراق وبالرغم من انهم كانوا يبدون من أكثر الشعوب الإسلامية إخلاصاً وتفانياً للإمام (ع) : إلا ان استجابتهم واستجابة شعوب أخرى في مصر والجزيرة العربية كانت استجابة قائمة على اعتبارات عاطفية مبنية على الرصيد التاريخي الكبير الذي كان يتمتع به الإمام علي (ع) في اذهانهم ونفوسهم .

فهؤلاء المسلمون الذين شاهدوا محنة انحراف عثمان بن عفان عن كتاب الله وسنة نبيه (ص) وبعدها شاهدوا مقتله أحسوا بمشاكل كبيرة تتحدى طاقة الانسان العادي مما حملهم هذا الاحساس بالتوجه صوب صحابي كبير مقتدر يستطيع بما يحمل من تراث محمد (ص) ان يتغلب على هذه المشاكل ويملا لهم الفراغ السياسي بعد مقتل خليفتهم ويعيد الأمور إلى وضعها الطبيعي، فوقع اختيار الكثير

منهم على شخص الإمام علي (ع)، لأنه كان ابرز الصحابة على المسرح السياسي والاجتماعي، تدعمه صفات نادرة وتجربة تاريخية ثرة لا يتمتع بها أي صحابي آخر.

فكانت استجابة الناس منذ البدء استجابة عاطفية قائمة على أساس الشهرة والتقديس الذاتي، لا على اساس التفاعل الواعي أو التربية المباشرة من قبل الإمام علي (ع) لذا كان من بداهة الأمور أن تأتي استجابتهم فجة ذات شوط قصير، اخذت بالتميع والذويان تدريجياً، بعد ان اصطدمت بأعباء الجهاد ومسؤولياتها الجسام، أما حينما تجيء النظرية الإسلامية إلى الحياة على أثر تفاعل واسع النطاق في الأمة متفاعلة بوعي مع مضمونها تفاعلاً واعياً وصحيحاً، ففي هذه الحالة سوف لن تحتاج هذه النظرية مرة أخرى إلى أي تنازل عن قيمومتها للحكم أو الانحاء للمعاصرة - ولكن الذي حدث أن الظروف الموضوعية - والتي سبق الكلام عنها - هي التي فرضت ظاهرة الانحسار وتلاشي التجربة السياسية والتنازل عنها لاسترجاع قناعة الأمة ثانية وكسب ثقتها، وهي ولدت ضرورة اسلوب فسخ المجال لأعداء الإسلام (من ابناء الطلقاء) لكي يعبروا ويفصحوا عن ذواتهم الجاهلية أمام المسلمين البسطاء - بشكل حسي مباشر - ولقد ارتكبها بالفعل معاوية عندما صعد المنبر أمام حشد من المسلمين لكي يخاطبهم بكل صلف ووقاحة قائلاً لهم :-

«إني لم احاربكم لكي تصلوا أو تصوموا أو تحجوا أو تزكوا، بل حاربتكم لكي أتأمر عليكم وقد اعطاني الله ذلك وأنتم لذلك كارهون» .



وفي هذا المجال يمكن ان نفترض طريقين في تعيين انحسار تجربة الإمام السياسية وفسح المجال لاعدائه بالانكشاف على المسرح الاجتماعي والسياسي أمام المسلمين وذلك :

أ - يواصل الإمام معركته المسلحة حتى يستشهد في ميدان الجهاد؛ ثم يفتح المجال لمعاوية ليحكم من بعده.

ب - ان يجمد تجربته السياسية بقبول الصلح (المشروط) وايقاف العمل العسكري ضد معاوية.

والسؤال الآن لماذا لم يختار الإمام (ع) أحد هذين الطريقين، وخصوصاً ان كلا الطريقين يحققان حاجة الرسالة بالانسحاب المؤقت حتى تسترجع القيادة ثقة الأمة بها وبأطروحتها ويزداد الحاح هذا السؤال في ذهن القارئ حينما يقارن موقف الحسن (ع) بموقف الحسين (ع) الذي واجه هذين الخيارين، فاختار طريق الشهادة دون ان يختار طريق ايقاف الجهاد ولو مؤقتاً.

ويمكن ان نصل إلى الجواب بإدراك الفارق الاساسي بين موقف الإمامين (ع) وذلك بالبحث في الظروف الموضوعية لواقعهما، وأخذ الاعتبار الموضوعية الثلاثة (السابقة) بنظر الاعتبار.

#### مقارنة بين موقفين

فعلى صعيد الاعتبار الأول حينما جاء اختيار الحسين (ع) لطريق الشهادة وذلك لأن الأمة في زمنه لم تكن تعيش حالة الشك لأنها شفيت منه ولكنها ابتليت الأمة بحالة مرضية جديدة هي حالة فقدان الإرادة.

وهناك فرق موضوعي كبير بين العرضين، فمرض الشك كان يعني ان الأمة مدت اسانها واعتقادها الواعي برسالية المعركة، ولو ان الحسن (ع) واصل

خوض معركة يائسة وبخراً صريعاً في ساحة الجهاد لما حقق أي مكسب أو فعل للإسلام كما حققه دم الحسين (ع) المراق بكر بلاء، لأن استشهاد الإمام (ع) سوف يتم في ظل شك الجماهير برسالية معركته.

ومن هذا الواقع المرير جاء لوم كثير - من المؤرخين - للإمام الحسن (ع) منددين بتكاسله وضعفه (المزعوم) وتنازله عن حقه حسماً للموقف وقبوله لحياة الدعة والراحة.

ولكننا نرفض هذه الادعاءات والافتراءات ، مؤكداً بأن خوض الإمام (ع) ودخوله في معركة يائسة سلفاً، سوف لن يحرك ضميراً في الأمة ولن يغيّر من أوضاعها شيئاً ولربما كانت معركته (ع) في نظر كثير من المسلمين بمستوى المعركة التي خاضها عبدالله بن الزبير الذي كانت له وقفة مع جيش عبد الملك بن مروان، حيث واصل حربه وقتاله حتى خرّ صريعاً في الميدان وقتل معه كل أصحابه الخواص وأهل بيته.

ولكننا نسأل، هل ان احداً من المسلمين فكر باين الزبير؟ وهل ان معركته التي خاضها تركت اثراً في ضمير الأمة الإسلامية؟ وهل حركت مشاعرهم؟ وهل حققت مكسباً حقيقياً للإسلام أو قدمت زخماً جديداً للعمل؟ ونرى من جانب آخر ان عثمان بن عفان واصل تجربة الحكم اثناء خلافته وطلب منه معارضوه بالاستقالة والتسح عن الحكم، وقد أجابهم عثمان بأنه غير مستعد لذلك، لأن الخلافة في مفهومه.

«هي ثوب البسه الله إياه» حتى كان نتيجة إصراره بمواصلة الحكم، الثورة بمقتله . . وكلنا يعلم لو ان عثمان استقال لما قتل، إذاً هل يمكن ان نقول بأن عثمان كان شجاعاً في إصراره على تمسكه بالحكم حتى قتل بيد المعارضة، فقد بذل عثمان دمه ونفسه في سبيل الحكم، ولكن نسأل بدورنا هل هناك انسان يتجاوب مع امثال هذه الشجاعة هل استطاعت هذه الشجاعة (القصيرة النظر) ان تهز ضمير الأمة الإسلامية أو ان تحرك شيئاً من أوضاعه؟.

الجواب: لا . . ولكن لماذا؟ لأن ابن الزبير أو عثمان أو أي شخص آخر من هذا القبيل، كان الناس يعيشون اتجاههم مفهوماً واضحاً، فهم في نظرهم خاضوا المعركة لزعامتهم الشخصية ضد المعارضة، ولم تكن معركتهم من أجل انقاذ الرسالة أو حماية الإسلام أو تعديل الحكم المنحرف، فالأمة كانت تعيش حالة شك بأهدافهم.

فهل كان استسلام عبدالله بن الزبير أو عثمان بن عفان للموت لأنهما رفضا الضيم ورفضاً أن يبطئا رأسيهما أمام الأعداء؟ أم أنهما واصلتا القتال من أجل المظلومين والمسحوقين الذين أذلها حكم عبد الملك بن مروان.

ولكن حقيقة الأمر ان الأمة لم تملك قناعة بالنسبة لأهداف ابن الزبير أو عثمان وأمثالهما ولهذا ذهب مقتلهما دون ان يحدث أي أثر حقيقي في محتوى الأمة النفسي والفكري والروحي.

ففس هذه الحالة من الشك - بل بدرجة أقوى - قد وجدت عند الجماهير التي عاشت مع الحسن (ع) كانت تجعلهم ينظرون إلى استماتة الحسن (ع) من لون استماتة أي شخص آخر يأبى الضيم والركوع أمام عدوه، فهي من قبيل الدوافع العاطفية، ولو ان الحسن (ع) اختار طريق مواصلة القتال حتى الاستشهاد لما حرك معه شيئاً في نفوس واوضاع المسلمين.

وهناك أرقام تاريخية كثيرة! تؤكد لنا أن الإمام (ع) كان مدركاً لموقفه وعارضاً ان معركته مع معاوية مستحيلة الانتصار مع وجود ظاهرة الشك في الجماهير.

والإمام الحسن (ع) ببياناته التاريخية يرسم لنا أبعاد سياسته بوضوح في معالجته الواعية لأزمة الوضع مع أصحابه وفي مقارنته لأعدائه في بيان سياسي مؤثر نلاحظ فيه عمق المرارة وبلغ انرفض ليؤكد من خلال كل كلمة من كلماته الحق الذي اطمأن إليه، ونحن نعطي دور الإيضاح والبيان للإمام (ع) ليكلمنا بكل شيء عن مجتمع وموقفه من مشاكل زمانه وعن الحلول التي خرج بها لحسم المشكلة.

وعرفت أهل الكوفة وتلونهم، ولا يصلح لي منهم ما كان فاسداً، انهم لا وفاء لهم ولا ذمة في قول ولا فعل انهم لمختلفون ويقولون ان قلوبهم معنا وان سيوفهم لمشهورة علينا<sup>(١)</sup>.

وغررتهموني، كما غررتهم من كان، من قبلي من أي إمام تقاتلون بعدي، مع الكافر الظالم الذي لا يؤمن بالله ولا برسوله قط<sup>(٢)</sup>.

وفي مجال آخر يشير الإمام (ع) إلى استحالة خوض معركة متصرة، وهو في هذا الجوف من الشك، وقلة الاعوان المخلصين.

«والله اني ما سلمت الامر الا لاني لم اجد أنصاراً، ولو وجدت أنصاراً لقاتلته ليلي ونهاري حتى يحكم الله بيني وبينه»<sup>(٣)</sup>.

وأن معاوية نازعني حقاً هو لي دونه، فنظرت لصالح الأمة وقطع الفتنة فرأيت أن اسالم معاوية وأضع الحرب بيني وبينه وقد رأيت أن احقن الدماء خير من سفكها ولم أر إلا صلاحكم، وان ادري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين<sup>(٤)</sup>.

فكل الحقائق تشير بأن أية معركة يخوضها الإمام لا تؤدي إلى أي نتيجة على الاطلاق ولن تؤدي مفعولاً على مستوى اهداف الإمام (ع) من التغيير الذي تتطلبه الرسالة كحضارة وممارسة حياتية لكل الاجيال وعلى مدى العصور.

ولا بد من التساؤل في هذا المجال عن أهداف هذه المعركة خصوصاً وان الأمة تعيش ظروف محنة الشك وقوة المواجهة واستحالة النصر.

ما هي أهدافها؟ وما هي طبيعتها؟ أمي مجرد عناد أم هي رسالة وأمانة؟ يقول الإمام (ع) بهذا الصدد:

«أن من ابتغاء الخير اتقاء الشر»<sup>(٢)</sup>.

ويجيب (ع) سائلاً في معرض رده وتفسيره لمفهوم الجهل قائلاً:

«سرعة الوثوب على الفرصة قبل الاستمکان منها، والامتناع عن الجواب ونعم العون الصمت في مواطن كثيرة وإن كنت فصيحاً»<sup>(٣)</sup>.

وفي حديث آخر يبين لنا الأمر بشكل أوضح عندما يسئل عن معنى العقل قائلاً:

«التجرع للغة حتى تنال الفرصة»<sup>(٤)</sup>.

وعلى ضوء هذه الحقائق التاريخية الثابتة بحق لنا أن نطمئن إلى النتيجة القائلة لو ان الحسن (ع) خاض المعركة اليائسة لكانت معركته تشبه - إلى درجة كبيرة - معركة عبدالله بن الزبير أو عثمان بن عفان، اليائسة التي لم تكن لتقدم أي عطاء للإسلام ولرسالته الخالدة.

وبناء على هذه الحقائق استجاب الإمام لدعوة الصلح في وقت أصبحت فيه الاستجابة نصراً على معاوية وفضحاً لسياسته المخادعة، وكشفاً لخلقهم أمام الجماهير فقد كان معاوية في ذلك الوقت يتلبس ووجه من يريد حقن دماء المسلمين بعد أن أدرك أن نتائج الحرب ستكون لصالحه وهو يرى تصلب الحسن (ع) وإصراره على خوض المعركة، فأراد ان يبرز كمحب للصلح ولحقن دماء المسلمين، ولكن سرعان ما فاجأته استجابة الإمام (ع) لعقد الصلح، ف شعر بخيبة وافتاق في تحقيق سياسته الماكرة خاصة أن بتود الصلح الزمته بأمر لم يكن له بد إلا القبول بها<sup>(٥)</sup> وقد نجحت خطة الإمام الحسن (ع) وبدأ معاوية يساهم إلى

(٥) ما يلي بتود صلح الحسن (ع) مأخوذ عن كتاب - صلح الحسن - للشيخ راضي آل ياسين/ص: ٢٥٩ - ٢٦١.



اختيار الحسين (ع) لطريق الشهادة.

أما اختيار الحسين (ع) لطريق الشهادة جاء لأن الأمة في زمنه كانت قد تخلصت وشفيت من مرض (الشك) بعد انكشاف واقع الأمويين وافتضاح واقع اطروحة معاوية وشعورهم بأنها ما هي إلا امتداد للجاهلية، وغدت تجربة الإمام علي (ع) في الحكم أملاً وحلماً في نظر الجماهير، وانخذت تدرك وتعي بأن الإمام علي كان يحارب في معاوية بن أبي سفيان جاهلية الأصنام والوثان، ولم يحاربه قبيلة أو شخصاً.

فالأمة قد شفيت من مرض (الشك) ولكنها منيت بمرض آخر وهو مرض (فقدان الإرادة) وقد أصبحت الأمة لا تملك إرادتها في الرفض والاحتجاج، بل أصبحت يدها ولسانها ملكاً لشهواتها، قد فقدت إرادة التغيير لأوضاعها الفاسدة قلوبهم مع الإمام ولكن سيوفهم عليه «كما قال، الشاعر الفرزدق».

لقد أصبحت الأمة تدرك وتعي بأن الإمام علي (ع) هو طريق الجهاد والخلاص وهو المثل الأعلى للحكم العادل، حتى غدا شعاراً لا نريد إلا حكم علي، شعاراً جماهيرياً شائعاً على السنة الثاثرين.

ولكن مع كل هذا الوضوح في الموقف كان هؤلاء لا يمتلكون إرادتهم لقد استكانوا وهانت عليهم فيهم ومثلهم حيث انطلقت فيهم شعلة الجهاد وكانوا يشعرون بالذل والتبعية لجلادهم من الحكام ولم يعد يحملون هم الرسالة بقدر اهتمامهم بمصالحهم واعطياتهم وشؤونهم الفردية، لقد نسوا همومهم الرسالية ونضاهلت بالتدريج لتحل محلها تلك الهموم الحقيرة.

ففي هذه الحالة كان لا بد لشخص أن يرجع للأمة إرادتها، فكان خيار الثورة والمجابهة العنيفة اسلوباً موضوعياً اتبعه الإمام الحسين (ع) في معالجة مرض (فقدان الإرادة) عند المجتمع الإسلامي.

أما الحسن (ع) فكان موقفه موقف المهادن المصالح ليفسح المجال لمعاوية في ان يكشف ويفضح واقعه وواقع اطروحته الجاهلية ليسترجع من خلالها ثقة الأمة واقتناعها بموضوعية واحقية اطروحة الإمام علي (ع) في الحكم.



وبهذا الفارق تكون قد اجلينا - للقارىء المریم - الفرق الموضوعي بين الظرف الذي عاشه الحسن (ع)، والظرف الذي عاشه - بعد عشرين سنة - الحسين (ع)، وقد تجلى هذا الفرق في نوعية مرض الأمة، وكان لا بد لمعالجة مرض (فقدان الإرادة) من اختيار الطريق الأول، بينما مرض (الشك) لم يكن علاجه إلا بانحسار التجربة السياسية، وقبول الصلح المشروط.

ثانياً: أما الاعتبار الثاني بوصفه أميناً على التجربة السياسية فكان من الواضح ان مواصلة تجربة الإمام السياسية أصبحت صعبة ومستحيلة وعاجزة من الاستمرار والمضي في الحكم والمعروف، ان الدولة العقائدية - ذلت الأطروحة الرسالية - تعيش بمستوى أكبر من مستوى مصالح الأفراد ووجوداتهم الذاتية، ولما كانت هذه التجربة لا يمكن ان تواصل وجودها مستقبلاً إلا إذا اكتسبت وحضيت بقناعة عقائدية واعية من قبل قواعدها (الموالية) حتى تتمكن ان تحمل أبعاد التجربة وتحميها من اعدائها وتحمل التضحية من أجلها، وعندما تفقد التجربة هذا الاقتناع تصبح التجربة عاجزة عن الفعل والعمل، غير قادرة عن الدفاع عن ذاتها وكيانها.

فالدولة العقائدية يجب ان تدخل في وعي وقناعات قطاعات عريضة من الأمة وتستهويهم فكرياً وروحياً، وإذا افتقدت الدولة اقتناع الأمة بها، فبمآدا تستهوي جماهيرها؟! هل تستهويهم بالمصالح الفردية الخاصة ولذاتها الرخيصة!؟.

نعم كان بالامكان ان يستهويهم الإمام ويستدرجهم إلى حكمه عن طريق دغدغة مصالحهم الخاصة، ويدخل نفس المداخل التي دخلها معاوية، يشتري ضمائرهم، يكتب إلى رؤوسائهم في الشام والعراق، ويخادع، ويماطل، ويوزع الأموال والاعطيات!!

ولكن كل هذه الممارسات (اللاأخلاقية) كانت خروجاً صريحاً ومبتدلاً على مضمون رسالة الإمام (ع)، لأن ديمومة أي تجربة سياسية (عقائدية) تعتمد اساساً على اقتناع القواعد الشعبية بها.

هذه القناعة لم تكن موجودة - في ظروف الشك والتعقيد التي عاشها الحسن

(ع) لذا انتهت تجربته السياسية في الحكم إلى ما انتهت إليه<sup>(١)</sup>.

### فارق آخر:

ونشير إلى فارق آخر ميز موقف الحسن عن موقف أخيه الحسين (ع) ، فالحسين لم يكن قائداً لتجربة سياسية ولم يكن أميناً على حكم قائم (كما الحسن (ع) وإنما كان شخصاً محكوماً ومضطهداً ولم يكن معه إلا أصحابه المتعاطفين مع أطروحة .

أما الحسن (ع) فكان حاكماً ووجوداً سياسياً قائماً بالفعل ، وقد تمثل وجوده السياسي بأجهزة الدولة ومؤسساتها المختلفة، هذا الوجود السياسي هو الذي دعا معاوية لأن يفكر ويخطط بطريقة مناسبة لمواجهتها. أيواجهها بطريقة الحيلة أم السيف لأن معاوية كان متخوفاً من نتائج اختياره لأحد الموقفين وعدم تحقيقها لأهدافه واحلامه في التوسع والزعامة .

ولكن بالرغم من قيام هذا الوجود السياسي الضخم إلا انه كان كياناً سياسياً (هشاً) مشتتاً من الداخل إلا ان هذا الوجود كان يضيء على الحسن (ع) قوة وعزة وهيبة، مما دعا الإمام ان يدخل مع معاوية في تحقيق أكبر قدر ممكن من المكاسب لتجربته واهدافها السياسية في الحكم .

أما الحسين (ع) بوصفه فرداً عادياً ومحكوماً من قبل سلطة الدولة لم يكن بإمكانه ان يدخل في تحقيق مكاسب لرسالته عن طريق المفاوضات السياسية مع يزيد بن معاوية بينما الحسن (ع) كان زعيماً لهجبة سياسية عريضة، كان بإمكانه ان يفرض على معاوية بعض التنازلات في مقابل إيقاف العمل مؤقتاً بتجربته السياسية في الحكم، فكان في صالح التجربة ان تتوقف مؤقتاً، مع اخذ الضمانات الكافية برجوعها رسمياً وقانونياً<sup>(٢)</sup> من ان تنتهي انتهاء ساحقاً، وذلك نتيجة لاصرار

(١) راجع نفس الكتاب الظروف الموضوعية التي مر بها حكم الإمام الحسن (ع) .

(٢) راجع نفس الكتاب / بنود وشروط صلح الحسن (ع) .

الإمام الحسن (ع) على خيار استمرار الاقتتال حتى الشهادة، بل يدخل مفاوضاً ومصالحاً معاوية، ليستبقي ما يمكن استبقائه من مكاسب لتجربته السياسية.

وعلى ضوء هذه الحقيقة جاء اختيار إمامنا الحسن (ع) للطريق الثاني، مؤكداً بأن كل من يعيش ظروف وملازمات حكم الإمام الحسين (ع) لابد أن يختار ما اختار.

والملفت للنظر - عندما ندقق في بنود وشروط الصلح نرى بأن الحسن (ع) اشترط على نفسه لمعاوية أن ينسحب عن ميدان الحكم، ولكنه لم يشير أو ينص - لا من قريب أو من بعيد - على أي نوع من البيعة لمعاوية أو اظهار التبعية السياسية له، وخصوصاً بالمعنى الذي كان موجوداً لعلي (ع) بالنسبة لخلافة أبو بكر وعمر وعثمان، وإنما كل شرطه مع معاوية، هو إيقاف العمل بتجربته السياسية ما دام معاوية على قيد الحياة، وبمقابل إيقاف المعركة، اشترط الحسن (ع) على معاوية كثيراً من الشروط والتمهيدات، بعض هذه التمهيدات ضمانات أمنية تخص كيان (شعبة أهل البيت) والبعض الآخر، كانت تتعلق بتجربته وكيانه السياسي، حيث اشترط على معاوية بأن لا يوصي من بعده لأحد غير الإمام الحسن (ع) وهذا الشرط يوضح بأن تنازل الحسن (ع) عن الحكم كان من أجل أن يسترجع ثقة الأمة واقتناعها بصحة اطروحاته لكي ترجع تجربته السياسية مرة ثانية إلى سيادة الحكم.

ثالثاً : أما الاعتبار الثالث بوصفه قائداً وزعيماً للكتلة التي بذرها النبي (ص) ونماها ورعاها الإمام علي (ع)، هذه الكتلة التي كانت تمثل الجزء الطليعي الواعي من الأمة الإسلامية آنذاك، والتي كان من المفروض أن تواصل امتدادها عبر التاريخ، حاملة للأجيال أمانة الإسلام بكامل صيغته ومضمونه. هذا الاعتبار كان في حساب اختيار أفضل الطريقتين.

وعلى ضوء هذا الاعتبار يظهر فرق آخر بين موقف الحسن وإخيه الحسين (ع) في اختيار كل منهم لطريق مختلف.

ربّ قائل يقول أن الإمامين متساويين في هذا الاعتبار لأن الحسين كأخيه الحسن (ع) كان أيضاً هو الزعيم والإمام الثالث لهذه الكتلة والأمين عليها في

مرحلتها التاريخية اللاحقة، إلا ان بينهما فرقاً جلياً، وحاصل هذا الفرق هو ان الحسن (ع) كان يستقطب كل هذه الكتلة بينما الحسين (ع) لم يكن يستقطبهم جميعاً، فالحسن (ع) عندما كان يحارب كانت كتلة (الشيعة) تدخل ضمن إطار سيادة دولته، ولم يكن معقولاً ان يحارب عدواً ويتوقف عن قتاله إلا بعد ان يستنفذ كل قواه وطاقاته وكل رصيده الشعبي . حتى يسقط شهيداً في ساحة المعركة .

أما الحسين (ع) فلم يستشهد إلا بعد ان استنفذ طاقة قواته (الصغيرة) والتي تمثلت حينذاك بتلك المجموعة الطاهرة حيث خرّوا صرعى ثم خرّ الحسين بعدهم صريعاً .

ومعنى قولنا هذا ان الإمام الحسن (ع) لو اراد ان يواصل قتاله حتى الموت كان لا بد له ان يستنفذ كل طاقاته، من قواعده الشعبية وكل ما يملك من موالين . ومعنى هذا انه سوف لن يبقى هناك وجود إسلامي قادر على ان يترجع ذلك الاقتناع المفقود باطروحة الإسلام الحقّة .

ومن هنا جاء مفترق الطريق، حيث قدر للإمام الحسن (ع) ان يسلك طريق الصلح - الذي تمثلت فيه أقصى الوان التحدي والقسوة للنفس البشرية التواقفة لاقامة العدل، ولكن الحسن (ع) لم يتردد لحظة في ان يتحمل كل هذا الأذى والضيم في سبيل ان يحقق أقصى درجة ممكنة من المكاسب للاعتبارات الثلاثة التي ذكرناها سابقاً .

\*\*\*

### الإمام يطالب بفسخ الهدنة :

لقد نجحت خطة الإمام الحسن (ع) بقبوله بشروط الصلح لكي يفرض معاوية بأظهار نواياه الجاهلية ، وفعلاً بدأ معاوية يساهم إلى درجة كبيرة بكشف نفسه وواقعه المنحرف وقد أعلن منذ اليوم الأول من استقلاله بالحكم عن مضمون اطروحته، وأخذ يواصل الاعلان عنها وفي مختلف المجالات ضارياً عرض الحائط شروط مع الحسن (ع) قائلاً بكل تحد وصلف :

«الا واني كنت منيت الحسن واعطيته اشياء وجميعها تحت قدمي ، لا  
أفي بشيء منها»<sup>(١)</sup> .

وعندما اخل معاوية علانية بشروط الصلح المتفق عليها أمام نظر واسماع  
المسلمين متحدياً بذلك مشاعرهم ، اخذ كثير من المسلمين يطالبون الإمام (ع)  
بفسخ الهدنة ومواجهة معاوية من جديد ، ولكن الإمام (ع) كان يجيبهم بقوله : -

«أن لكل شيء أجل ، ولكل شيء حساب»<sup>(٢)</sup> .  
ولعله فتنه لكم ومتاع إلى حين»<sup>(٣)</sup> .

ولم يكن الإمام (ع) يرفض بشكل مطلق فكرة نقض الهدنة ولكن كان  
يؤجلها بالمنطق الذي يجعل لكل شيء أجل ولكل شيء حساب ، لأنه كان يريد أن  
تتكشف شخصية معاوية بشكل اوضح ، وان تكون اهدافه الجاهلية قد بانت لكل  
انسان .

إلا ان معاوية احس بخطة الإمام (ع) وعرف ان الحسن (ع) سيكشفه أمام  
الملا ويلاعب ورقته بنجاح أمام الجماهير المسلمة وعند ذلك ينفذ امره للجميع ،  
ولهذا بادر معاوية لتحصين نفسه ضد هذه الفضيحة والعمل على افساد خطة الإمام  
حتى لا يكون مصيره مصير عثمان .

ولما كان معاوية يريد التمتع بالدنيا من خلال ملكه إلى اقصى ما يمكن ان  
يتمتع به الملك فهو لا بد اذن ان ينكشف للناس ، فعمد إلى اخفاء فضيحته بالعمل  
والتخطيط الدائب إلى اماتة ومصادرة ضمير الأمة وارادتها وقابلتها بتحدي  
الظالمين ، فكانت سياسته على مدى عشرين سنة ، تخطيطاً دائماً لتميع ضمير الأمة  
وارادتها بأن يجعلهم ينصرفون عن التفكير في الهموم الكبيرة وينقطعون إلى

همومهم اليومية الصغيرة وينصرفون بها عن الأهداف التي حملوها مع نبيهم العظيم في تحطيم جاهليّيات العالم إلى الاهتمام بعيشهم ومصالحهم الشخصية وإلى إعطياتهم التي يتقاضونها من بيت المال .

و فعلاً افلحت بعض خطط معاوية في تحطيم معنويات بعض المسلمين ، حتى أصبح المسلم الذي كان يفكر بتحطيم عروش الظالمين في بلاد كسرى وقبصر أصبح الآن لا يفكر إلا بعطائه الرخيص وحياته المبتذلة .

وقد وصل الحال - كما مر شرحه - بشيوخ بعض قبائل الكوفة أن أصبحوا جواسيس لمعاوية بالرغم من تشيعهم لامير المؤمنين ( ع ) وأخذوا ينقلون الأخبار أولاً بأول عن أي بادرة تحرك أو تمرد من قبل رجال قبائلهم ثم تأتي شرطة الحكومة وتلقي القبض عليهم وتخنق انفاس المعارضة .

هذه الأعوام العشرون التي حكمها معاوية قد تكون من أخزى وأحرج الفترات التاريخية التي مرت على الأمة الإسلامية أصبح خلالها الانسان المسلم يحس احساساً مدمراً بأنه مظلوم وامته أصبحت مهددة بخطر الفناء، وان احكام الشريعة يتلاعب بها، واصبح الفيء والسواد بستاناً لقريش والمخلاة كرة يتلاعب بها صبيان بني أمية .

كلمة اخيرة عن الإمام ( ع ) :

مع الأسف أن كثيراً من مؤرخي التاريخ العام يؤكدون تصوراً شائعاً حول قيادة الإمام الحسن ( ع ) وضعفها وتراجعها أمام ضغط الاحداث، أو انه تنازل عن حقه راضياً حسماً للفتنة<sup>(١)</sup> أو انه خان الإسلام وسلم تجربتها السياسية دون قتال إلى معاوية عدو الإسلام ركوناً للذعة والراحة . . هكذا وبكل بساطة !!

ويخصوص هذه المزاعم والتقولات الرخيصة فقد تكلفت الدراسة السابقة بالرد عليها وتفنيد مزاعمها، ولكن الذي نريد ان نؤكد الان بأن هذا الاعتقاد

الشائع - أغلب الظن سببه - اعتقاد هؤلاء المؤرخين بأن دور الأئمة في حياتهم كان دوراً سلبياً على الأغلب بسبب اقصائهم عن الحكم .

وهذه التفكير بالرغم من انه خاطيء إلا انه يدل على جهل هؤلاء المؤرخين بظروف وتاريخ حياة الأئمة ( ع ) .

فالأئمة بالرغم من اقصائهم من مسؤولية الحكم كانوا يتحملون باستمرار مسؤوليتهم في الحفاظ على الرسالة وعلى التجربة الإسلامية وتحصينها ضد التردى إلى هاوية الانحراف والانسلاخ من مبادئها وقيمها انسلاخاً تاماً<sup>(١)</sup> .

فالإمام الحسن ( ع ) - كما مر تفصيلاً - عندما هادن معاوية وتنازل عن الحكم اتجه إلى تغيير الأمة وتحصينها من الأخطار التي كانت تهددها والاشراف على القاعدة الشعبية وتوعيتها بمتطلبات الشخصية الإسلامية وتعبئتها بمحتوى التغيير الرسالي للإسلام ولبعث الأمة من جديد .

هذا الدور الايجابي للإمام ( ع ) وتحركه الفاعل على مسرح الاحداث كلفه الكثير من الرقابة والحصار ومحاولات اغتيال متكررة، وهذه المحاولات ان دلت على شيء فأنها تدل بكل وضوح إلى مخاوف السلطة من تواجد الإمام ( ع ) كقوة معبرة عن عواطف الأمة ووعيها المتنامي ، ولربما حملت معها خطر الثورة ضد ظلم بني امية .

واغتيال الإمام في سنة ٤٩ هـ بالسم دليل صارخ بتواجده عملاً ونشاطاً دائماً في بعث الأمة وانهاضها من جديد .

فالإمام لم يعزل ولم يتخاذل عن قيادة الأمة ومتطلباتها في الكفاح . ومعاوية أدرك ذلك جيداً بأن الإمام ( ع ) هو صاحب رسالة ومبدأ فلا بد انه عامل لاعطاء رسالته من جهده وعرقه سيادة الحكم من جديد بما يبذله من اساليب العمل والتغيير .





## «مصادر الكتاب»

### حرف الألف

.....	١ - القرآن الكريم.
عسح الأملن العاملل	٢ - أعمان الشلعة.
علل بن محمد بن الأملر	٣ - أسد العابة.
عمد أبو حامد العزالل	٤ - أءاء العلموم.
عءة النءءف الأشرف	٥ - الأءواء.
العطربسل	٦ - الأءءءاء.
العطربسل	٧ - أعلام الورل بأعلام الهءل.
عبل الرحمن بن عمء العلاء	٨ - الأءءصار.
البلاءفرل	٩ - أنساب الأءراف.
ابن ءءة الءلنورل	١٠ - الأمامة والسلاءمة.
السبل عمء ءسول فضل الله	١١ - الإسلام ومنطق القوة.
السبل عمء باقر الصءر	١٢ - الإسلام بقوء الءلاء.
عمء مهلل الأصفل	١٣ - الإمامة فل الأءرفع الإسلامل.
مبلرأ غلام رءا	١٤ - الأءءاء والأءلللء.
لءة الأءلف فل ءار الأوءلء	١٥ - أملر المؤمنل.
ءوفلق أبو علم	١٦ - أهل البلس.
عءل الأءبل	١٧ - الأءمة الأءنل عشر، ءراسة ءءلللة.

### حرف الباء

.....	١٨ - بعء ءول الولاءة.
السبل عمء باقر الصءر	١٩ - البءار.
عمء باقر المءلسل	.....

### حرف التاء

- ٢٠ - تاريخ اليعقوبي..... أحمد بن أبي يعقوب  
٢١ - تاريخ الطبري..... محمد بن جرير  
٢٢ - تاريخ ابن الأثير..... علي بن محمد الجزري  
٢٣ - تاريخ أبي الفداء..... إسماعيل بن علي بن محمود  
٢٤ - تاريخ الخطيب البغدادي..... أحمد بن علي  
٢٥ - تفسير الطبري..... محمد بن جرير  
٢٦ - تفسير الثعلبي..... أحمد بن محمد  
٢٧ - تفسير الكشاف..... محمود بن عمر جار الله الزمخشري  
٢٨ - تهذيب التهذيب..... ابن حجر أحمد بن علي  
٢٩ - تذكرة الخواص..... سبط ابن الجوزي

### حرف الشاء

- ٣٠ - ثورة الحسين، ظروفها الاجتماعية وأثارها النفسية..... محمد مهدي شمس الدين

### حرف الحاء

- ٣١ - الحكمة..... مجله، لبنان  
٣٢ - حياة الامام الحسن..... لجنة التأليف في دار التوحيد

### حرف الدال

- ٣٣ - دائرة المعارف الاسلامية الشيعية..... حسن الامين  
٣٤ - الدر الثمور..... عبدالرحمن بن ابي بكر السيوطي  
٣٥ - دراسات في نهج البلاغة..... محمد مهدي شمس الدين  
٣٦ - الدولة العربية إلى نهاية الدولة الاموية..... يوليوس فلهاوزن

### حرف الراء

- ٣٧ - روح المعاني..... محمود الالوسي

### حرف السين

- ٣٨ - سلم الوصول إلى علم الاصول..... عمر عبدالله

- ٣٩ - سيرة الرسول..... ابن هشام  
 ٤٠ - السقيفة..... محمد رضا الظفر  
 ٤١ - سيرة الأئمة الاثنا عشر..... هاشم معروف الحسني

### حرف الشين

- ٤٢ - شرح عيج البلاغة..... عبد الحميد ابن أبي الحديد

### حرف الصاد

- ٤٣ - صغين..... نصر بن مزاحم  
 ٤٤ - صانعو التاريخ العربي..... د. قليب حتى  
 ٤٥ - صحيح مسلم..... مسلم بن الحجاج القشيري  
 ٤٦ - صحيح البخاري..... محمد بن اسماعيل

### حرف الطاء

- ٤٧ - طبقات ابن سعد..... ابن سعد

### حرف العين

- ٤٨ - عقيدة الشيعة الامامية..... دونالدسن  
 ٤٩ - عثمان..... طه حسين  
 ٥٠ - علي بن أبي طالب، نظرة عصرية جديدة..... د. محمد احمد خلف الله  
 ٥١ - العدالة الاجتماعية..... سيد قطب

### حرف الفاء

- ٥٢ - الفصول المهمة..... ابن الصباغ المالكي  
 ٥٣ - فضائل الخمسة من الصحاح الستة..... مرتضى الفيروزي آبادي  
 ٥٤ - الفتنة الكبرى..... طه حسين

### حرف الكاف

- ٥٥ - كشف الغمة..... علي بن عيسى الأربلي  
 ٥٦ - الكامل..... ابن الاثير

### حرف اللام

- ٥٧ - اللمعة النمشقية..... العاملي

### حرف الميم

احمد بن حنبل	.....	٥٨ - مستند الامام أحمد
الحاكم النيسابوري	.....	٥٩ - مستدرك الحاكم
عبد الحسين شرف الدين	.....	٦٠ - المراجعات
علي بن الحسين الطبرسي	.....	٦١ - مجمع البيان
محمد بن عبد الكريم	.....	٦٢ - الملل والنحل
		الشهرستاني
محمد حسين فضل الله	.....	٦٣ - مفاهيم اسلامية عامة
مجلة، مصر	.....	٦٤ - المحتار الاسلامي
الشمخيري	.....	٦٥ - من حياة أهل البيت

### حرف النون

مجلة، كلية الفقه - النجف	.....	٦٦ - النجف
المقريري	.....	٦٧ - النزاع والتخاضم
د. صبحي الصالح	.....	٦٨ - النظم الاسلامية، نشأتها وتطورها

### حرف الواو

مالك بن نبي	.....	٦٩ - وجهة العالم الاسلامي
-------------	-------	---------------------------

### حرف الياء

د. أحمد عباس صالح	.....	٧٠ - اليمين واليسار في الاسلام
-------------------	-------	--------------------------------

## فهرس الكتاب

٣	..... المدخل لدراسة تأريخ ائمة أهل البيت
٤	..... كيف ندرس تأريخ أهل البيت (ع)
٦	..... المنهج والأسلوب
١٧	..... هل المنهج الترابطي يلغي المنهج التجزيئي
٢٠	..... المنهج التجزيئي عامل إعاقة ١
٢١	..... المنهج الترابطي الأسلوب الأمثل
٢٢	..... خلاصة البحث
٢٥	..... الهدف من هذه الدراسة

## الكتاب الثاني

٢٩	..... دور ائمة أهل البيت في التأريخ الإسلامي
٣٩	..... المرحلة في عمل أهل البيت (ع)
٤٠	..... مراحل عمل ائمة أهل البيت (ع)
٤٩	..... تمهيد: خلافة النبي (ص) ومستقبل الدعوة
٥١	..... اجتماع السقيفة
٦١	..... تعريف بشخصية الإمام
٦٢	..... مكانته من خلال الكتاب والسنة
٦٤	..... الإمام وموقفه من الخلفاء

٦٦	شخصيته وأخلاقه الاجتماعية .....
٦٨	زهده .....
٦٩	أخلاقه .....
٧٣	حياة الإمام علي (ع) السياسية .....
٨٠	الإمام وموقفه من الثورة على عثمان .....
٨٥	الإمام (ع) وموقفه من تولي الحكم .....
٩٥	طبيعة موقف الإمام (ع) ومعاوية من الصراع .....
٩٧	موقفي الهجوم والدفاع .....
٩٩	ومعركة تصفية الانحراف الداخلي» .....
١٠٢	«مركز الإمام في نظر المسلمين» .....
١٢٤	الإمام علي يختار الكوفة مركزاً لخلافته .....
١٢٨	رفض الإمام (ع) للمساومات ، هل كان عناداً ١٩ .....
١٢٩	الدوافع والأسباب .....
١٥٨	شهادة الإمام علي (ع) في الميزان .....

### الفصل الرابع

١٦٢	تمهيد: تعريف بشخصية الإمام ونشأته .....
١٦٤	شخصية الإمام الأخلاقية .....
١٦٥	الحسن (ع) في عهد الخلفاء .....
١٦٧	الإمام الحسن بعد استشهاد أبيه .....
١٦٩	رد فعل معاوية علىبيعة الإمام الحسن (ع) .....
١٧٠	الإمام وظروف استلامه الحكم .....
١٧٢	صراع بين كيانين .....
١٧٥	الإمام (ع) يترئس في معاندة معاوية بالحرب .....
١٧٧	الفارق التريخي بين شخصية الإمام علي والحسن (ع) .....
١٧٨	تفاهم «ظاهرة الشك» بعد استلامه للحكم .....
١٧٩	لماذا قبل الحسن البيعة ١٩ .....



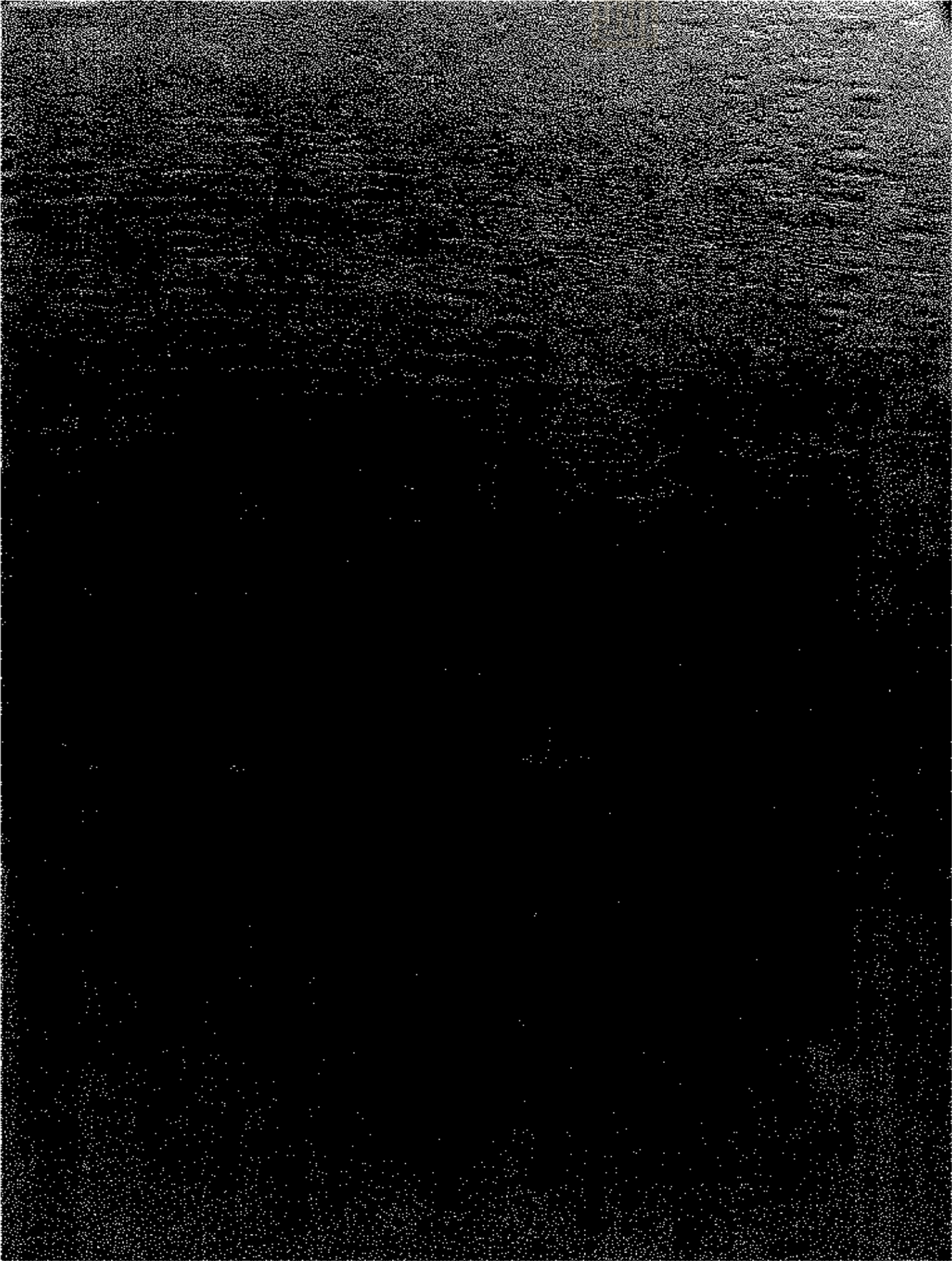
١٨٨	هل كان صلح الحسن مع معاوية تحاذلاً ١٩
١٩١	مناقشة الاعتبارات الموضوعية
٢٠٠	اختيار الحسين (ع) لطريق الشهادة
٢٠٤	الإمام يطالب بفسخ الهدنة
٢٠٦	كلمة أخيرة عن الإمام (ع)
٢٠٩	مصادر الكتاب
٢١٣	فهرس الكتاب













To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)